د. يحيى الأحمدي

حتى لا تصبحين.. مطلقة



2009



الناشر

BookCity For Training & Publishing

بوك سيتى للنشر والتدريب والاستشارات الإدارية

٤٠ شارع طلعت حرب – وسط البلد – القاهرة – جمهورية مصر العربية

تليفاكس: ٢٥٧٤٠٥٠٣ ٢ ٢٠ +

E-mail:bookcity4pub@yahoo.com

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٣١٠٩

الترقيم الدولى: 978-977-6308-04-6

حتى لا تصبحين .. مطلقة

تأليف: دكتور/ يحيى الأحمدي

بوك سيتى للنشر والتدريب والاستشارات الإدارية

القاهرة، ٢٠٠٩م – ٢١٢ صفحة

مُقَدِّمَة

أما قبل .. فتلك صرخة - نهمس بها - في وجه من لا يعرف جهلاً ..أو عرف لكنه قبل السكوت هروباً جباناً أو قبولاً عاجزاً .. صرخة لا تبغي مجرد آذان تحتوى صخبها إلى تنتهي فورة الانفعال .. بل تبغي - وترجو - قلوباً تنفعل لها بمثل انفعالها .. كي تتحول صرخات الجميع إلى أظافر حادة ، تخدش وجه الواقع المرير الذي آلت إليه الكثير من بيوتاتنا .. وأبوتنا .. وأمومتنا .. وبنوتنا .. وأخوتنا .!!

ومع التسليم - الشخصي - بأن كل تلك العلاقات الإنسانية ، هي محض مصالح لأطرافها . تحقق لهم فائدة أو تدفع عنهم ضرراً .. سواء أكانت أبوة أو أمومة أو أخوة أو بنوة أو صداقة أو غيرها .. فإنه حتى هذه المصلحة أو الفائدة . تقتضى من أصحابها غير ذلك الذي نفعل ويفعلون .. أما الذي يقتضى الصراحة التي نبغي أن نصم بها آذان أصحابها ..فهو ذلك الضرر الواقع علينا وعلى الجميع . من جراء ممارساتنا لعلاقاتنا تحت مظلة المبدأ الانتهازي المستحدث .. " كيف تحصل على أكبر عائد .. بأقل قدر من العطاء " ..!!

صرختنا ستكون في وجه ذلك الصنف من البشر - وربما كنا منهم - الذين وقر في قلوبهم أن الزوجية - بكل لأسف - هي تشريف . ليس وراءه أي تكليف .. أو قنعوا بأن الزوجية هي نوع من " الكماليات " لابد منه .. بسعيهم إلى امتلاك " زوجة أو زوج " .. ومن بعدها امتلاك " طفل أو طفلين " ليجعلوا "للحياة طعم " .. أو توارثوا فكرة أن الزواج هو إعلان - غير مدفوع الأجر - عن ذكورتهم .. التي ترتع في رحاب أنثى . وتنأى عن الاتهام بالعجز .. وتتحصن ضد الطعن بعدم المصداقية .!!

وشخوص حكاياتنا كثيرة ..

زوجة صابرة تشكو اضطرارها للاضطلاع منفردة بعبء تربية الأبناء .. وحملهم في سيارتها إلى مدارسهم صباحاً والعودة بهم ظهراً .. وتحمل مسؤولية مساعدتهم في استذكار دروسهم .. والتعرف على أصدقائهم .. وزيارة مدارسهم لحل مشكلاتهم .. والخروج إلى السوق لابتياع حاجاتهم من الطعام والملبس .. وزيارة الطبيب لمداواة مريضهم .. وحتى النزول إلى الشارع لاستيقاف سيارة أنابيب الغاز .!! كل ذلك بعد أن طلقها رجل جائر .. لم يعرف للزوجية حقها . وأغرته نزواته فسار خلفها .. الى أن ضيعها .. وضيع أبناءها .. ولا يزال ينتظر .. ضياعه .!!

رجل محترم .. تزوجها وانتشلها من جب الطموحات الموؤدة . واحتواها في قلبه قبل بيته . وأنجب منها ولها . ورفع شأنها في بيتها وعملها .. ثم قام من احترامه ذات صباح مشئوم – دون سابق إنذار أو إعلام – على صوتها الكريه : " طلقني .. لا أرغب في العيش معك بعد اليوم " .!! لم يجد بداً من حفظ ماء كرامته . ولبى لها مطلبها . وانزوى بأبنائه في ركن شبه مظلم من أركان الحياة الكئيبة وما أكثرها .. لا يجد من يرعاهم معه . ولا يجد من تقبل غيرها بالزواج منه للقيام بدور خادمة لأبنائه .. ولا يعرف الى الراحة من عنائه سبيلا .!! أما هي .. ففي رحاب رجل آخر ترتع .. تنتظر موجة عاتية من موجات تأنيب الضمير تأتيها ذات مساء كريه .. فتذهب بها وهنائها .!!

شخوص حكاياتنا كثيرة .. تتأرجح مابين زوج " نذل " أو " تافه " أو " مريض " أو " غبي " أو " ظالم " أو " ساذج " أو " متغطرس " أو " مزواج " أو " لئيم " أو .... وبين زوجة " متطاولة " أو " عنيدة " أو " متكبرة " أو " نكدية " أو " متسلطة " أو " شرسة " أو " جموحة " أو " خسيسة " أو ....

وأمام كل تلك الشخوص – ومن خلفها – تأتي الصرخة : أين أنت "يا حمرة الخجل" .؟! أين أنت يا من بمقدورك أن تلطم وجه هذا وهذا وهذا .. وهذه وهذه وهذه .. لتقول له شيئاً عن رجولته الناقصة ، وأبوته المشوهة ، وواجباته التي خذلها .. وخذلنا معها .. ولتقول لها شيئاً عن غدرها ولؤمها وأنانيتها .. والجنة التي حرمت نفسها منها في الدنيا بغيابها عن أبنائها ، وحرمت نفسها منها في الآخرة ، لأنها ما جعلها الله إلا " ... تحت أقدام الأمهات " .!!

أين أنت يا كل ألوان " الكسوف .. والخسوف " .؟؟ أين أنت أيها الشاعر الذي قال :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلاً

إن اليتيم هو الذي تلقى له أماً تخلت أو أباً مشغولاً

....

لهذا .. ولغيره كثير .. أقدم هذا الكتاب .. لعله .. ولعلنا ..!!

الفصل الأول

شَكل .. للبيع

ليست هناك امرأة لا يكدر صفوها القلق من احتمال طلاق الرجل لها يوماً .. مهما بلغت ثقتها في حبه لها ، أو قناعتها بعدم قدرته على الاستغناء عنها .!!

ويبدو أن هذا القلق هو قلق نسوي فطري غريزي .. وإن كانت الأبحاث لم تمنحه الفرصة للدراسة ، لمعرفة أبعاده .. ومدى مسؤولية " جين وراثي " موجود لدى كروموسومات المرأة – دون كروموسومات الرجل – عنه .!!

والخوف لو تعلمون نوعان .. خوف من أشياء حقيقية مخيفة بطبعها وهو الخوف العادي .. وخوف من أشياء وهمية وهو ما يسمونه القلق .. أما الخوف من أشياء حقيقية هي في الأصل لا تخيف ، فهو ما يسمونه "الفوبيا" أو المخاوف المرضية .. كالخوف من الصراصير ، أو من الأماكن الضيقة ، أو من الأماكن المرتفعة وهكذا ..!!

ولندع الخوف من الأشياء الحقيقية ، فمن لا يخافها هو مريض .. ولندع المخاوف المرضية لأنها ليست موضوعنا الآن .. ولنركز على القلق أو الخوف من الأشياء الوهمية ، ومنها القلق من الطلاق .. رغم عدم وجود مؤشرات تدل على قرب حدوثه أو حتى احتمال حدوثه .!!

أولاً .. فإن هذا القلق من الطلاق هو أحد الأسباب الرئيسة التي تجعل المرأة تقول لزوجها عند أي خلاف : " طلقني " .. وكأن لسان حالها يقول : افعل تلك الواقعة التي أموت منها قلقاً .. افعلها باختياري أنا وليس رغماً عني .!! رغم أن الخلاف لا يمكن أن يصل إلى تلك النتيجة .. بدليل أن الرجل في الغالب يجيبها : طلاق إيه يا هبله إنتي .. إنتي اتجننتي ..؟؟ طيب اهدي .. خلاص حقك عليّ .. أطلقك إزاي وأنا باحبك وما أقدرش استغنى عنك يا عبيطة .!!

لقد طلبت المرأة الطلاق هنا بدافع من القلق الفظيع الذي يقتلها . وتريد اطمئناناً من أي نوع يزيل هذا القلق .!! والدليل الآخر على قولنا .. أن الرجل لو استجاب لطلبها وطلقها . فإنها تتلقى الكلمة وكأنها فوجئت بها .. وكأنها صدمة غير متوقعة .. حيث تنخرط في نوبة بكاء هستيري . أو تنفلت إلى عدد من التصرفات العصبية اللاواعية فتكسر وتحطم .. كل ذلك لأنها لم تكن تعني أن يطلقها عندما طلبتها .. بل هي فقط كانت في محاولة "عادية" لإزالة القلق من نفسها .. تماماً كما يقول الطفل عندما تهدده أمه بأبيه : " هوه هايعمللي إيه يعني .. هايضربني .؟؟ أنا مايهمنيش الضرب .!! والحكاية أنه يريد أن يخفف من قلقه من هذا العقاب المتوقع . رغم أنه لا يتمنى بالطبع حدوثه .!!

وثانياً .. فإن قلق الطلاق هذا هو . الذي وقف وراء دعوة المرأة في عقود الزواج الحديثة بأن تشترط على زوجها ألا يطلقها إلا بإذنها . وألا يتزوج عليها مطلقاً مهما كانت الأسباب . طالما أنها في عصمته .. و هو الذي جعل الجميلات وصاحبات المال والجاه منهن يشترطن أن تكون العصمة في يد المرأة منهن . حتى تعفي نفسها من معاناتها من قلق الطلاق هذا .. فالرجل لا يمكن أن يفعل ذلك بالتأكيد . بعد أن جردته من هذا السلاح المخيف بالنسبة لها .. ربما أكثر من الموت .!!

وثالثاً .. فإنه رغم كل ما يمكن أن يفعله الرجل لامرأته لتطمينها .. إلى حد أن يكتب لها كل أملاكه . ويضع لها حساباً في البنوك . إلا أن كل ذلك لا ينجح في زرع الاطمئنان في قلبها من ناحيته .. فالتطبيع لا يمكن أن يغلب الطبع .!!

ورابعاً .. فإنه وكلما تقدم العمر بالمرأة فإن هذا القلق يتزايد . وترتفع حدته حتى سن معينة " نحو الخمسين من العمر " . عندها تبدأ حدته في

الخفوت . ليتصاعد بديلاً عنه ما يسمونه في علم النفس بـ " قلق اليأس " .. الذي تتزايد حدته إلى سن معينة " نحو الستين " . ليحل محله -كقلق أخير- ما يسمى بـ " قلق الموت " ..!!

ولأن كل الأمور مقدرة بقدرها وموعدها . فإن ما يقف خلف قلق الطلاق عند المرأة هو ضعف إيمانها بالقضاء والقدر والمكتوب .. ولو أنها آمنت وذكرت لاطمأنت . بعد أن تبذل من جهتها بالطبع كل ما عليها للاحتفاظ بالرجل .. فليست عاقلة من تفعل كل ما ينفر الرجل ويدفعه دفعاً بعيداً عنها . ومع ذلك تصرخ في داخلها كل لحظة بقلق الطلاق . رغم أنه كان ينبغي أن يكون خوفاً حقيقياً .. فالرجل لا يؤمَن جانبه إلا إذا شعر أن امرأته تستحقه . أو أنه لا يستحقها .. أما أن يشعر أنه " كتير عليها " فهنا يكون أول الخطر .. وأول القلق عند المرأة ..!!

****

لابد أنك تذكرين عزيزتي – وكأنها بالأمس فقط – تلك اللحظة الغبية التي قال لك فيها زوجك السابق : " أنت طالق " ..!!

لابد أنك تذكرين كم كان منفعلاً عندما قالها .. إلى حد أنك سمعتيه بأذنيك بعد أن نطق بها وهو يستغفر الله بصوت مسموع وكأنه بدأ يعاقر الندم بمجرد مغادرة الحرف الأخير لسانه .. وكيف أنه جلس إلى أقرب مقعد ووضع يديه على عينيه ووجهه وكأنه على وشك بكاء ..!!

ولابد أنك تذكرين كيف احتضن ابنه بقوة وبكى وقال له وهو ينظر ناحيتك وأنت تجمعين ملابسك : ماتخافش يا بابا .. ماما رايحة عند الدكتور وراجعة تاني ..!!

فإذا كنت تذكرين كل تلك التفاصيل وغيرها بقوة ولا تغادر مفرداتها خيالك من يومها .. فهل تذكرين – وبنفس القوة – تلك الأسباب التي أدت به

إلى ذلك الانفعال الشديد الذي أوصله إلى أن يرمي في وجهك بكلمة الطلاق المؤلمة .. الكلمة التي لابد أنه يكرهها ، بدليل ما شاهدتيه بعينيك من انهياره بعدها وانهمار دموعه ؟؟

هل تذكرين كيف كنت تقفين متنمرة ووجهك في مرمى يده .. تنظرين في عينيه بتحد جامح قائلة له : لو كنت راجل طلقني .. لو عندك ذرة كرامة طلقني .. ودلوقت حالاً .!!

هل لا يزال عالقاً بذهنك صورتك وأنت تجمعين ملابسك بعد أن نطقها .. وأنت تبرطمين بكلام حاد جارح عن الأيام السوداء التي لم تعرفيها إلا يوم عرفتيه .. وعن الراحة التي بدأت تشعرين بها بعد أن نطق بكلمته .. وأنت تدفعين ابنك جانباً وتأمرينه أن يخرس عندما كان يسألك : انت بتجمعي هدومك ورايحة فين يا ماما .؟؟

أنا لا أريد أن أعكر صفوك أو أقلب عليك مواجعك .. فما حدث قد حدث ، ولا طاقة الآن لك أو لي بتغييره إلا إذا أراد الله سبحانه .. لكنني أحاول إجراء نوع من التقييم الذاتي أو من محاسبة النفس على أشياء حدثت ، كان يمكن - بأقل قدر من الذكاء أو أقل قدر من المكابرة أو أقل قدر من التساهل - ألا تحدث .!!

ربما يكون هذا من أجلك في مواقف حياتك القادمة .. وربما يكون من أجل أخريات على حافة الطلاق الآن ولا تحتاج العلاقة بينهن وبين أزواجهن إلا للحظة غبية من تلك اللحظات التي تمر بنا ونطلق فيها لمكابرتنا العنان مهما كانت النتائج .. وربما من أجل تأنيب النفس الأمارة بالسوء على ما أفسدناه نحن بأيدينا ثم ادعينا أن الدهر أفسده .. وربما من أجل التكفير عن ذنب حرمان أبناء لا ذنب لهم من رعاية والدهم .!!

أنا لا أستطيع أن أنكر أن هناك حالات لم يكن لها حل إلا الطلاق .. بل لعله كان هو الحل الأكثر سلاماً وأماناً .. لكنني أعرف أيضاً - وربما أنت - أن طلاقك كان يمكن ألا يحدث لو أنك استطعت إجراء الحوار الأخير الذي سبقه . بقدر من الكياسة والذكاء الذي جبلت المرأة بفطرتها عليه . خصوصاً في علاقتها بالرجل ..

وعندما كنت أسمع الناس البسطاء في قريتنا البعيدة تتطارح عباراتها - التي عرفت فيما بعد أنها حكيمة .. كنت أقضي الوقت الطويل أتأمل ما أسمعه ولا أفهمه .. وغالباً ما كنت أنتهي إلى فهم ضئيل لا يتناسب وحجم ما قضيت من وقت في التفكير فيه ..

من هذا الذي كنت أسمعه ولا أفهمه . ما كانت تقوله لي أمي : يا أخي انت " مابتشمّش " .؟؟ تقصد أن حاسة الشم لدي معدومة .. فكنت أتلفت حولي وأعيد سحب نفس طويل من الهواء المتاخم لأنفي وأحاول أن أكتشف أية رائحة غريبة في المكان .. فلا أجد . فأغادر مكاني وأنا لا أفهم العلاقة بين ما حدث مني من سلوك . وما طلبته مني متعلقاً بالشم .!!

كما كانت تلك العبارة تقال لي - من غير أمي - عندما أتدخل فيما لا يعنيني . على الرغم من رغبة صاحب الأمر في عدم التدخل .. وكانت تقال لي أيضاً - من أبي هذه المرة - عندما أنفق مصروفاً غير محسوب من باقي نقود أرسلني بها لشراء أغراض لها . مدفوعاً بامتلاك الباقي من النقود .. دون أن أدرك ما ينتظر بيتنا من أعباء مادية حتى نهاية الشهر على خير ..

الحكاية إذن - هذا بعد أن كبرت ووعيت - ليست حكاية رائحة لم أنجح في شمها واكتشافها .. الحكاية حكاية إحساس وحساسية وتحسس .. حكاية فهم مسبق وعدم انتظار حتى وقوع الكارثة كي أنتبه وأفيق .. حكاية الناس الذين يدركون حجم النيران المتوقعة في القريب العاجل بمجرد

شمهم لرائحة " شياط " ، فيتصرفون مع هذا الشياط على اعتبار أنه مشروع نيران محتملة .. بلا استهانة ولا استخفاف .!!

هكذا فيما يبدو كل نيران الطلاق التي تباغت بيوتنا .. فهي ليست نيراناً فجائية صحونا عليها ذات يوم ونحن في عز النوم لأنها اقتحمت غرفنا من الشبابيك .. إنها نيران بدأت شرارتها الأولى من عندنا .. من مطبخنا .. ولو كنا " نشم " كما قالت لي أمي ما حدث ما حدث ..!!

هل لو كانت نساؤنا يمتلكن القدرة على " الشم " ففهمن وأدركن قبل الأوان أن تحت الرماد الصامت ناراً متأججة .. وكانت لأنوفهن قرون استشعار تلتقط عن بعد تلك الرسائل القادمة ، مهما كانت ضعيفة الموجة .. كان الحال سيكون أصلح من حالنا الآن .!!

لا يمكن لامرأة مطلقة أن تقول بأن زوجها قد قام من نومه ذات صباح فقال لها وكأنه يتجشأ : إنت طالق يا باتعة (اسم الدلع بتاعها) .!! ولا يمكن لرجل أن يقول بأنه عاد ذات مساء فوجد امرأته الحبيبة في انتظاره لتقول له وكأنها تتثاءب : طلقني يا أبو بظه (اسم الدلع بتاع المحروس المتختخ ابنه) ..!!

ولم يحدث إلا نادراً أن جلس المأذون وحذر الراغبين في الطلاق من ولوجهما دائرة أبغض الحلال ، واستجاب له أي منهما .. مما يعني أن المسألة لم تكن "ساعة شيطان" على الإطلاق .. دي حكاية " لها إيدين ورجلين " ، ومشكلة ضاربة بجذورها في الأعماق .!!

لماذا وصلت إلى هذا الحد .؟؟ لأن أحداً منهما لا يجيد شم رائحة الشياط المتصاعدة من مطبخ الحياة الزوجية .. وفي الغالب يحدث ذلك بسبب الاستمراء والاعتياد والركون إلى أن الزواج قد أصبح أمراً واقعاً .. وأصبح

هناك بيت وأبناء ، وأن أحداً من الزوجين لن يفكر في هدم العش . فلماذا إنهاك الأنف في شم ما لن يسفر عن حريق .؟؟

انه التراكم غير الملتفت إليه .. تراكم الإحساس بالمهانة أو بعدم التقدير ، أو بتراجع قدر الاهتمام ، أو بارتفاع معدل التطاول ، أو بانخفاض نسبة تثمين المشاعر وحفظ الأحاسيس ..إنه بعض ذلك أو كله ..

ولأن الشياط لا يرحم أحداً .. فإن سنوات من عمى العينين من دخان الشياط .. ثم ساعة من لهيب الاحتراق .. وتنتهي الحكاية بأسوأ مما بدأت .. مع أننا - وأصحابها - كنا ننتظر لها نهاية سعيدة .!!

****

" بتحبني .؟؟ جاوب على طول .. ماتفكرش .. شفت .. أديك ما جاوبتش على طول .. يبقى مش بتحبني .. أنا قلت كده . وهوه أنا كنت لقيت نصيبي مع مين لما هالاقيه معاك انت .. الواحدة قايدة صوابعها العشرة شمع وبرضه مش عاجبك .. حتى كلمة باحبك اللي مش هتدفع فيها فلوس مستخسرها في الخدامة الطباخة الغسالة بنت الـ ...... اللي بتعملّك كل ده من غير أجر .. على العموم .. أجري عند ربنا .. ياريت يا أخي الواحدة تموت عشان ترتاح وتريحك .. كمان .. حتى كلمة بعد الشر مش هاين عليك تطلعها .؟ وأنا ايه اللي يجبرني أعيش مع واحد بيتمنالي الموت .. أنا أروح بيت أبويا أحسن .. ولما تلوص بالعيال وتتلوع ع المطاعم ابقى دوّر عليه .. وساعتها برضه لازم أعرف إذا كنت بتحبني ولا لأه " ..!!

" فاكر أيام ما كنا مخطوبين .. فاكر الست اللي قابلتك وسلمت عليك وقلتلي إنها قريبتك .. أنا دلوقتي افتكرت إني ما شفتهاش في الفرح بتاعنا.. إزاي تبقى قريبتك وماتحضرش فرحك .. أكيد دي واحدة م اللي كنت عاملهم عقد في رقبتك قبل الجواز .. أنا عايزة أعرف دلوقتي مين دي .. وإزاي

" البِجحة " دي تسلم عليك وأنا معاك من غير ما تحترم مشاعري ..؟ ثم انت ليه ما قلتلهاش كده وهيّه بتسلم عليك ؟ ده انت حتى ما عرفتهاش بيّه .. ولا هي بصت ناحيتي .. طبعاً .. وتبص ليه .. هيه الكلبة اللي ماشية معاك دي ليها قيمة .. على العموم .. إذا ما قلتليش دلوقتي مين دي أنا سايبالك البيت وماشية .. وخليها تبقى ينفعك " ..!

" ايه رأيك في الأكل .؟ يعني بتاكل كأنك في عزا واحد عزيز عليك .. مفيش كلمة تجبر بيها خاطري .. مفيش تسلم ايديكي .. بس لسانك يتفلت لما يكون الأكل ناقصُه ملح ولا بارد ولا فيه عفريت .. ده الواحد بيقول للخدام اللي عنده شكراً لو ملا له كباية ميه .. وإنت خرسان كده كأنك بالع لسانك.. طب والله العظيم مانا واكله . ولا حتى قاعدة معاك على سفرة واحدة .. يا ساتر يا أخي .. ده انت لا تطاق ..! أنا عارفة انت متكبر ومغرور .. بس مش عارفه على إيه ؟.. الله يسامحك يا بابا .. بعتني ببلاش للي ما يعرفش قيمتي .! وأنا ايه اللي يغيظني ..؟ ورحمة أمي ما أنا قاعدالك في البيت دقيقة واحدة بعد دلوقتي .. هيه الواحدة باقي ليها ايه غير كرامتها .. والحمد لله من يوم ما اتجوزتك اتبعترت كرامتي وحاسة إني زي أي حاجة في البيت ما لهاش تمن . باي باي يا أستاذ .. وابقى قابلني في بيت اخويا ربنا يجعله عامر عشان ما اتحوجشي للي يسوى .. واللي ما يسواش " ..!!

الرجل في كل تلك المواقف كما لاحظتم لم ينطق ببنت شفه .. ربما لأنه مستخسر الكلام في واحدة مجنونة زيها بتقول " شَكَل للبيع " .. وربما تكون الأسئلة قديمة ومكررة ودمها تقيل والإجابة عنها مجرد تحصيل حاصل ..

فمن ناحية .. هي تعلم تمام العلم أنه يحبها .. ثم إن الحب ليس كلاماً يقال . انه الأفعال المتواترة التي تصب في اتجاه محدد لتؤكد أنه يحبها .. لكن ماذا

يقول في تلك المرأة الفاقدة للثقة في نفسها ، والتي لا تريد أن تصدق أنها تستحق حبه ..!!

ومن ناحية أخرى .. فإن الطعام الذي تصنعه قد حاز الرضا منذ تزوجها ، ولابد أنه أقر لها بذلك غير مرة .. وخير دليل على إعجابه بصنع يديها أنه منهمك الآن في الأكل بنهم دون أن يجد حتى فرصة للكلام .!! لكن ما العمل وتلك المرأة تريده أن يتوقف عن التهام أكلها الشهي ليقول لها " تسلم ايديكي " .؟ ما العمل وقد ابتلاه الله بامرأة تعتبر كل واقعة بينهما هي جولة نزال جديدة لا علاقة لها بالجولات السابقة ، وتريد أن تخرج منها بنصر مبين على رؤوس الأشهاد .؟!

ومن ناحية ثالثة .. فإن هذا الرجل بالتأكيد لا يجد ما يقوله لامرأته التي تسأله عن هوية المرأة التي سلمت عليهما أيام كانا مخطوبين .. وقد مر على زواجهما الآن سبع سنوات .. سمان أو عجاف . فماذا يقول لها وهو لا يذكر حتى اسم من سلمت عليه بالأمس .؟؟ وما الذي ذكرها بتلك الحكاية العتيقة أصلاً .؟ هل فرغت من كل ما يستحق أن يتناقشا فيه ، ولم يبق إلا تلك الحادثة .؟ لا بد أنه يعتقد أنه حتى الصمت خسارة في تلك المرأة " المخبولة " ..!!

والمحصلة يا سادة يا كرام أن الزوجة العزيزة قد غادرت إلى بيت أبيها أو أخيها .. وأن زوجها سوف يفكر بعد مغادرتها في شيء واحد فقط هو : كيف تحمّل صابراً كل تلك السنوات مع هذه المرأة .؟ وهل لديه الآن طاقة تعينه عل تحمل المزيد .. أم أن عليه أن ينجو بنفسه .!؟

ولو افترضنا أن خمسين بالمائة من تلك الحالات انتهى فيها الزوج إلى طلاقها والخلاص من ثرثرتها العقيمة .. فما الذي جنته تلك المرأة بطلاقها

من وراء غبائها مع الرجل . الذي كان يشغل نصف عقله بعمله وطموحاته .. والنصف الآخر بها وبأبنائها وبكيفية تدبير رزقهم وتحقيق مطالبهم .؟؟

أليست نصيحة من ذهب تلك التي نقولها لأولئك الثرثارات .. بأن عليهن أن ينمن عندما تتحرك – وتتحرق أيضاً – لديهن الرغبة في الثرثرة دون سبب واضح .. حيث بكل يقين " نوم الثرثارات – كما الظالمين تماماً – عبادة ..!!

****

النظام الملكي الشبيه بالنظام الإنجليزي والشبيه أيضاً – مع قليل اختلاف – بالنظام الصهيوني على أرض فلسطين المحتلة .. يكون فيه الملك أو الملكة يملك ولا يحكم .. أما الحكم فلرئيس الحكومة المنتخب من الشعب . هذا النظام هو من أكثر الأنظمة التي تثير انفعالي وغيظي وضيقي وعصبيتي .. فأنا لا أفهم إلا أن من يملك له وحده أن يحكم .. تماما مثل المبدأ الاقتصادي الذي يقول بأن من يمول له حق الإشراف واتخاذ القرارات . أما أن يوصف أحد بأنه يملك ، ومع هذا فليس من حقه أن يحكم ، مهما كانت الأسباب المتعلقة بجهله بأصول الحكم أو عجزه عن إدارة شؤون الحكم .. فهذا ما لا أفهمه ولا أريد .!!

وماذا سيفعل غيظي وضيقي والأنظمة تلك قائمة وباقية ، وأهلها راضون ، ولا أحد يسعى إلى التغيير أو يظهر التمرد على هذا الوضع .. فأهل الملك لا يسعون إلى الحكم ، ومن يحكمون (رؤساء الوزارات أو الحكومات) لا يطمعون في أن يملكوا يوماً .. ولماذا الضيق أصلاً طالماً أنني غير مضار من قريب أو بعيد .؟!

لغاية كده كويس ..؟ لأ مش كويس .!! ليه ؟ لأن هذا النظام لسوء الحظ اقتحمني في عقر بيتي دون أن أدري .. هنا لابد لمخزون الضيق والغيظ أن ينفلت . فها قد جاء الضرر إلى الرقبة ولابد من دفعه .

زوجتي قالت لي ذات خلاف معها ، بأنني بالفعل أملك زمام الأمر في بيتي.. فأنا الراعي المسؤول عن رعيته ، وأنا ربان السفينة وملاح الزورق ، وأنا من يمنح الاسم للأبناء ويمول مطالبهم من ممتلكاتي التي ورثتها أو صنعتها من حر مالي وجهدي .. لغاية كده جميل .. أما في مسألة الحكم على أهل البيت وشؤونهم .. فإنا لا مؤاخذة ماليش دعوة .. وزوجتي المصون هي المسئولة عن شؤون الحكم في بيتي الذي أملكه .. تقضي بين الأولاد وتوزع المخصصات عليهم ، وتعاقب من يخطئ ، وتكافئ من يحسن وتفند ، الميزانية ، وتقرر مكان وموعد ومدة أجازة المصيف ، وتستقدم مدرسي الدروس الخصوصية وتعطيهم أجورهم ، وتمنح الابن مساحة للخروج ، وتوافق الابنة على استقبال صديقة ، وتشرك أحدهم في النادي لممارسة لعبة رياضية ، وتشتري لآخر أدوات لتنمية موهبته .. أما أنا فأتفرج كالغرباء .. لا أتدخل من قريب أو بعيد .. وإذا حاولت .. يأتيني صوتها أجش مرعب : " ماتدخلش في اللي مالكش فيه يا...... يا بابا ..!! ولاحظوا معي اللقب المستفز الذي تناديني به في هذا السياق ..!!

بالذمة ده كلام .. يعني أنا " شوية هوا " في البيت .. كيس جوافة مركون ع الترابيزة .. لبِّيسة قلم .. فاسوخة .. حدوة حصان معلقينها عشان البركة ..؟؟

يا بنت الحلال .. إذا كان ماليش لازمة في البيت يبقى ايه لزوم إقامتي معاكم ؟ ما أروح أقعد عند أمي أحسن وأكرم (لاحظوا إن أمي ماتت من عشر سنين وماليش حد .. يعني مقطوع من شجرة) .. ويأتيني الرد حاداً : هوه انت يا تقعد هنا عشان تبوظلي شغلي في البيت يا تروح عند أمك .. ؟؟ عموماً اللي يريحك اعمله ..!!

- طيب ايه رأيك ، أنا ممكن أنقل ملكية كل ما أملك ليكي ، علشان إنتي تبقي بتملكي وبتحكمي وكده الأمر يستقيم .. إنما راجل طويل عريض في بيته يملك وما يحكمشي .. كده " ما يحكمشي " بجد .؟!

وتجيب بجرأة لا أدري متى صنعتها : وهوه انت كنت عملت كده يا بن الحلال وحد قالك لأه .؟! ياريت يا سيدي .. وأهو تبقى عملت حاجة كويسة في حياتك .!!

- أنا قلت من يوم ما اتجوزتك ، انك داخله الجوازة دي على طمع ..!!

وهنا يا حضرات يبدأ النزال بعد هذه العبارة الهوجاء .. وتنهال العبارات المنتقاة من نوع : " على ايه يا حسرة .. ده أنا اتجوزتك ماكنتش لاقي تاكل .. احمد ربنا إني رضيت بيك .. كان زماني مرات سفير ولا وزير .. وهيّه دي عيشة اللي انت معيشهالنا ....

أنا أفكر في طلاق هذه السيدة يا إخواننا .. فهل بينكم منصف يدعمني بكلمة أو تبرع .؟؟ أتمنى أن أتلقى مؤازرتكم قريباً .. على ترسل التبرعات والدعم على عنواني الجديد : مدافن الغلابة .. مقبرة أم يحيي .. رابع مدفن على الشمال وإنت طالع من هدومك ..!!

****

هذا الذي يحدث .. ينبغي أن يفتح العيون على قضية غاية في الأهمية .. ذلك أن " الرجل المطلق " الذي هو أحد قطبي علاقة الطلاق البغيضة .. يستحق من وجهة نظري أن نوليه اهتماماً ينبغي أن يتساوي مع الاهتمام الذي نوليه لـ " المرأة المطلقة " .. إن لم يزد في نظر البعض المتشدد ممن يشاطرنني الرأي .!!

فالكثيرون يعتقدون أن الرجل المطلق ليست لديه مشكلة تتطلب أن نشاركه في حلها أو نعينه على اجتيازها .. فلا بضاعته الرجالية ستبور ولا عمر جماله الافتراضي سينتهي .. ولا الألسنة المترصدة يمكنها أن تنال من سمعته .. فهو رجل .. ولابد أنه سيجد في أقرب فرصة المرأة التي تقبل به بل وتسعد باختياره لها .. ولابد أنها ستكون على قدر من الجمال والشباب .. ولا نبالغ إذا قلنا أنه وهو عائد من عند المأذون بعد أن ينهي إجراءات طلاق امرأته لا بد أنه يفكر فيمن ستأتي مكانها في بيته .. ولا بد أنه يستعرض أثناء سيره كل النساء المرشحات لنيل هذا الشرف الرفيع ليختار من بينهن .. بل وربما يستقر اختياره ويتخذ قراره قبل أن يصل إلى منزله .!!

ورأينا أن هذا .. وإن كان أمراً مشروعاً تماماً للرجل .. إلا أن فيه بالتأكيد قدر كبير من الجور .. على الأقل جور على تلك العلاقة التي كانت يوماً بينه وبين امرأته لفترة قصرت أو طالت .. وهي علاقة تستحق في أسوأ الأحوال أياماً من التوقير والاحترام والحزن وليس لحظات .. فالعشرة يفترض أنها " ماتهونش إلا على ولاد الـ ...... " ..!!

ولكي تكون المناقشة أكثر تنظيماً وجدوى ، لا بد أن نعدد المشكلات التي يرى المطلقون من الرجال أنهم يعانونها بعد الطلاق .. مثلما تعاني المرأة المطلقة تماماً .. وقد وجدناها نحن تتمركز في ثلاثة مشكلات رئيسية .. قد تندرج تحتها بعض مشكلات فرعية لكنها تنتسب إليها بشكل أو بآخر :

أولاً : الطعن في الكفاءة ..حيث يرى كل مطلق أنه يعاني من أنه يقرأ في عيون كل من يحادثه في أمر الطلاق بعد حدوثه أن قناعته بسلامة كفاءته من الناحية النفسية أو الاجتماعية هي قناعة محل شك .. وأن تلك المعاناة تصل إلى درجة لا يمكن احتمالها عندما يكون الطعن في الكفاءة الجنسية أو الذكرية أو الرجولية عند الرجل أو الأنثوية عند المرأة .. حيث ما أكثر من

يقول لصاحبه تعليقاً على الطلاق : " لو أنه استطاع أن يملأ دماغها ويحتوي عالمها ويهيمن على رغباتها ويشبعها ما طلبت الطلاق ولا سعت إليه " .!! صحيح أن المرأة تسمع من تقول لها من صاحبتها : " لو كنتِ مليتي عينه وعرفتي إزاي تلفيه ماكنش طلقك وراح لغيرك " .!! وعلى رأي أمي رحمها الله: " ما فيش حد يهرب من نعمة .. حتى القرد " ..!!

ثانياً : المعاناة مع الأبناء أو بدونهم .. حيث يرى كل مطلق أنه بعد طلاقه يكون أمام أمرين بشأن أبنائه : إما أن تكون المرأة قد اختارت أن تتركهم لطليقها ليربيهم .. سواء لتزيد من فرص زواجها من بعده - حيث قليلون هم من يقبلوا الزواج من امرأة تجر خلفها أبناء رجل آخر - أو لتضيق عليه فرص الزواج من بعدها - حيث قليلات هن من يوافقن على الارتباط برجل لديه أبناء عليها أن تتزوجه لترعاهم ..!! الأمر الثاني هو أن تكون المرأة قد اختارت أن تأخذهم معها حباً واكتفاء بهم .. وهنا يكون عليه أن يتحمل همّ متابعتهم والاطمئنان عليهم ورؤيتهم بشكل دوري لمتابعة تربيتهم وتعليمهم .. مع الوضع في الاعتبار ما ستمارسه الأم وأهلها من لؤم في تيسير أمر رؤيته لأبنائه واطمئنانه ، عليهم رغم أنه يضطلع بالمسؤولية المادية لتربيتهم وتعليمهم وهم في حضانتها .. وبالتالي فلا راحة مع الأبناء .. ولا من دونهم .. لكلا الطرفين .!!

ثالثاً : الفرص الضئيلة للزواج .. حيث يرى المطلقون أن فرص زواجهم مرة أخرى ليست ميسرة بالشكل الذي نحكي عنه .. فالمرأة التي طلقها قد أخذت معها كل ما استطاع أن يجنيه في رحلة كفاحه منذ زواجه .. أخذت بيت الزوجية ومنقولات الزوجية ومؤخر الصداق والنفقات بأنواعها .. ثم ليس أقل من ثلث دخله أو مرتبه اقتطعته منه لرعاية أبنائه سواء أكانوا معها أو تركتهم له .. وعلى الرجل المطلق إن أراد أن يكرر تجربة الزواج أن يؤثث من

جديد عش زوجية .. بما يمكن يتوفر لديه من مال بعد كل تلك الإنهاكات المادية التي قد تحتاج سنوات لتعويضها .. ناهيكم عن اضطرار الرجل المطلق حال تقدمه للزواج من امرأة إلى تقديم الكثير من التنازلات سواء في رغباته أو في طباعه .. بغية إقناع العروس وأهلها أنه عريس " كويس وابن حلال " .. وأن الطلاق لم يكن بسبب سوئه على الإطلاق ..!! فكيف في ظل كل تلك الظروف غير المريحة تكون فرصة الرجل المطلق في الزواج أفضل من ظروف المرأة .!؟ ويهمنا هنا أن نشير إلى أننا نعرف أن المرأة المطلقة تتضاءل أيضاً فرص زواجها – مع استثناءات قليلة – لأسباب عمرية ، وبسبب نعرات رجولية ترفض الإقتران بمطلقة ، وحتى إن جاءتها فرصة زواج ، فهي فرصة فقيرة في الغالب ، أصحابها لديهم من النقائص ما يعتبر بقاؤها بلا زواج أفضل كثيراً من اقترانها بواحد منهم .. فهذا عريس طاعن في السن ، وهذا أرمل ، وهذا مطلق مرات ، وهذا فقير ، وهذا دميم ، وهذا فاته قطار الزواج ....

هذه هي المشكلات التي يعانيها المطلقون والمطلقات .. ونحن هنا سوف نفندها مع الرجال واحدة واحدة من وجهة نظرهم .. حتى نعرف كيف أن المطلقة لم تتوقف عند غباء إصرارها على الطلاق منه ، بل تعدته إلى " كيد " ما بعد طلاقها .. وكأنها تريد أو " توقف " حاله حتى لا يتزوج من غيرها .!!

أول شكوى يصرخ بها الرجل المطلق هي أن امرأته تحاول بعد طلاقها – بقولها أو بصمتها – أن تطعن في كفاءته كرجل .. فهو إما بخيل وحريص على الدرهم ، وأن حياتها معه كانت ضنكاً وحرماناً .. وإما شكاك وغيور والحياة معه هي الجحيم بعينه .. وإما بصباص وعينه " زايغة " – أو فارغة لا فرق – والحياة معه عذاب ولوعة .. وإما مريض بمرض عضال ولا يصلح للقيام بأعباء الزواج والحياة معه ألم وشقاء .. وإما .. وإما .. وإما .. كل ذلك حتى

تبرئ ساحتها وتلقي بأسباب فشل زواجها فوق رأسه .. حتى لا يقول قائل بأنها لم تنجح في زيجتها لعيوب جوهرية فيها .. فيسد بذلك باب الزواج في وجهها وهذا ما لا تنتظره ولا تتمناه .!!

الطامة هنا أن الرجل لا يعرف بما يتناقله الناس عنه مما سمعوه من زوجاتهم اللواتي جلسن إلى مطلقته واستمعن إلى توصيفها لأسباب فشل زواجها منه .. وحتى إن هو عرف .. فليس بمقدوره أن يرد الكيد في نحر الكائد .. فالأمر عندئذ سيدخل تحت باب أعراض النساء وسمعة العائلات ودون ذلك عند أهلها الدم والقتل .. فكيف السبيل إلى إخراس تلك المطلقة ومنعها عن أن تلوك " عرض " الرجل وتوقف حاله فتحول دون استخدام حقه في التقدم إلى امرأة غيرها ، خشية أن يقابل بالرفض استناداً لما عرفه الناس عنه وهو باطل كل البطلان ..!؟

للحقيقة سبعة أوجه ، يرى كل طرف من أطراف الخصام منها الوجه الذي يوافق مصلحته وغرضه .. وليت أحداً يقنع بالحقيقة الرائقة ذات الوجه الواحد .!!

والشكوى التي يجاهر بها الرجل المطلق ، هي الشكوى ذاتها التي تنتحب المرأة وهي تحكيها لنا وتشكو منها لطوب الأرض .. فالمرأة هي التي تلاك سمعتها من الرجل الذي طلقها .. وهي التي يقول عنها ذلك الرجل - تلميحاً في أغلب الأحيان وتصريحاً في قليلها - أنها ليست امرأة .. وأنها " باردة " .. وأنها غير سوية .. وأنها لا تجيد حسن التبعل لزوجها ، وأنها لا تفهم حقوق الرجل عليها ، وأنها غبية لا تفهم مطالب الرجل .. وأنها ، وأنها .. وأن المرأة هي التي لا تستطيع أن تحكي شيئاً عن الرجل لترد به على ما يقوله عنها ، ولا تملك إلا الدعاء عليه أن يفضحه اللهّ مثلما فضحها دون ذنب سوى أنها لم تطق الحياة معه ..

ومع هذا .. ولنفترض أننا أمام امرأة من النوع " سافر الوجه " التي تستطيع أن تحكي عن طليقها بهذا السفور ومن دون حياء .. فكم مرة أراد رجل مطلق أن يتزوج بعد طلاقه ، ووقف كلام امرأته عنه حجراً في طريق إتمام الزواج ..؟! أنا شخصياً لم أسمع أن رجلاً لم يتمكن من إتمام زواجه بعد طلاقه بسبب تشنيع مطلقته عليه وفضحها لسره سواء بالحق أو بالباطل .. فدائماً سوق الرجل رائجة .. ودائماً هناك من تنتظره لتتزوج منه حتى لو سمعت عنه ملء حجرها عيوباً .. فالمبرر دائماً قائم ينتظر أن تلقيه في وجه كل من يلومها على قبولها الزواج منه رغم ما سمعته : إنها غيرة المرأة المطلقة من المرأة العروس .. وهي رغبتها في العودة إليه .. وهي محاولاتها لاسترداده بعد الندم الذي لا ينفع .. لكن هيهات .. فلن أتركه لها ..!!

أما الذي نسمعه بالفعل .. فهو أن هناك مئات المطلقات اللواتي لم يستطعن الزواج مرة أخرى بسبب كلام الطليق عنهن وتشنيعه عليهن ظلماً وعدواناً ؟.. ومحاولاته الدؤوبة إيصال رسائله إلى كل من يسمع أنه ينوي أن يتقدم إليها للزواج منها بأنها " لا تصلح لرجل من بعده " .. وأنه " طلقها لأسباب تعرفها هي وحدها .. وأنه لن يكشفها الآن إلا إذا أراد صاحب الأمر .. وساعتها فليأت لينصحه " .!! ناهيك عن طبع الرجل الذي عندما ينوي الزواج من امرأة ، فإنه ينفر بفطرته نفوراً لا عودة منه إذا عرف أن سراً من أسرار امرأته لدى رجل آخر غيره .. فكيف بمن عرف عنها أدق أسرارها وينوي أن يحكيها .!؟

أبعد كل هذا لا يزال الرجل المطلق يتشدق بشكواه من مطلقته .. ومن احتمال أن تشنع عليه وتفشي أسراره وتحول دون زواجه من غيرها .؟! إذن .. شرع الله عند غيركم أيها الرجال ..!!

الشكوى الثانية للأخوة المطلقين من الرجال . يرى فيها كل مطلق أنه بعد طلاقه الذي ربما لم يختره وربما لم يضطر إليه إلا مكرهاً .. يكون أمام أمرين بشأن أبنائه : إما أن تكون امرأته قد اختارت إن تتركهم له ليربيهم .. نافضة يديها من كل ما كان يربطه به حتى أبنائها .. أو أن تكون قد اختارت أن تأخذهم معها لتتولى بمفردها تربيتهم حباً فيهم واكتفاء بهم .. وفي كلا الحالين فإن الرجل يشرب بعد طلاقها الأمرّين .. بينما تذهب هي لتسعد باختيارها .!!

فإذا ما كانت امرأته قد اختارت أن تترك أبناءها له ليربيهم .. بدعوى أنه الأقدر مادياً ونفسياً على ذلك .. مرددة القول العامي الشهير " عمر المرأة ما تربي ثور يحرث أبداً " .. بينما هي تبتغي من وراء اختيارها الخبيث هذا أن تزيد من فرص زواجها من بعده . حيث هي تعرف – والأهل ينصحون – أن قليلين من الرجال هم من يقبلون بالزواج من امرأة تجر خلفها أبناءها من رجل آخر .. أو هي تبتغي – إن كانت لا تنوي الزواج – أن تضيق عليه فرص الزواج من بعدها . حيث هي تعرف دون حاجة إلى نصح هذه المرة أن قليلات من النساء هن من يوافقن على الارتباط برجل لديه أبناء من امرأة قبلها .. وعليها أن تقبل بالزواج منه لتقوم لهم بدور الخادمة .!! وفي كلا الحالين فإن على المطلق أن يقبل خانعاً باختيارها حتى لا يترك أبناءه للتشرد .. وعليه أن يقاسي ما يقاسيه الأب المحب لأبنائه حتى لو كان يكره أمهم ولا يطيق سماع اسمها.. فيضطر في تلك الحالة أن يقوم لهم بدور الأب والأم إلى أن يعثر على من تقبل بالزواج منه لتشاركه رعايتهم .. مع ملاحظة أن عليه هنا أن يقبل بكثير من العيوب في المرأة التي سيختارها للزواج أو التي ستقبل به .. وأنى له أن يختار الجميلة أو الشابة وهو على تلك الحال من الاحتياج لأية امرأة تحمل عنه همه وهم أبنائه .؟! المهم لديه أن يجد من تقبل بالمهمة التي تعرف أنها ستتزوجه من أجلها دون أية شروط يضعها .. وهل له وهو على تلك الحال أن

يشترط .؟! إنه قد يقبل بمن فاتها قطار الزواج .. أو بمن تظهر عيوبها وقبحها حتى للأعمى .. أو بمن دخلت إلى سن اليأس ولم يعد لديها ما تعطيه للرجل .. فأين هي تلك الراحة التي يجنيها الرجل بطلاقه لامرأته .. التي ربما يأتيها بعد طلاقها من يفوقه وسامة ومالاً وعافية ليتزوجها .. فتغرف هي بقية أيامها من نعيمه ، تاركة الجحيم لطليقها وأبنائه ..!!

الأمر الثاني .. هو أن تكون المطلقة قد اختارت أن تأخذ أبنائها معها لتتولى تربيتهم .. بدعوى أنها لا تطيق البعاد عن أبنائها " روحها الطالعة " .. وأنها قد تزوجتهم واكتفت بهم .. وأنهم هم من خرجت بهم من تلك التجربة المريرة .. رغم أنه قد يكون هناك غرض أكثر خبثاً من الغرض السابق .. وهو أنها تريد أن تسقيه الهوان " كاسات " عندما يحاول أن يراهم أو يأتي لزيارتهم في بيتها أو في بيت أهلها (أو في الحزب الوطني) .. وأنها تبتغي أن تنفرد وحدها بتحقيق نجاحاتهم وتهذيب أخلاقهم .. وأيضاً امتلاك الفرصة لإقناعهم أن أباهم قد تركهم لها وهم لحماً طرياً ، ولم يرع حاجتهم إليه في أصعب سنوات عمرهم .. لتغرس في نفوسهم الكراهية لذلك الأب الجاحد انتقاماً منه أنه طلقها .. فإن أراد المطلق أن يرحم نفسه من كل ذلك ، فعليه أن يردها إلى عصمته .. إن لم يكن من أجلها فمن أجل أبنائه .. وكرامته ..!!

وهنا سيكون على الرجل المطلق إن كان يرفض أن ينصاع لغرضها الخبيث هذا .. واختار أن يشط في كراهيته لها وأقدم على الزواج من غيرها .. فإن عليه في تلك الحالة أن يتحمل همّ متابعته لأبنائه وهم في معيتها .. وأن يتحري أخبارهم ، وأن يحتمل أذى دخوله إلى بيتها أو بيت أهلها لرؤيتهم .. أو مهانة رؤيتهم في قسم البوليس أو في حديقة عامة إن كان الاتفاق على مثل ذلك .. مع الوضع في الاعتبار ما ستمارسه تلك الأم المطلقة وأهلها من لؤم

في تيسير أمر رؤيته لهم واطمئنانه عليهم . رغم أنه يضطلع بالمسؤولية المادية الكاملة لتربيتهم وتعليمهم .!!

أية راحة تلك التي يجنيها الرجل المطلق .. بعد أن تصور أن أيام هنائه لن تبدأ إلا بعد أن يتخلص من تلك المرأة بالطلاق .؟؟

وأنى لرجل لا يستطيع أن يغمض جفنه بعيداً عن أبنائه أن يستريح في حياته .. حتى لو كان في حضن امرأة اختارها بقلبه وعقله فكانت نعم الاختيار ..!؟

هذا هو الهم الثقيل وتلك هي الشكوى المريرة التي يطرحها السادة المطلقون .. والتي يرون أنها أحق وأجدر بالاهتمام من مشكلات نساء مطلقات تركن الهم لأصحابه ومن قريرات العين ليس لديهن ما يشغل بالهن . بعد أن أخذن الشقة والأثاث وحفنة آلاف من الجنيهات كنفقة متعة ومؤخر صداق وثلث الراتب نفقة .. ثم الأبناء ونفقتهم وصحبتهم .. !!

والحق .. أن بعض الحق معهم .. والحق يقتضي أن نعترف أنه لا مانع لدينا من أن نولي بعض الاهتمام لمشكلاتهم تلك التي اختاروها بأنفسهم .. اختاروها يوم اختاروا امرأة للزواج دون تروٍ أو تفكير أو تدقيق في مدى التوافق المتوقع بينهما .. واختاروها يوم قرروا الإنجاب قبل أن يتأكدوا من ظهور بشائر الاتفاق وعلائم الوفاق مع شريكة الحياة .. ثم اختاروها يوم قرروا أن يطلقوا دون أدنى اعتبار لما يمكن أن يحدث لهم أو لأبنائهم بعد الطلاق .. وربما لو أنهم تخلوا عن بعض عنادهم لكان بلاء معاشرة امرأة لا يطيقونها أرحم ألف مرة من تلك المرارة التي يعانونها بأبنائهم بعد الطلاق .. أو من دونهم ..!!

أما المشكلة الثالثة التي يرى السادة المطلقون أنها تؤرقهم وتقض مضجعهم بينما تنام المرأة المطلقة قريرة العين هانئة لا همّ لها إلا أن تفكر فقط : هل تقبل بهذا العريس أم بذاك .. فيقول الرجال المطلقون أن فرص

زواجهم مرة أخرى بعد الطلاق ليست فرصاً ميسرة بالشكل الذي يحكي عنه كل من يتناول حكاية الطلاق وأبعادها ومشكلاتها .. ولا بتلك البساطة المتناهية التي يتناول بها بعضهم الأمر .. فالمرأة التي طلقها الرجل - الذي يبغي الزواج - لابد أنها أخذت معها يوم طلاقها كل ما استطاع هو أن يجنيه خلال رحلة كفاحه العصامية التي امتدت منذ اليوم الأول لزواجه .. لابد أنها أخذت بيت أو سكن الزوجية - شقة كان أو فيلا - وطردته منه أو منحه لها القضاء كبيت حضانة .. ومعه بالطبع لابد أخذت منقولات الزوجية .. من أول مكتبه المتواضع الذي كان يجلس إليه وقتما يحتاج إلى الشعور بآدميته بعيداً عن حيوانية التعامل معها .. وانتهاء بمصفاة الطماطم الألومنيوم التي كانت معلقة على مسمار خلف باب المطبخ .. ثم إنها لابد أخذت منه مؤخر الصداق المكتوب عداً ونقداً .. ومعه أخذت نفقة المتعة سواء أكانت تستحقها أم لا ، ونفقة سنة مقدم كما يقضي القانون ، ونفقة الأبناء إن كانت قد ضمتهم إلى حضانتها .. ثم بعد كل ذلك ليس أقل من ثلث دخله اقتطعته منه كنفقة معيشة لها فوق راتبها .. الذي احتفظت به بالطبع ..!!

بعد كل هذا .. فإن على الرجل المطلق إن أراد أن يكرر تجربة الزواج بعد امرأته الأولى أن يؤثث للعروس الجديدة - من جديد - عش زوجية بما يمكن أن يكون قد توفر لديه من مال بعد كل تلك الإنهاكات التي ربما تحتاج سنوات لتعويضها .. فهل هو مستطيع بحق السماء ..؟؟!!

فإذا ما أضفنا إلى ذلك اضطرار الرجل المطلق حال تقدمه للزواج من امرأة - أية امرأة - إلى تقديم الكثير من التنازلات .. سواء في رغباته أو في طباعه .. بغية إقناع العروس وأهلها بأنه عريس " كويس وابن حلال " .. وأن الطلاق الذي مر به أو السابقة الأولى كما يحلو للبعض أن يصفها لم يكن

بسبب سوئه على الإطلاق .. فيقبل مثلاً ودون نقاش بتلك الأرقام الفلكية التي يضعونها في وثيقة الزواج كمقدم أو كمؤخر .. وبالشروط المتعسفة التي يفرضونها عليه شفاهة أو كتابة ..!! أقول بأننا إذا ما أضفنا كل هذا إلى كل ذلك ، كان لنا أن نتصور ونتخيل تلك الظروف غير المريحة التي يمكن أن يعانيها الرجل المطلق عندما يرغب في الزواج بعد طلاقه .. واستطعنا أن نحكم على فرصة الرجل المطلق : وهل هي أفضل من ظروف المرأة المطلقة كما يقولون ..!؟

وللمرة الثالثة .. نحن نرى أن معكم كل الحق أيها الأخوة المطلقون .. ونحن على قناعة أن مطلقاتكم لابد أنهن قد تركنكم " على الحديدة " في ليلة الطلاق .. وربما اضطروكم إلى بيع تلك الحديدة أيضاً للوفاء بالتزامات الطلاق ليتركنكم " يا مولاي كما خلقتني " .. لكن أعزائي وعلى رأي المثل الصريح " اللي يعمل قنطرة يتحمل الدوسة " .. وأنتم وزلا مؤاخذة قد اخترتم وعليكم أن تدفعوا ثمن اختياركم الحر ..!! المهم الآن أننا لسنا بصدد تقريعكم على اختياركم الطلاق سبيلاً لإنهاء معاناتكم الزواجية ولا بصدد التشفي فيكم لأنكم خبتم أولاً .. وخبتم ثانياً .. وها أنتم تبتغون بشكواكم إلينا الخيبة الثالثة .. و" التابتة " .. بل نحن - بجد - متعاطفون معكم في شأن ضيق ذات اليد الذي أنتم عليه عقب مشروع الطلاق الناجح أو مشروع الزواج الفاشل الذي مررتم به .. وسنحاول جادين أن نساهم معكم ببعض الحلول المادية أو بعض النصائح التي لو أحسنتم تثمينها قد لا تقدر بثمن.هل نقترح عليكم مثلاً أن تجتمعوا أنتم المطلقون معاً على قلب رجل واحد .. و" تعملوا جمعية " يقبضها كل شهر واحد منكم .. لتتمكنوا من الخروج من عنق الزجاجة الخانق هذا..؟؟

هل نقترح على مطلقاتكم مثلاً أن يتبرعن لكم بجزء من النفقة أو قليل من مؤخر الصداق من أجل أن تتزوجوا بعدهن وتسعدوا .. ولكي تحقق هذه الدعوة هدفها وتحدث التأثير المطلوب في النساء .. هل نعلن عنها مصحوبة بشعارات ترقق القلب وتستعطفهن عليكم .. مثل : " لو فيه في قلبك شوية شفقة .. اتركي له جزء من النفقة " .. أو : " لو صحيح بتصلي لربنا فرضه .. ادفعي له حاجة تستري بيها عرضه " ..؟؟

هل نقترح عليكم ألا تتركوا الأمر يمر بسلام .. وأن تطالبوا بحقوق المطلقين في العالم .. وأن تبذلوا كل الجهد لتوصيل صوتكم إلى صناديق " غوث اللاجئين " في كل المنظمات والمؤسسات والهيئات العالمية .. فأنتم لستم أقل تضرراً من ضحايا السيول والبراكين والفيضانات والزلازل وكل الكوارث الطبيعية .. والطلاق هو كارثة " طبيعية " .. ألم ينتج عن اختلاف " طبيعتكم " عن " طبيعة " زوجاتكم ؟؟

أعرف أننا تجاهلنا عمداً مناقشة كل ما يمكن أن نقدمه إعلامياً لتغيير نظرة النساء حيال الرجل المطلق .. وتجاهلنا أيضاً إمكانية الدعوة إلى تغيير القوانين الوضعية التي تمنح المرأة كل شيء بعد الطلاق في مقابل تجريد الرجل من كل شيء .. استناداً لتلك المفاهيم العتيقة التي تقول بأنها هي الأضعف بينما أصبحت الآن هي الأقوى والأقدر ..

نعم تجاهلنا هذا وغيره لأننا لا نريد للرجل العربي – وهذه قناعتنا – أن يستدر عطف الآخرين ليساعدوه في الخروج من مشكلة هو الذي اختارها .. وهو الذي قبل بها وبكل تبعاتها .. ويستحيل أن يكون هناك شرف له لو أنه قبل أن يتلقى عون الآخرين ليخرج من أزمة طلاقه .. عيب يا اخواننا المطلقين وألف عيب .. وإذا كانت المرأة المطلقة – الأضعف – قد ارتضت السكوت دون أن تشكو إلى أن سعينا نحن إلى محاولة إنصافها .. فليس أقل

من أن ترتضوا أنتم السكوت أيضاً وطي الجوانح على الجرح وعدم التسول بجرحكم الذي صنعتموه بأنفسكم .. يوم اخترتم امرأة لا تصلح .. ويوم أنجبتم من امرأة لا تصلح .. ويوم طلقتم امرأة لا تصلح .. والآن تطلبون أحداً يعينكم على الإقتران بامرأة أخرى غيرها .. قد لا تصلح أيضاً ..!!

ما الذي عليكم أن تفعلوه بديلاً لتلك الشكوى البغيضة .؟؟

نحن نعترف أننا ربما قد نكون جنحنا إلى قليل من السخرية منهم وكثير من التهكم على مشكلاتهم .. على اعتبار أنه لا يليق بالرجل الذى تزوج بمحض إرادته وطلق بمحض إرادته أن يتسول ويستجدى تعاطف الناس مع مشكلته التى صنعها بنفسه .. حيث كان ينبغي أن يترك الشكوى والاستجداء لتلك المرأة التى طلقها بعد أن امتص رحيقها وتركها بقايا امرأة تستحق التعاطف و المساندة .!!

الذي نعرفه هو أن أول طريق النجاح للرجل المهزوم هو أن يخفى أعراض هزيمته فلا يطلع عليها أحداً .. وأن قمة القوة هي ألا يعرف الآخرون أين تكمن نقطة ضعفك .. وأن الناس لا تستجيب دائماً إلا لمن يدعى القوة .. وهي وان كانت تتعاطف مع من يظهر ضعفه لها لكنها أبداً لا تعطف عليه .. ولذلك فإن أول خطوات خروج الرجل من أزمة الطلاق أن يعتبرها مرحلة منتهية من عمره .. لا يناقش تفاصيلها ولا يقلب فى حوادثها ولا ينبغي له الحديث عن " من المخطئ " .. فقديماً قالوا لمن كسر الإناء على السلم : هل كسرته وأنت تصعد أم وأنت تهبط ؟ فأجابهم بعقلانية : المهم إنني كسرته والسلام .. وأظن أنه لا يفيدكم إن كان الكسر قد حدث أثناء الصعود أو أثناء الهبوط .!!

وعليه فإن الرجل المطلق ليس أمامه إلا اختيارين : إما أنه ينوي الزواج للمرة الثانية .. وأما أنه لا يرغب فى تكرار التجربة وينوي أن يقضى بقية

عمره عازبا .. فإن كانت الأولى فأبداً لن يفيده ذلك " الصياح " الذى يتلذذ به .. وهو لا يعرف أن ذلك قد ينفر من تفكر بالقبول به زوجاً .. وإن لم ينفرها فهو سوف يجعلها " تشرب عينه " .. وتتزوجه وهى تعرف أنه يعرف أنها بزواجها منه قد انتشلته من بئر اليأس وبحر المهانة وجُب الضياع .. وبالتالي فهو لن يتمكن من ممارسة رجولته معها .. وسوف يضطر إلى قبول أضعاف أضعاف ما رفضه من زوجته الأولى وطلقها من اجله .. حيث لا فرصة أمامه للطلاق مرة أخرى حتى لا يوصم بين الناس بأنه رجل " مطلاق " .. ناهيكم بالطبع عن تلك الشروط المتعسفة التى قد تمليها تلك الزوجة الثانية على ذلك المطلق المهزوم الذى بلغتها أخبار هزيمته على ألسنة الناس قبل أن يطرق بابها يطلب يدها .. !!

أما إن كانت الثانية .. فلا أظن أن شرفاً يمكن أن يناله من تلك الشكوى التى يريقها على أعتاب كل من يحادثه .. وكأنه يستجدى منهم الطبطبة (يا عينى) .. رغم أنه لو يدري يحتاج أن يعاملوه بقية عمره على انه كيان مستقل اختار أن يقضيه منفرداً .. وهو سعيد باختياره .. ناهيكم أيضاً عن ضرورة ألا تعلم مطلقته بتلك الحال المزرية التى أصبح عليها من يوم أن " تبطر " عليها وطلقها .. ففى هذا مهانة تشبه تلك المهانة التي وصفها الشاعر أبو فراس الحمداني فى رائعته " أراك عصى الدمع " عندما قال – مع اختلاف الموقفين بالطبع :

قالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا // فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر

ولا أظن أن عاقلاً يمكن أن يرتضى أن تنهش سيرته ألسنة الناس .. قريبهم وبعيدهم .. إلا إذا كان من ذلك النوع " الماسوشي " الذى يتلذذ بإيلام ذاته وبمعرفة الآخرين بذلك .. !!

وكما ترون .. فلا يوجد نصح لرجل تخلى عن رجولته يوم اختار أقصر الطرق لعلاج مشكلته .. ويوم استسهل " البتر " لذلك العضو الذى أصابه بعض الأذى وكان يمكن علاجه بقليل من المضادات الحيوية والمراهم .. ثم يوم تخلى عن رجولته فوقف أمام المسجد يكشف للناس ذراعه المبتورة .. طالباً منه صدقة .. لصاحب العاهة ..!!

فالحياة لمن لا يعرف منهم لا يستحق أن يعيشها إلا من يعرف كيف يملى شروطه عليها .. واليد التى تلطمك لمن لا يعرف منهم لا ينبغي أن يعطرها عبير وجهك .. ولا شرف أبداً فى تلك اللكمة التى انتصرت بها طالما انك قد استعرت قفازها من غيرك .. ولا يمكن أن يبرر فشلك فى الامتحان أن سن قلمك كان مكسوراً وقد كان بإمكانك أن تجعله مدبباً .. كما أن سقوطك من فوق ظهر الفرس لن يخفف من حرجه أبداً صراخك من ألم قدميك ..!!

حقاً وراء كل رجل عظيم امرأة .. ليست عظيمة بالضرورة ، ولكن لأن زوجها علمها كيف تكون زوجة لرجل عظيم ..!!

****

على الجهة الأخرى .. هناك آراء تدور في أوساط الرجال تقف موقفاً مناقضاً تماماً لما ذكرناه .. ولو علمت بها المرأة لاستغربت .. ولطمت كفاً بكف . عجباً من ذلك الجنس الرجالي المتقلب الذي لا يمكن التنبؤ بتوجهاته واختياراته ..!!

ففي جلسة جمعتني مع شابين في مقتبل العمر لم يدخلا دنيا ، ورجل مطلق وآخر أرمل .. وأقسم أنني لم أسع إلى انتقاء أقطاب الجلسة هؤلاء .. فالمصادفة وحدها هي التي جمعتنا .. كان حديثنا عن المرأة المطلقة بمناسبة موقفي المنتقد للرجل المطلق ..

قال لنا الشاب الأول بحماس : " لو قدر لي أن أتزوج ووجدت امرأة مطلقة قبل الخامسة والثلاثين من عمرها لقبلت بها على الفور .. فالمرأة المطلقة هى امرأة خبرت الحياة مع رجل أخر . ورفضت تواضع قدراته وتدني طموحاته وتعاظم معايبه وفقر محاسنه فطلقت .. فإذا ما التقت من جديد برجل يطلبها للزواج وعاشت معه واكتشفت بنفسها أية زيادة ولو ضئيلة فى قدراته مقارنة برجلها الأول .. فسوف تكون هذه الزيادة موضع تقديرها واهتمامها وامتنانها .. ذلك أن لديها فرصة للمقارنة بينهما تحسم لصالح الثاني بالتأكيد .. فما بالك لو كانت تلك الإمكانيات عملاقة لأنها اقترنت بشاب طموح في أول عمره .. مثلي .؟؟ لابد أنها ستطير بها فرحاً .. ولابد أنها ستفتح جفونها لتضعني فيهما وتغمضهما عليّ .. على عكس تلك الفتاة التى لم يسبق لها الزواج . والتي قد لا تملك محكاً تقارن به وتحتكم إليه .. وهي تتصور أن إمكانيات رجلها مهما كانت عملاقة فربما كان لدى الآخرين ما هو أكثر عملقة .. وهذا ربما يبرر سر فشل كثير من الزيجات الحديثة " .!!

قال الرجل المطلق بلسان الخبرة بعد تردد : " صحيح تماما ما يقوله هذا الشاب .. وما دام الرجل يقبل بأن يتزوج من امرأة خطبها رجل قبله . ثم تركها لعدم الاتفاق .. فلماذا يعارض أن يتزوج من مطلقة تزوجت من رجل قبله ثم طلقها لعدم الاتفاق أيضاً .؟؟ ثم إن هذا الشاب لو تزوج من مطلقة . فهو سيتزوج من امرأة لا همّ لها في زواجها منه إلا أن تثبت أن تجربتها السابقة قد فشلت لأسباب تخص طليقها . لا بسببها .. وهي لهذا ستكون أكثر تحملاً . وأخلص عطاء . وأكثر تساهلاً وتسامحاً . وأكثر تشبثاً بك .. وستكون أقل فى سلبياتها . لأنها بالتأكيد تعلمت من تجربتها السابقة .!!

قال الشاب الآخر في هدوء .. ما كشف لنا تسرع الشاب الأول : " أنا بالفعل أحب أن اختار امرأة مطلقة للزواج منها .. ولا يعنيني مطلقاً ما سيقوله البعض من أنها خبرت رجلاً قبلي بينما لم أخبر أنا امرأة قبلها .. فالطريق – كما يقول المتصوفة " لمن صدق .. لا لمن سبق " .. غير أنني لا أحب أن يكون لها أبناء من زوجها الأول .. وساعتها يمكن أن أراهن على كل السعادة معها .!!

رد عليه الشاب الأول باندفاع أهوج – مما يوحي أنهما أصدقاء : " يا غبي .. لو كان لها أولاد ، فسوف يكون لديك طريقان إلى قلبها : الطبطبة عليها ، والطبطبة على أبناها .! وكلما تعلق بك الولد ازداد تعلقها هي بك .. إضافة إلى إنك ستكسب مكاناً عند الله ، أنك ربيت ابناً ليس من صلبك .. واتقيت الله فيه .!!

عند قال الرجل الأرمل بانكسار : " من قال لك بأن هذه المطلقة التي تتحدث عنها سترضى بك ، وتوافق فوراً عليك وكأنك جئت لتفتح أبواب عكا لها .؟! إنها أكثر كثيراً مما تظن في التشدد ، ربما أكثر من الفتاة التي لم تتزوج بعد .!! حيث تكون أكثر حرصاً على عدم الدخول في تجربة أخرى فاشلة ، وهذا يجعلها أكثر تدقيقاً وأكثر حرصاً لا أكثر تساهلاً .. فلا تتصوروا أنكم بمجرد أن تطرقوا باب المطلقة سينفتح لكم فوراً .. فدونه مزاليج وأقفال وترابيس من الشك والارتياب والتخوف والقلق .. وهي لن تقبل إلا بمن تشعر أنه لن يضيف إلى رصيدها خبرة مؤلمة جديدة .!!

قال المطلق وقد استفزه القول الأخير للأرمل : " لا تبالغ في الأمر يا أخي .. فحتى لو كانت المطلقة متشددة ومتخوفة من تكرار تجربة فاشلة ، فإن طالبي يدها قليلون .. ولذلك فهي تضع في حسبانها أنها تنتقي من قلة لا من وفرة .. ولو أنها رفضت واحداً ، فربما يمر وقت طويل قبل أن يأتي إلى بابها

آخر .. وهي في كل الأحوال تنتظر القادم بلهفة .. وتمتن لاختياره لها وهو أدرى بظروفها .. فما بالك لو كان أعزباً واختارها هي دون كل الفتيات اللواتي ينضحن فتوة وشباباً .؟!

ولما جاء دوري للتعقيب .. أبديت اعتراضي على بعض ما ذكروه .. واختلاف رأيي عن آرائهم على الأقل في بعض النقاط .. غير أني أوضحت أنني أرى فيما قالوا ، مؤشراً طيباً ينبئ بتغير التوجهات الرجالية حيال المطلقة في القريب العاجل .. ويبشر بقرب خلاصها من أزمة الطلاق التي يصمها المجتمع بها فينفر منها كل راغب في الزواج منها ..لكنني رجوت ألا يكون رواج سوق المطلقات - إن هي راجت - على حساب كساد سوق الفتيات التي تشكو أصلاً من الكساد .. وليتنا نطبق شرع الله ، فيجد الجميع - فتيات ومطلقات - أزواجاً وبيوتاً يمارسون معهم وفيها إنسانيتهم ، قبل أن يدهسهم قطار القلق ، ومحطات الانتظار .!!

****

والسؤال الحائر الذي تسبب في أن سمعت بأذني إحدى الأمهات تسبني على الهواء مباشرة في أحد برامج شبكة الأوربت .. ولابد أن قرائي في كل دول الخليج والشام ومصر والمغرب العربي قد استمعوا لها .. هو : هل حالة " المرأة المطلقة " بعد طلاقها أفضل .. أم حالة " نصف زوجة" دون طلاق أفضل .؟؟ بمعنى آخر : هل لو وجدت المرأة نفسها أمام ظروف تقتضي أن تطلب الطلاق من زوجها - كأن يكون له رغبة في الإقتران بامرأة أخرى ، أو أنه تزوج بالفعل ، أو حتى على علاقة بأخرى - فهل تطلب الطلاق في هذه الحال وتصر عليه .. أم أن لنا أن ننصحها أن تتراجع عن هذا المطلب ، وأن تبقى مع زوجها كنصف زوجة أفضل .. خصوصاً إذا كان زوجها يرغب ويصر على استبقائها إلى جانبه وعدم رغبته في البعد عنها .؟؟

لقد كان هذا السؤال هو محور أكثر من ندوة عقدناها في مصر وبعض الدول العربية .. ويبدو من المفيد أن نقدم لكم ما أسفر عنه النقاش في تلك الندوات .. لعل كله أو بعضه ينفع :

* بعض النساء أصررن على طلب الطلاق في حالة رغبة زوجها في الزواج من أخرى .. وقلن بأن حالها وهي مطلقة ، حتى لو تسولت قوت يومها من عابري السبيل ، لهو أفضل ألف مرة من أن تكون نصف زوجة .. فالمسألة بالنسبة لها مسألة كرامة أمام أهلها وصديقاتها وزميلات عملها وجيرانها وغيرهن . ومن المفيد هنا أن نلفت النظر إلى ما أفشته إحداهن من أن المرأة تلوح بهذا الرفض ، وبطلب الطلاق من زوجها ، على سبيل التهديد الجاد حتى لا يقدم على ما ينوي الإقدام عليه . سواء بسبب حاجته إليها أو بسبب حرصه على أبنائه الذين ستحملهم بعيداً عنه في حالة طلاقها . والغريب كما قالت المرأة .. أن نسبة كبيرة من الأزواج يتراجعون عن خطوة الزواج من أخرى بسبب هذا التهديد الجاد .!! لكن وفي حالة النسبة القليلة التي لا يجعلها التهديد تتراجع عن خطوتها ، فإن المرأة تتمنى لو كان بمقدورها التراجع عن تهديدها والقبول بنصف زوجه .. غير أن كبرياءها أمام كل من سمع بتهديدها وجديته يقف حائلاً دون تراجعها ، فلا تملك إلا أن تستمر في شططها .. رغم يقينها بما ينتظرها من سوء ..!!

* بعض النساء رأين أن قرار القبول بنصف زوجة ، كبديل للقب المطلقة يتوقف على مدى إدراكها للفرص التي تنتظرها بعد طلاقها .. فإن كانت لا تزال في شبابها ولديها مقومات الجمال الكافية لاستقطاب زوج آخر ، فإنها سترفض القبول بنصف الزوجة . كما أنها وفي حالة حبها الشديد لزوجها فإنها قد تقبل بنصف زوجة ، ولكن بعد أن تشترط عليه بعض الشروط التي تحفظ لها بعض الحقوق التي لا تحب أن تناضل من أجل الحصول عليها

في ظل وجود زوجة أخرى أصغر وربما أجمل .!! وربما من المفيد هنا أن نذكر أن إحداهن قالت أنه في كل الأحوال يكون القبول بلقب نصف زوجة أفضل . حتى لو لم يكن هناك حب أو كانت هناك فرص أفضل .. فالمرأة في زواجها الثاني تكون عرضة لتغير توجهات زوجها الجديد نحوها . إما بسبب صحوة إحساسه بأنها كانت امرأة غيره ذات يوم . أو صحوة حنينه إلى زوجته الأولى.. وكلا الأمرين أمرّ من مرارة نصف الزوجة .. ولذا فإن الفطنة تقتضي – إذا فشلت محاولاتها لمنع مصيبة زواج زوجها عليها – أن تقبل بأن تكون إلى جانبه .. فربما عاد إليها وانفض عن " نزوة " الزوجة الثانية ذات يوم .!!

* بعض النساء أشرن إلى أنهن يصبحن أسعد حالاً إذا شاركتهن امرأة في أزواجهن كزوجة ثانية – وهؤلاء حالات قليلة – وأسبابهن أن المرأة قد تكون كل حياة الرجل . لكن الرجل ليس كل حياة المرأة .!! فالمرأة تحب المال وتحب الزينة وتحب الأولاد . ولها ظروفها الإنسانية وقدراتها الأقل .. فإذا ما وجدت امرأة أخرى ترفع عن كاهلها عبء الرجل أياماً في الأسبوع . فإنها ستتفرغ إلى اهتمامات أخرى تجعلها أفضل في عينيه عندما يأتيها . وتمكنها من شحذ قدراتها التي لا تقوى على النضال أمام قدرات الرجل .. كل يوم . وكل ليلة .!!

كل الآراء التي قيلت تستحق التقدير .. ويبقى أن تختار المرأة .. ليس فقط حسب ظروفها وفرصها .. بل أيضاً في ظل تفهم شديد التعقل بأن هناك الآن وفرة من المطلقات والفتيات العوانس في الشارع المصري والعربي . ربما إلى الحد الذي قد لا يجعل أحداً يدق بابها بعد طلاقها .. وربما لا يجعل الحسرة – التي تنتظرها لزوجها – تقتله ندماً عليها .. وعلى أيامها ..!!

الفصل الثاني

امرأة .. بعد العصر

كنا نتندر ونحن صغار بتلك الفزورة التي كنا نقولها لبعضنا وتثير فينا الضحك الكثير .. هذه الفزورة نقولها لواحد منا هكذا : " ألا تعلم أنه قد صدر قانون في الدولة يمنع بيع الليمون بعد العصر " .!!

كان المتلقي للفزورة أو المعلومة يبدي دهشة شديدة لهذا القانون الغريب الذي نحكي عنه .. ثم يسألنا ببلاهة : ولماذا بعد العصر .؟؟ نقول له : لا ندري .. فربما يصيب الليمون بعض العطب في المساء . لذلك منعت الحكومة بيعه بعد العصر .!! ونظل على تلك الحال . نضحك على المتلقي ونحن نرقب حيرته .. إلى أن نحل له اللغز أخيراً إشفاقاً عليه .. فنقول له : " يا غبي .. وهل يمكن أن يباع الليمون بعد عصره .؟؟ بالطبع لا .. ولذا فإن من الطبيعي أن يُمنع بيعه بعد العصر .!!

هذه الفزورة القديمة قدم طفولتي . ألحت على تفكيري منذ أيام وأنا أتحدث إلى امرأة مطلقة .. جاءت تستفتيني في أمر رجل تقدم للزواج منها .. وهي تخشى أن تتكرر تجربة فشلها مرة أخرى .!! لكن الذي هالني منها وهي تتحدث معي . هو هذا القدر الكبير من الشحوب وكل تلك الهزيمة وهذا الانكسار الذي كانت تتحدث به معي .. مما دفعني إلى التفكير في أن طليقها قد " عصرها " قبل أن يطلقها . فلم يُبق فيها ما يصلح بعده لرجل آخر .. وربما كان هذا سبباً رئيسياً للتردد الذي أصابني ومنعني من أن بارك زواجها الذي تزمعه في القريب .. لكنني احترت كثيراً كيف أقول لها ذلك .!!

كيف أقول لها أنه لم يتبق منها أو فيها ما يصلح لرجل آخر .؟؟ كيف أبلغها أنها أسلمت مقودها إلى الرجل - الذي كان زوجها - وتركته يفعل بها كل هذا الذي أرى آثاره على ووجهها .. رغم أن عمرها لم يتجاوز الثلاثين الا بسنوات قليلة .؟؟ كيف أقول لها أنها سوف تخطيء خطأ فادحاً لو أنها أقدمت على تلك الخطوة . وقررت أن تقترن برجل آخر . وهي على تلك الحالة .

التي تشبه حالة الليمونة بعد أن " عُصرت " وجفت . ولم يتبق فيها نقطة واحدة تصلح عصيراً أو شراباً . أو شفاء وترياقاً .؟؟

قرأت المرأة اللماحة تلك الحيرة في عيني دون أن أحكي .. فأجابتني على ما لم أقله قائلة : " لا تستغرب يا دكتور من حالتي التي أنا عليها الآن .. فلتوّي خارجة من مرض الطلاق اللعين .. وبالكاد أدلف منذ أيام إلى حالة نقاهة أنا على يقين أنني سأخرج منها بعافية إن شاء الله .. وبالتأكيد سوف ينفخ زواجي الجديد قبلة الحياة في ثنايا وجهي المجعد الذي تراه الآن .. ذلك أنني الآن أحوج ما أكون إلى من يرد علي ثقتي في أنوثتي التي اغتالها طليقي . فعصرها ولم تعد تصلح لشيء أو لأحد .. أما ما تتخوف منه . فلن يكون له وجود على الإطلاق بعد الآن .. فإذا كنا نقول أن الأطفال مثل " الخضار " .. سريعو الذبول وسريعو العودة إلى النضارة .. فإن النساء أسرع من الأطفال في هذا الشأن .. فهن أيضاً سريعات الذبول سريعات النضارة .. كلمة واحدة يمكن أن تسعد الواحدة منهن . فتريق البهجة على وجهها . وكلمة واحدة يمكن أن تتعسها فترش الكآبة على تفاصيلها .. فما بالك بطلاق يقول لكل الناس أنني امرأة فاشلة . لم تنجح في أن تحتفظ بزوجها .؟!

تمنيت لو طمأنني كلامها رغم الثقة الشديدة التي قالته بها .. وتمنيت أن أقول لها : إذن على بركة الله .. لكنني لم أقلها .. ولم أزد على قولي لها : ربنا ييسر لك أمورك .. ويخيب لي ظني .!!

****

هل تعرفون أن هناك قاعدة لغوية أو نحوية شهيرة . تقول باستحالة أن يلتقي ساكنان في جملة واحدة .!! فإذا كانت هناك جملة تحوي كلمة تنتهي بحرف ساكن . والكلمة التي تليها تبدأ بحرف ساكن أيضاً .. فإن أحدهما لابد أن يتحرك بحركة تشكيل (رفعاً أو نصباً أو جراً) حتى

يستقيم نطق الجملة متصلة .. حيث تسمى تلك القاعدة ، بقاعدة " عدم جواز التقاء الساكنين " .!!

ولعل اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تصلح أن ننقل عن قواعدها قواعد للحياة بين البشر .. ليستقيم أمر علاقاتهم ، مثلما يستقيم أمر اللغة بقواعدها .!! وقد قلنا قبل ذلك - لو تذكرون شيئاً - عن أن الفعل لابد له من فاعل ، حتى لو جهلنا المفعول به .. وأن غياب الفاعل عن الجملة بعد أن يفعل الفعل هو جريمة نكراء تستحق العقاب .. وقلنا حضور المفعول به وغياب الفاعل ، لا يمكن أن يبرر لنا جبن وضعف هذا المفعول به إلى الحد الذي يتجرأ فيه فيتقدم خطوة إلى الأمام ويتخذ مكان الفاعل ويعلن أنه نائبه ، وربما لذلك وجب " ضمه " حتى تختلف أضلاعه ، جزاء وفاقاً أنه تجرأ وأعلن على رؤوس الأشهاد في الجملة أنه قد فعل الفعل بنفسه .!! (أنا حقيقة لا أفهم حتى الآن ، كيف يضرب زيداً عمرو .. ثم يغيب زيد عن مسرح الجريمة .. فيتقدم عمرو المضروب إلى الأمام خطوة ، ويعلن أنه هو الفاعل أو هو نائبه .. وأنه قد قام بضرب نفسه .!!) .

وهنا ننقل لكم مبدأ حياتي آخر ، مأخوذ عن قاعدة " عدم جواز التقاء الساكنين " .. وهو مبدأ يصلح لعلاقات الأزواج الذين يحتارون كثيراً في تفسير اختلافهم وعدم اتفاقهم ، رغم أن الأسباب تكون واضحة تماماً .. وأهمها أن كلاهما يكون ساكناً ولا يريد أن يتحرك لينصلح حال العلاقة مع الآخر ، لتسير الحياة بهما متسقة ومتساوقة .!!

هل يصمت الزوج وتصمت الزوجة .. انتظاراً لوصول " ثالث " يأتي ليتحدث إليهما .؟؟ هل إذا اختلف الزوج وسكن إلى موقفه ، واختلفت الزوجة معه واستقرت على رأيها .. فهناك " ثالث " سيتبرع بتحريك مياههما التي ركدت ، وقاربت أن تأسن .؟؟

ألم يكن على أحدهما أن يتحين الحركة من موقعه الساكن هذا .. مادام الآخر يصر على سكونه .؟؟ أما كان ينبغي على أحدهما أن ينطق ، مادام الآخر قد تدثر برداء صمته وكأن الخرس قد أصابه .؟؟ ألا ينبغي على أحدهما أن يسعى إلى صلح الآخر ، مادام الآخر قد لذّ في خصامه وأخذته العزة بالإثم؟

أما أن يسكن كلاهما .. ويستكين كلا منهما إلى موقفه العاجز .. فهذا ما لا تستقيم معه الأمور بينهما ، مثلما لا تستقيم بين الحرفين الساكنين في الجملة النحوية .. وعندها سوف يتفاقم الخلاف ويتحول إلى قطيعه .. والقطيعة إلى نفور .. ثم إلى طلاق .!! ليقولا وهما ينعيان حظهما المائل : لو لم يكن ما كان .. ما كان ما كان .!!

لقد قال الأقدمون : " يبقى الود ما بقي العتاب " .. والعتاب بالطبع يتطلب أن يسعى أحدهما إلى الآخر كي يعاتبه .. ولو لم يسع إليه ما بقي ود .. لأن كلاهما سيتنطع على الآخر ، ويمارس الغلواء في خلافه واستمساكه بموقفه .. إلى أن يحدث ما لا ننتظره .. لا نحن .. ولا هما .!!

وتحضرني بالمناسبة حكاية طريفة - أو لعلها نكتة - سأحكيها لكم : كان هناك زوج وزوجة على خلاف وخصام .. لكن كلاهما كان يرغب في فض هذا الخصام بأي طريقة ، بشرط أن تحمي ماء وجهه فلا تظهره بمظهر الراغب في الوصال رغم عدم رغبة الآخر ، وتنهي الخلاف بينه وبين صاحبه دون أن تجرح مشاعره . فما كان من الزوج - ويبدو أنه كان الأكثر رغبة في الوصال - إلا أن اقترب من غرفة نوم زوجته بالليل أثناء نومها ووقف على الباب .. وتظاهر بأنه يدعو ربه بصوت مرتفع قليلاً : " يا رب ببركة السيدة زينب أن تأتي امرأتي إلى حجرتي وتصالحني .. يا رب ببركة السيدة زينب الطاهرة تقوم زوجتي وتأتيني " .!! ثم انتظر قليلاً قبل أن ينصرف .. فإذا به يفاجأ بزوجته تقوم من مرقدها ، وهي تتحسس طريقها في الظلام مغمضة

العينين ، وكأن هناك من يسحبها من يدها لى خارج الغرفة .. وتقول بصوت عالٍ : " انتِ واخداني ورايحة على فين يا أم هاشم بس " . !!

هكذا إذن .. كلاهما كان يريد ، لكن المكابرة هي آفة العلاقات الزوجية .. ويبدو أنه لا سبيل إلى صلاح الحال بين الزوجين الراغبين ، إلا بالتخلي عن تلك المكابرة ، والتحرك نحو الطرف الآخر ، وكسر حاجز الجمود والسكون الذي لن يفعل أكثر من تعميق الخلاف وتوسيع الهوة .!!

لابد أن نتخلى عن سكوننا المزري ، لصالح تحركنا نحو ما نبغي .. وانهاء الأمر بأيدينا .. وجعل سلوكنا أفعالاً وليس ردود أفعال كما اعتدنا .. ولا نظل على جهلنا وغبائنا ، رغم ادعاءنا العلم .. والخبرة .!؟

****

التخيير الحاد والجاد ، بين أن تبقى ابنتنا عانساً .. أو نزوجها من جاء يطلب يدها ، رغم يقيننا أنها ستعود إلينا مطلقة بعد حين .؟!

بالطبع الأمر يحتمل الاختلاف .. لكنني أذكر جيداً أن الفنانة رجاء الجداوي التي صاحبتني في برنامج تلفزيوني يناقش هذا الموضوع ، قالت لي همساً : طبعاً تتجوز ، ولو اتطلقت تبقى في إيدها ورقة أفضل .!! لم يسمع أحد من المشاهدين العبارة .. أنا وحدي سمعتها ، ولم أتمكن لا خلال البرنامج ولا بعد انتهائه أن أسألها عن المعنى الذي ذهبت إليه بعبارتها المتعجلة .!!

المهم في الأمر أن اختلافنا العلني كان حول الأفضل للفتاة التي كاد أن يفوتها قطار الزواج : أن تتزوج من شخص بالمواصفات المتاحة التي لا تحمل توكيداً لنجاح العلاقة واستمرار الزواج ، وبالتالي تكون احتمالات الطلاق واردة أكثر من احتمالات الاستمرار .. أم نقبل بعنوستها وتردد مع جدتها : " قعاد الخزانة ولا جوازة الندامة " .!؟

أنا شخصياً قلت ، ووافقني الكثيرون من المشاهدات والمشاهدين ، أن الزواج من رجل يحمل مواصفات غير مبشرة تماماً ، هو مقامرة محسوبة ، ولها نسبة تمثل الحد الأدنى من احتمالية النجاح .. أما الرفض وتقبل العنوسة ، فهو إقرار كامل بفشل الزواج لو حدث .!! والمنطق الرياضي يقول بأن اللعب على القدر من احتمالية النجاح ، أفضل ألف مرة من القبول الخانع بالفشل .!!

إنه بالضبط مثل الذي يصل إلى ٣٢ ألف ريال في برنامج " من سيربح المليون " : لماذا ينسحب في سؤال الـ ٦٤ ألف .؟؟ إنه لن يخسر شيئاً .. ففي حالة فشله سيبقى الحال على ما هو عليه .. وإن أصابه الحظ وكسب ، فبها ونعمت .!!

عندها هاج وماج البعض من حاضري البرنامج ومن مشاهديه على السواء .. بسبب لم أفطن إليه ، هو أنني بهذا المثال أكون قد اعتبرت أن تحول الفتاة إلى امرأة بالزواج ، لا يعني بالنسبة لي أنها خسرت شيئاً .. وهذا خطيئة كبرى في نظرهم لا ينبغي أن تغفر لي .. فكيف أساوي بين " بنت البنوت " البكر ، وبين المرأة .!؟

والحقيقة أنني لم أعرف بماذا أجيبهم .. ولكنني قلت على استحياء : وهل لو بقيت عانساً ، هل كنت ستنتفع بعذريتها .؟؟ ثم قلت بجرأة : أنا أحدثكم عن امرأة ينبغي أن نمنحها الفرصة كاملة لإثبات وجودها في الحياة ، كامرأة تستطيع أن تقيم دعائم أسرة وأن تصنع في شخصية زوجها المواصفات الناقصة التي لم يأتها بها .. على الأقل ليحق لها أن تفخر ذات يوم وتقول : " أنا شاركت في صنع هذا الرجل الذي يبهركم " .!! أما أن ترفض من الأساس أن تقترن به ، وتجد من الأهل من يوافقون على ذلك خشية طلاق احتماله مساو لاحتمال الاستمرار في الزواج ، ثم تجد الآن منكم من يثور لأنها

من وجهة نظره من الأفضل أن تبقى عانساً عذراء . على أن تكون مطلقة ثيب .. فهذا ما لا أفهمه .. ولا أريد أن أفهمه .!!

سمع الجميع معي تهليل أم إحدى المشاهدات التي كانت ابنتها على السماعة وهي إلى جوارها .. وسمع المذيع صوتها وهي تقول : " يسلم فمك يا دكتور " .. وسمعني الجميع جيداً وأنا أقول : لا أحد يستطيع أن يصنع قدره .. لكنه يستطيع أن يحمّله بقليل من الصبر .. ثم ينتظر من الله جوائز المثابرين !!

****

مؤمن تماماً أنا بأن بيد المرأة أن تصلح حال عالم بأسره .. ومؤمن أكثر بأنه إذا فسد هذا العالم ، فلابد أن وراء فساده امرأة لم تتمسك بحقها في إصلاحه رغم امتلاكها لكل المقومات .!! لذا فإن جام غضبي يكون ممتلئاً على المرأة أكثر من الرجل .. لكن هذا لا يمنع من أنني أكيل للرجل كثيراً من الاتهامات وأرده عن غيه كثيراً .. فمن الأزواج من يملك لؤماً لا تستطيع أن تحتمله أمه التي ولدته .. فهو لا يشكر امرأته لو خلعت عينيها ووضعتها له في طبق .. حيث سيقول عندها بأنها امرأة خبيثة ، أرادت أن تغسل عينيها فخلعتهما وادعت أنها فعلت ذلك من أجله .!! هو لا يحمل في نفسه جميلاً لامرأته ، حتى لو قامت لتطهو له طعاماً في منتصف الليل .. حيث سيقول بأنها أرادت ذلك لنفسها وادعت أنه من أجله .!!

لؤمه - إذا تعمده - لا يطاق .. والنساء المجربات لأزواج من هذا النوع يعرفن وطأة لؤمهم وصعوبة التعامل معهم .. وتقول الواحدة منهن ، بأن يوم تتخلص منه بالموت سيكون يوم عيدها بالفعل .. حتى لو أخفت ذلك أمامه وأمام الناس ، وأسرّته في نفسها .!

أعرف زوجاً كريماً مع كل الناس ، لئيماً مع امرأته .. وإن سألته عن السر في لؤمه معها ، قال لك بأن النساء بطبعهن لئيمات .. ولا يفل الحديد إلا الحديد .. وآه من المرأة لو أدركت خلو جعبتك من اللؤم ، ساعتها لن ترحمك من لؤمها .. فأنت بلؤمك معها تستنفذ جزءاً من جهدها في مقاومة لؤمك ، وهو بالتأكيد وقت مستقطع .. لو كان قد توفر لها لاستخدمته في لؤمها عليك .!!

كلام لئيم لا يصدر إلا عن رجل لئيم .. لكن ما العمل .. وقانون الأحوال الشخصية لا يعتبر اللؤم ضرراً تستحق معه المرأة أن تنال طلاقها .؟؟

قالت لي المرأة الفلاحة وهي تضحك بمرارة : " يا بيه لو كل واحدة متجوزة من واحد لئيم طلبت الطلاق .. الشوارع هاتتملي مطلقات .. زي ما هي مليانة رجالة لؤما " .!!

****

هل تصدقون حكاية الطلاق لأتفه الأسباب التي يقول بها البعض .؟؟ الباحثون في مجال العلاقات الزوجية يرون أنه لم تحدث – فيما رصدوا من حالات – حالة طلاق واحدة لأسباب تافهة .. وأن كل الأسباب التي درسوها كانت واقعية ومنطقية وعاقلة ، ولا تأتيها التفاهة من أي جانب فيها .!!

فهؤلاء الذين يقولون بأتفه الأسباب في الطلاق ، ينظرون إلى آخر الوقائع التي حدثت بين الزوجين .. معتمدين على أنها هي الوقائع التي كانوا حاضريها .. واستناداً إلى روايات أصحاب الشأن – الزوجة والزوجة – اللذان يهمهما أن يطرحا على الناس أسباباً ملفقة تبرئ ساحتهما من سُبة الطلاق .. ويلقون باللائمة على الشيطان ، وساعة الغضب ، و " المقدر اللي مامنوش مهرب " .!!

الرجل المفتري يا ولداه . طلق امرأته لسبب تافه : قالها اعمليلي شاي .. وهي ما عملتش .!! هل هناك رجل عاقل يطلق امرأته ويشرد أبناءه ويخرب بيته . من أجل هذا السبب التافه .؟! ما ينزل يشرب شاي في القهوة .. ما يقوم يعمل لنفسه كباية .. ما ينادي على بنت من بناته تعمل له الشاي .. لكن يسألها : عملتي الشاي تقول له شاي إيه يقولها انت طالق .. فده بصراحة ومن غير زعل شغل مجانين .!!

الحكاية الأصلية والأصيلة هي غير ذلك على الإطلاق .. الحكاية أن أختنا في الله – الزوجة – اعتادت منذ فترة أن تقابل مطالب زوجها بتجاهل وتنمر . لأسباب قد يعلمها الزوج وقد لا يعلمها .. وأنه أدرك هذا منذ بدء حدوثه بحاسته الذكورية التي يفترض ألا تخيب .. وحاول أن يكذب نفسه مراراً وتكراراً . لكن الأحداث اليومية جعلته يتيقن أن هذه الزوجة لم تعد تحترمه أو تحترم كلامه على الإطلاق .. فانتوى الخلاص منها .. لكنه قرر أيضاً أن يعطيها ويعطي نفسه آخر فرصة للتأكد من حقيقة ما يشعر به . حتى لا يظلمها . فطلب منها كباية الشاي .. ولأنها امرأة غبية وجاهلة بأحوال الرجال . فلم تفطن إلى ذلك الكمين الذي أعده لها .. وتصرفت بسذاجة النساء المعهودة . التي تراهن دوماً على أنوثة المرأة أمام زوجها أكثر مما تراهن على حسن تبعلها معه .. فكان ما كان .. وطلقها .. فهل هذا الطلاق قام لسبب تافه كما يدعون .؟!

وهذا رجل طلق امرأته لأنه رآها تنظر من الشباك دون غطاء رأس يستر فتنتها .. وعندما دخل إلى البيت وعاتبها قالت له : هوه كان حصل ايه عشان " الغاغة " الي انت عاملها دي .؟؟ يعني انت شايف الناس ماليه الشارع .؟ ده حتى مافيهوش صريخ ابن يومين .!! فلم يملك الا أن قال لها : انت طالق ..!؟ فيه راجل متزن يطلق امرأته لهذا السبب .؟؟ ماهو بيسيبها

تروح الكوافير وتقعد ساعتين تلاتة بشعرها سايب تحت إيد راجل غريب .. ماكان اشترالها كام إيشارب على كام طرحة وقدمهم لها هدية عشان تلبسهم قبل ما تبص من الشباك .. ما هي بتروح الشغل كل يوم وتتكلم مع زمايلها بعينيها وحواجبها .. جت على شوية الشعر " الأكرت " اللي وقفت بيهم نص ساعة في الشباك اللي بيبص على شارع مافيهوش صريخ ابن يومين زي ما بتقول .. ده ايه التشدد الغبي ده .. ما كان يخليه راجل" سبور" ومتحضر بدل الطلاق وخراب البيوت اللي من غير سبب ده .!!

أما أصل الحكاية .. فهي أن تلك الزوجة قد اعتادت منذ فترة على التفريط في عدة أمور هي من صلب القداسة الزوجية .. واعتادت أن تجرح رجولته بتصرفات خارجة عن حدود الأدب وهي في صحبته في زيارة أحد أو وهي معه في السوق .. والرجل يرصد هذا التغير في سلوكها منذ فترة .. وربما يربطه بأمور تخص علاقتهما الخاصة ، مما جعله يشعر بأنها تتعمد ما يحدث .. عندها اتخذ القرار في نفسه وانتظر الفرصة المناسبة .. وها قد حدث ورآها " متدلدلة " بنصها من الشباك ، ومن غير " ساتر " .. ولما عاتبها سفهت قوله . وتعاملت مع الأمر بسخرية ومهانة ، ولم تفطن إلى أنها قد كرست في تلك اللحظة إحساسه بعجزه الذي طالما قاوم الشعور به واستجار بتصرف واحد منها ينفيه .. لكنه غباء المرأة المعهود ، الذي ظل يطارد احساسه بالعجز إلى أن جعل وجهه للحائط .. فلم يملك أمام حالة اليأس الشديدة التي انتابته إلا أن يتخذ أسوأ القرارات : هدم المعبد فوق رأس الجميع .. على الأقل حتى لا يكون هناك حائط يُكره على دفن وجهه فيه .!!

وهكذا كل حكايات الطلاق .. أسباب منطقية وتدريجية وتراكمية .. ومجموعها دائماً أكبر من عدد أجزائها .. فكل سبب في ذاته لا يصنع طلاقاً ولا حتى غضباً .. لكن مجموعها – كما يقول الجشتالطيون – أكبر تأثيراً من

تأثير أجزائها كل على حدة .!! يحدث الطلاق لأننا لا نفطن للتراكم .. ونعتنق التقييم اللحظي ، الذي لا يضع في الاعتبار التاريخ السابق للخلاف .؟!

****

كل البستانيين يعرفون - وهم خبراء بالتأكيد في زراعة الورود - أنه مثلما أن هناك أوان لتفتح الورود وانطلاق عبير الزهور من مكامنه .. فإن هناك أوان لتفتح وظهور الأشواك الحادة حول تلك الزهور .. وأن البستاني الماهر الشاطر هو الذي يتحين قطف زهوره ، قبل أن تتفتح أشواكها وتقوى أنصالها فتؤذي أيدي وأكف جامع الزهور .. وإذا حدث أن أينعت زهرة في أوان الشوك ، فإن عليه الحذر الشديد ، قبل أن يجني من وراء اقترابه من الورد .. الجراح والآلام.!!

والعالمون ببواطن الأمور الزوجية ، يرون الأمر بين الأزواج على الشاكلة ذاتها التي عليها الورود والأشواك .. فيقولون بأن للزواج أوان تتفتح فيه البهجة والحب والسعادة .. وأوان آخر " تتفتح " فيه الأشواك ، مشرئبة ومتأهبة لغرس نصلها في كف كل من يقترب من الورد .. بل ويضيفون إلى ذلك أن موسم ظهور الأشواك ، يكون غالباً في نهايات موسم تفتح الزهور .. وكأن الوردة تزوي وتذبل ، لتفسح مكاناً للشوك القادم .. من أسفلها أو أعلاها .!!

ويقولون بأن الأزواج ليسوا كالبستانيين في المهارة والشطارة .. وأنهم لا يحذرون الأشواك ، ولا يحسبون لأوان ظهورها حساباً .. ولذا فهم دائمو الشكوى من الجراح والآلام و " الشكشكة " .. وأنه كان عليهم بعد انتهاء أوان الورد والشوك ، أن يكونوا حكماء وأمناء ، فينقلوا الدروس المستفادة لأولئك الذين يطلبون مشورتهم من أبنائهم .. لكنهم بكل أسف لا يحكون لهم إلا عن الورود وجمال ألوانها وعبير روائحها فقط ، دون أن يلمحوا من

قريب أو بعيد لتلك الأشواك التي نالت من أيديهم ، وألهبت أكفهم بالجراح عمراً طويلاً .. ربما خجلاً .. وربما لؤماً .!!

كما يرى – أولئك العالمين – أن أكثر حالات الطلاق تحدث غالباً في أوان الشوك .. وأن أوان الشوك عند الرجل يكون في أول عمره الزواجي .. وهو السن الذي يطلقون عليه سن الطيش عند الرجل .. بينما أوان الشوك عند المرأة يكون قرب انطفاء وذبول شبابها – تماماً كالورد – وهو السن الذي يطلقون عليه سن اليأس عند المرأة .!!

أما لماذا تظهر أشواك الرجل قبل وروده .. وتظهر ورود المرأة قبل أشواكها .. فذلك لأن الرجل لا يتخذ الجمال متكئاً في إغراء امرأته مثلما تفعل هي .. ولأنه يدخل إلى عالم الزوجية بمطالب روتينية " معلبة " لا تضع في الاعتبار على الإطلاق طبيعة من اختارها زوجة ، ورغباتها ، واختلافها عن الأخريات .. فهو قد نقل هذه المطالب من كتاب الحياة الأصم ، الذي قال له بأن المرأة هي طوع الرجل وابتسامة الرجل وراحة الرجل وسكن الرجل ، حتى لو كان هذا الرجل سيئاً معها .. وأن الرجل لا ينتظر من المرأة إلا كل حسن وكل جميل ، حتى لو لم يكن هو على الحال ذاتها .!! فهو مثلاً يمكن أن يقيم نهارها فلا يقعده ، ويجعل يومها أسود من " قعر الدست " .. إذا فقط شم رائحة عرقها .. رغم أنه يعرف أنها قد ذرفت هذا العرق في خدمة بيته وأولاده .!! وهو يطلب منها أن تتفنن في إخفاء كل قبيح عنه حتى لا يراه منها ، بينما يأتيها هو من عمله بكل العرق وكل العبوس .. ومع هذا لا يسمح لها أن تلمح – مجرد تلميح – عما يؤذيها منه أو بعضه .. لذا تكون أشواكه في أول تطبيقه لما قرأه في كتاب الحياة ، حادة ونافرة .. ولا أثر للورود من حولها .!!

أما المرأة .. فهي تطرح على الرجل في أول زواجها به كل ورودها وزهورها .. حيث لا أثر للأشواك عندها .. ببساطة لأن أوانها لم يجئ بعد .. ولأن حيثيات

قبوله لها هو الجمال وحده دون غيره .. أما عندما يتأهب أوان الورد للرحيل ليفسح مكانه لأوان الشوك ، فإن الحال يتغير إلى لنقيض .. فينفر الرجل منها .. ويفر من جوارها فرار السليم من الأجرب ، إلى امرأة غيرها لم يبدأ أوان الشوك عندها بعد .!!

فهل تصلح هذه الأسباب لتبرير حدوث الطلاق في أول الزواج لأسباب من جانب الرجل ، بينما يحدث في سن متقدمة لأسباب تتعلق بالمرأة .!؟ اسألوا البستاني الطيب .!!

****

ترى كم امرأة مطلقة جلست جلسة القرفصاء ، وهمست لنفسها بصوت مسموع : " أنا اللي أستاهل كل اللي جرالي " .!؟

لقد قلت بأنها همست نفسها .. لأنني أعرف أن حفظ ماء الوجه ، والحرص على عدم شماتة أحد فيما انتهت إليه من حال ، قد يمنعها – ان لم يكن سيمنعها بالتأكيد – عن أن تصارح أحداً بأنها تستحق ما جرى لها .. أما بينها وبين نفسها ، فهي أدرى الناس بما أوصلها إلى تلك الحال .!!

ومع استثناءات قليلة ، تكون المرأة فيها مظلومة ولا دخل فيما حدث لها حيث الأمر كان بيد الرجل الظالم وحده الذي طلقها بلا جريرة بسبب نزواته أو رغباته أو حتى " جنانه " .. فإن الغالبية العظمى منهن – من وجهة نظري- كانت تستطيع بقليل من حسن التصرف ، والصبر ، والتخلي عن بعض المعاندة أن تحتفظ بزوجها ، وأن تعفي نفسها من جلسة الاستناد إلى الحائط بالرأس في تلك الوضعية ، التي لو صدقت مع نفسها لكان أسوأ الرجال خلقاً ، أكثر ليناً من صلادة ذلك الحائط .!!

ترى ما الذي يمكن أن تفعله المرأة ، حتى لا تفقد حياتها وتخسر زوجها .. وتوصم بأنها امرأة مطلقة .!؟

الإجابة عن هذا السؤال تتطلب رصداً لكل حالات الطلاق وأسباب طلاقها .. لكن الاختصار غير المخل بالمعنى . والحصر الإحصائي المنظم يمكن أن يأخذنا إلى ما يلي :

أولاً : كل خلل في العلاقة الزوجية . تكون مسؤوليته موزعة بين المرأة والرجل بنسبة ٣ : ١ . والمرأة هي التي تستطيع أن تطفئ نار الرجل . وأن تقف سداً أمام فيضانه إذا هي أحسنت استغلال ما منحها الله من قدرات " في توقيتها " . وليس في غير توقيتها .. فلا يوجد مطلب للمرأة يمكن أن يرفض من الرجل إذا هي أحسنت اختيار توقيت الطلب .. وكل النساء الفاشلات يطرحن مطالبهن على الرجل . في توقيت يكون الرفض فيه هو الأقرب .. وعلى المرأة ألا تلوم إلا نفسها واختيارها .!!

ثانياً : لكل رجل " جانب نسائي " يعجبه في المرأة ويمنحه الأولوية على بقية الجوانب في مرحلة عمرية معينة .. وقد يلجأ إلى تبديل تلك الأولويات في مرحلة عمرية تالية .. وعلى المرأة الذكية أن تنمي هذا الجانب لديها بعد أن تتعرف إليه . ولا تتمسك بالجانب الذي تمنحه هي الأولوية .. لأن الخلاف بينهما سيكون عندئذ مثل " حوار الطرشان " .. هذا في واد وذاك في واد .!!

للأسف فإن كثير من النساء يدخل إلى " لعبة " الزوجية بأفكار سابقة التجهيز عن الرجال بعامة . منقولة عن الأم أو عن الصديقات .. وعندما تكتشف إحداهن أن رجلها مختلف عما تعرف . تتصور أنها لم تستطع أن تطبق تلك الأفكار المسبقة بدقة أو بمهارة . فتعيد تطبيقها معه بمهارة أكبر.. وللأسف تكتشف للمرة الثانية أنه مختلف .. فتسدر في غيها دون أن تتوقف للحظة لتفترض أن العودة من منتصف الطريق أرحم كثيراً من قطعه حتى آخره . لتكتشف في نهايته أنه الطريق الخطأ .!!

فهناك رجل يعشق حديث امرأته ، وهناك رجل يعشق صمتها ، وهناك رجل يشتهي جسدها ، وهناك رجل تغريه ثقافتها .!! ولا أظن أن من الحكمة عندما يصل الرجل إلى مرحلة عمرية متقدمة فيغير أولوياته ، ويحل عشقاً في امرأته محل عشق .. أن تقف المرأة أمام هذا التغير ، وترقع بالصوت " الحياني " : والله انت حيرتني معاك .. قلت بأحب كذا وأدينا عملنا كذا .. جاي دلوقت تقول أنا اتغيرت .. هوه أنا الجارية اللي اشتراها لك أبوك .!!

ثالثاً : الرجل فيما أفهم أبسط كثيراً في تركيبته مما تظن النساء .. فقط هو إنسان متشبث بمسألة الرجولة التي تميزه عن المرأة ، والتي تجعله يرفض أن يكون تابعاً لامرأته تحت أي ظرف ، وأظن أن معه كل الحق في هذا .. خصوصاً إذا استطاعت المرأة أن تقنعه بأنها هي التابع ، رغم أنها تملي عليه كل رغباتها وهو ينفذها بحذافيرها .. فليس معقولاً أن تقول لمن يحملك على كتفيه : أنت أعرج .. فهذا هو الغباء بعينه .!!

أذكر في هذا المقام أن رئيساً للقسم في إحدى الجامعات كان لا يتخذ قراراً ولا يخطو خطوة إلا بعد أن يأتي إلى مكتبي ويستشيرني .. وقد ظللنا عامين على تلك الحال " سمناً على عسل " ، إلى أن تطوع أحد الزملاء مشكوراً وفضح ما بيننا ، عندما قال له أمام الجميع وهو يرى حيرته في اتخاذ قرار في اجتماع عام : انتظر حتى تأخذ رأي الدكتور يحيي يا ريس .!! ومن يومها وأصبحت العلاقة بيننا " طيناً على نيلة " .. بل وصمم السيد رئيس القسم أن يكتب إلى المسئولين برغبته في فسخ تعاقدي مع الجامعة .. وجاء إلى مكتبي يعتذر عما فعله وهو يقول : لا يرضيك يا دكتور أن يقولوا أنك أنت الذي يدير القسم ، بينما أنا " طرطور " .!!

والعبرة واضحة لنسائنا من هذه الواقعة .. فالمهم عند الرجل ألا يعرف أحد بأنه التابع .. بل لعله المهم أكثر ألا تكاشفه المرأة بتبعيته لها ..

ويكفيها أن ما تريده منه يتحقق لها .. فهل هي تريد العنب - كما يقول أهل الشام - أم أنها تريد أن تقاتل الناطور .؟

****

بالتأكيد .. فإن من مصلحة المرأة أن يكون الرجل دائماً على حق .. فالمرأة شأنها شأن الطفل في المنزل وشأن التلميذ في المدرسة وشأن الموظف في المؤسسة التي يعمل بها .. إذا لفت نظره أحد من أولياء الأمر إلى تقصير ما في عمله أو في سلوكه ، فإنه يتقبل برحابة صدر هذا التنبيه ، ويتعامل مع ذلك التوجيه على أنه أمر طبيعي جداً يصدر عمن يمتلك الخبرة الأكبر والسلطة الأعلى ، ولا ينال مطلقاً من مكانته أو يقلل من كفاءته كثيراً .. فالأستاذ والوالد ورئيس العمل ، هم الأكثر كفاءة وهم الأرجح رأياً .. بحكم الخبرة والسن .. وبحكم الولاية الشرعية أيضاً ..

أما إذا حدث العكس .. وجاء التوجيه أو لفت النظر من التلميذ إلى الأستاذ أو من الابن إلى الوالد أو من المرءوس إلى الرئيس .. فإن هذا يكون ضد طبائع الأشياء وطبيعة الأمور .. بل يكون في رأي الكثيرين نوعاً من التطاول على صاحب الخبرة والولاية .. حتى لو كان بعض هذا التوجيه أو التحفظ حقاً لا ينكره أحد .. وعندها فإن الوالد أو الأستاذ ، يشعر بإهانة بالغة من هذا التطاول ، ويحس بغضب فظيع من سوء الأدب هذا الذي لا تقره تقاليد تعلم أو قوانين تبعية .. ولا ينفس عن هذا الغضب أو تلك الإهانة ، إلا إيقاع العقاب المبالغ فيه على ذلك المرءوس ، الذي سول له تفكيره الأهوج أن يوجه الانتقاد إلى قيادته " الحكيمة " ، متجاهلاً مكانتها وأهميتها وخبرتها وولايتها .!!

والمرأة في ظل كل الأعراف والتقاليد والشرائع السماوية - والوضعية حتى وقت قريب - هي المرءوس ، وهي التلميذة وهي التابع ، بينما الرجل هو

القائد ، وهو المعلم ، وهو الرئيس ، وهو الراعي ، وهو قبطان مركب الزوجية الوحيد الذي لا يشاركه في قيادتها أحد إلا من يرغب فيه .. على أن يكون رأي هذا المشارك استشارياً وغير ملزم للقبطان .. ولا يحق لأحد على ظهر مركبه أو بارجته العسكرية أن يخالف أوامر أو يعارض آراءه ، وإلا حق له كقائد أن يطبق عليه قانون الميدان العسكري الذي يبيح إطلاق النار عليه دون محاكمة .!!

من مصلحة المرأة أن يكون الرجل على حق دائماً .. لأنها بذلك تقر له بحقه في القوامة التي لا فضل لها فيه .. وتنأى بنفسها أن تكون في مرمى غضبه الذي لو نالها فستكون نهايتها معه .. تماماً كما يحدث في قانون الميدان .. وتسلم برجاحة تفكيره العقلاني ، في مقابل تفكيرها العاطفي الذي لا يستطيع بمفرده أن يمخر في عباب بحر الحياة متلاطم الأمواج .. وتحفظ له مكانته ككائن أكثر خبرة وأكثر احتكاكاً بالمجتمع الخارجي .. وأكثر قدرة عضلية ونفسية على التعامل مع مشاكسات الحياة بحكم تكوينه الفطري .. وهو بالطبع الملتزم بتوفير الرعاية والحماية والإنفاق والحاوطة على المرأة وعلى الأبناء وعلى البيت .. ومن دونه يستحيل أن يستقيم أمر أبناء أو سلوك امرأة .. أو حتى حوائط بيت .!!

وعندما يتفاقم شعور المرأة بأنها أقدر منه تفكيراً أو أذكى منه عقلاً أو أرجح منه سلوكاً .. لمجرد امتلاكها لبعض المال من عملها الذي لولا موافقته ما التحقت به ولا استمرت فيه .. وعندما تصمم على أنه تبلغه تلك الرسالة " الوقحة " كتلميذة تسفه رأي أستاذها ، وتقلل من شأن دوره العقلي الذي هو جزء أساسي من حيثيات قناعته بحتمية هيمنته على أمورها وأمور بيتها .. فعليها عندها ألا تلوم إلا نفسها الأمارة بالسوء .. وعليها أن تعض أصابع الندم .. تلك الأصابع التي لن تجدها بالتأكيد يوم

ترغب في عضها .. لأن غضبه عليها سيقطع لها كفيها ، ويتركها عاجزة بدونها .. وبدونه .!!

على النساء أن يقتنعن أن الرجل دائماً على حق .. لمصلحتهن أولاً .. وإذا كانت المرأة منهن لديها بعض التحفظات على تفكير رجلها أو تصرفاته ، فلابد أن تكون أذكى من أن تنصحه وهي معتلية كرسي الأستاذية ، وهي تعرف أنها التلميذة ولا أستاذ غيره .. وعليها أن تطرح عليه تحفظها في شكل استفسار ناعم ، يتساءل أمامه بفطنة ودهاء عن إمكانية أخذ هذا التحفظ بعين الاعتبار .. فقط إذا أعجبته فكرته وقبل بها بحكم قدرته كرجل أكثر رجاحة على التفرقة بين الجيد والأفضل .!!

****

ليس من شك في أن كل من يتعامل من الباحثين والعلماء مع قضايا الطلاق والمطلقات في العالم العربي يعاني من مرارة نفسية شديدة .. تتزايد حدة نوباتها كلما قرأ أو كتب عن حالة طلاق جديدة أو عن مشكلة اجتماعية أو نفسية كان الطلاق هو السبب الرئيسي وراءها .. ذلك أن الطلاق هو في كل الأحوال مأساة إنسانية بشعة تفوق بشاعة الكوارث الطبيعية ، لأنها تختص شخص واحد فقط لا يشاركه مأساته إلا نفسه .. وهي تجربة مريرة لا يعرف بمرارتها إلا من عاقرها وحده وتأذى بنتائجها بمفرده.. وللأسف فإن المرأة هي أول ضحايا تلك المأساة .. والأبناء هم آخر ضحاياها .. أما الزوج فهو لحسن حظه كرجل ، يتراوح موقعه بين موقف الضحية ومكان الجاني .!!

الغريب في دراسة تلك المأساة متعددة الأبعاد ، أن المتمعن من الباحثين في تفاصيلها سوف يكتشف بقليل من الجهد ، أن " اختزان الغضب " لدى أحد الزوجين – خصوصاً الرجل – هو السبب الذي يتربع على قمة الأسباب

" الهايفة " التي يقولون أنها تؤدي إلى الطلاق .. وسيكتشف أنه لو قدر لكلا الزوجين أن يفجرا غضبهما أولاً بأول أمام الأحداث التي تغيظهما أو التي تقهرهما ، دون اللجوء إلى إستراتيجية اختزان الغضب هذه ، فربما ما وصلت حالة زواج واحدة إلى مرحلة لفظ الأنفاس المسماة بالطلاق .!!

لقد وصلت نسبة حالات الطلاق في مصر في السنوات العشرين الأخيرة إلى رقم مخيف حقيقة ، طبقاً لإحصائيات رسمية .. أما في بقية الدول العربية ، فالبعض يرى تلك النسبة سراً من أسرار الدولة لا ينبغي إفشاؤها ، والبعض يعلن عن أرقام غير حقيقية .!! وكان عدم التوافق بين الزوجين هو السبب الرئيسي وراء ٦٤٪ من تلك الحالات .. وهو سبب مطاطي يمكن أن تندرج تحته أو حوله كل الأسباب الفرعية التي تؤدي إلى عدم التوافق ، وبالتالي إلى الطلاق .. ومن هذه الأسباب : طبع المرأة الشرس – طبع الرجل الشاذ – الاختلافات على الأمور المادية – تدخل الأهل في الأمور الشخصية لأي من الزوجين – غباء المرأة في مقابل ذكاء الرجل أو العكس – إهمال أياً من الزوجين للاهتمام بالآخر أو التعبير عن ذلك الاهتمام ... الخ ..

الأكثر غرابة .. أن كل هذه الأسباب أو بعضها موجود وبوفرة في تلك البيوت العامرة ، التي لم يصل أصحابها إلى مرحلة الطلاق كنهاية حتمية لعدم التوافق بينهما .. لكن يبدو أن الزوجين في تلك الحالات الأخيرة ، لم يختزنا غضبهما من عدم التوافق بينهما .. بل عبرا عن ذلك الغضب بكل الطرق المتاحة .. وفي حينه .. بحيث تراهما بعد قليل وقد تعانقا وضحكا من قلبيهما على اختلافهما ، بعد أن صفت نفسيهما من جراء التنفيس عن الغضب .. ولو بكسر " فازة " أو " قلة " أو أي شيء قابل للكسر .!! لكن الدارس لتلك الحالات الأخرى التي بلغت حد الطلاق ، سوف يلحظ أن الزوجين لم يسمحا لبعضيهما تحت أي ظرف بأي درجة من درجات التنفيس

عن الغضب .. إما تسلطاً من أحدهما . أو هروباً من أحدهما من أمام الآخر حتى لا يجد من ينفس غضبه فيه .. ثم .. ومع تراكم هذا الغضب المكبوت وتناميه وتفاقمه مع الوقت وضغوط الحياة .. فإن اللحظة التي ينفجر فيها بركان الغضب تأتي في وقت . يكون الاختلاف فيه أهون من أن يؤدي إلى مجرد خصام .. لكنه يكون القشة التي قصمت ظهر البعير .. فلا تحمل تلك اللحظة من المرأة إلا كلمة واحدة بها كل الرفض والتمرد والكراهية : " لو كنت راجل .. طلقني " .. ولا تحمل من الرجل إلا كلمة واحدة بها كل مخزون الغل والحنق : " أنت طالق بالتلاتة " .!!

والسؤال المنطقي الآن الذي لا يملك الإجابة عنه إلا المطلقين والمطلقات : هل لو كان أحدكما قد منح الآخر فرصة للتنفيس عن غضبه أولاً بأول منذ أول عشرتكما وإدراككما لعدم التوافق أو الاختلاف .. هل كان من الممكن أن يحول ذلك دون وصولكما إلى مصيبة الطلاق التي أنتما عليها الآن .؟!

إن أقسى ما يمكن أن يشعر به إنسان على وجه الأرض . هو أن يفتقد القدرة على التعبير عن مشاعره وانفعالاته مع أقرب الناس إليه .!! قد يكون ذلك مبَرراً مع الأغراب ومع زملاء العمل ومع الأصدقاء والصديقات .. لكنه مع الزوج وهو يشاركه مطعمه ومشربه وسعاداته وأحزانه .. فإنه غم وهم بالليل والنهار . ولا يؤدي إلا إلى الحقد عليه والكراهية له . والدعاء أن يفصم الله عرى تلك العلاقة الظالمة .. سواء بالموت . أو بالطلاق . أو بالانتحار .. أو حتى بالقتل .!!

أذكر حادثة تراثية عن " حلاق " كان يحلق شعر الملك . وكانت أذني الملك بها عيب خلقي حيث تشبه أذني المعزة .. وقد هدده الملك إن هو أفشى سره حتى لأقرب الناس إليه أن يقتله كما قتل سابقيه .. فكتم الحلاق السر طويلاً .. لكن امرأته لاحظت أن بطنه تنتفخ مع الوقت ويتزايد ارتفاعها

بشكل ملحوظ مع مرور الأيام .. وكلما سألته عن السبب في انتفاخ بطنه خشي أن يقول لها ما يكتمه كيلا يتعرض لبطش الملك .. إلى أن ازداد انتفاخ بطنه ذات ليلة حتى كاد أن ينفجر فصارح زوجته بسره .. فما كان منها بعد عن سمعته إلا أن أخذته (لاحظوا ذكاء المرأة الفطري) إلى صحراء لا أحد فيها ، ثم حفرت له حفرة كبيرة وأشارت عليه أن يضع وجهه في الحفرة وأن يقول ما يكتمه بأعلى صوته .. فوضع الحلاق فمه في الحفرة وصار يصرخ : " ودان الملك ودان معزة .. ودان الملك ودان معزة " .. ومع كل صرخة يطلقها كان انتفاخ بطنه يقل تدريجياً .. إلى أن أفاق وشفي من انتفاخه .!!

فهل تعرف المرأة كيف تفجر مخزون الغضب داخل زوجها .. وبالمرة مخزون الغيظ ، ومخزون الهزيمة ، ومخزون الغيرة ، ومخزون الانتقاد .. إلى آخر تلك المخزونات التي تمثل قنابل موقوتة قد تنفجر ذات يوم في وجهها دون سابق إنذار وعلى غير موعد .. أم أنها ستظل تتغابى في التعامل مع الرجل ، وتترك غضبه منها يتراكم ويتفاقم إلى أن تحدث الكارثة .. ثم تتجمل ساعتها وتتعلل بأنه " عدم التوافق بين الزوجين " هو الذي أدى إلى الطلاق .؟!

ليتها تعرف .. قبل أن تحيطها أربعة جدران خرساء دون ظل رجل لم تعرف كيف تجعل ظله في نظر الآخرين أطول من قامته .. ولم تعرف كيف تجعل ظله معتدلاً أمام الآخرين ، رغم يقينها من اعوجاج عوده .!!

واسمحوا لي أن أبدي استغرابي من هذا الموقف : إذا كانت المرأة تجاهد من أجل " التحرر " من الرجل والحصول على " استقلالها " .. فلماذا كل هذا الصراخ عندما يطلقها الرجل .. رغم أن الطلاق هو أقصى أنواع " الاستقلال التام و " التحرر " الزؤام .!؟

****

لو أن أحد أبلغ أحداهن أن زوجها يجلس الآن إلى جوار عروسته الجديدة في احد الفنادق الكبرى ، حيث الليلة هي ليلة زفافه .. فماذا هي فاعلة .؟!

كان هذا هو السؤال الذي قدمه أحد تلاميذي - بإيعاز مني - إلى عينة ممثلة من النساء العاملات المتزوجات ، في المدارس والمصالح الحكومية ، كجزء من متطلبات حصوله على درجة الدبلوم في الدراسات العليا .. وعاد إليّ بحفنة من الأوراق التي سجلها بنفسه على لسان نساء عينته ، بعد أن أفرغها في فئات حسب نوع الإجابة ، وكانت الفئات على النحو التالي :

الفئة الأولى : ونسبتها حوالي ٣٨ ٪ . وقد أجمعت هذه الفئة على أنها ستسارع إلى جمع حاجياتها من منزلها وحمل أولادها مع ما خف وزنه وثقلت موازينه المادية ، إلى بيت أبيها أو أخيها لإبلاغه بما فعله هذا الخسيس . ليبدأ من اليوم التالي في السير في اتخاذ إجراءات طلب الطلاق . وفي هذه الفئة تعددت المهن التي تمارسها النساء ، من عند مهنة مدير عام إلى مهنة فراشة في مدرسة . وكان متوسط عمر هذه الفئة من ٢٩ - ٣٤ عاماً .

الفئة الثانية : وكانت نسبتها حوالي ١٢ ٪ . وأجمعت نساؤها على ضرورة التحري أولاً من صدق الخبر ، ثم بعد ذلك سوف يمارسن - في حالة صدق الخبر - نفس السلوك الذي اتخذته الفئة الأولى بحذافيره . ومهن هؤلاء كانت من المهن العليا نسبياً . وتراوحت أعمار هذه الفئة من ٣٠ - ٣٧ عاماً .

الفئة الثالثة : وكانت نسبتها حوالي ٢٣ ٪ . وقد أجمعت أفرادها على أنها سوف تعمد إلى تغيير قفل باب البيت أو الشقة ، وستجمع مجوهراتها وترسلها إلى أحد أقاربها ، ثم تبقى هي في بيتها إلى أن يعود فلا تسمح له بدخول البيت مطلقاً .. وأيضاً ستكلف أحد إخوتها باتخاذ إجراءات الطلاق وفوراً . مهن تلك الفئة من كل المستويات وبنسب شبه متساوية . أعمار تلك الفئة كان بين ٣٩ - ٤٨ عاماً .

الفئة الرابعة : ونسبتها ٢٥ ٪ . وقد أجمعت على ضرورة إبلاغ كل أهله تليفونياً بما فعل ، وعلى جمع كل أبنائه وفضحه أمامهم .. مع فتح بيتها لاستقبال أهلها وأهله . ودعوة أمها للإقامة معها . واستشارة الجميع فيما عليها أن تفعل أمام هذا الغادر . وانتظار ما يسفر عنه الغد ، فربما كانت نزوة عارضة ويأتيها بعدها نادماً .. وساعتها " اللي يعمله ربنا يكون " . هذه الفئة كانت من كل المهن وإن زادت المهن المتدنية قليلاً ولكن بدرجة غير دالة إحصائياً . أعمارها كانت بين ٣٢ و ٥٦ عاماً .

اثنتان فقط من أصل ٦٧ امرأة – هم كل عدد أفراد العينة – قررتا شيئاً مخالفاً .. فقد قالت إحداهن بأنها ستذهب إلى الفندق الذي يقام فيه الفرح . وستجره من " قفاه " .. وإذا لم يطاوعها ستتسبب له في فضيحة لا يعلمها إلا الله ، وهي على يقين أنه سيأتي معها .. فهي " ليست هفية حتى تأتي عيلة مفعوصة تاخد جوزها منها وهي تقعد تحط إيدها على خدها وتعيط زي النساوين الخايبين " .!! أما الزوجة الثانية فقالت إنها ستذهب إليه في الفندق أيضاً . لكنها سترسل له أحدهم ليأتي إليها في مكانها في لوبي الفندق . وتفتح معه حواراً تحاول فيه منعه عن تلك المصيبة .. مستحلفة إياه بكل ما بينهما من ود قديم وعِشرة طويلة .. وستحاول التأثير عليه بكل الطرق .. ومعرفة ما الذي فعلته تلك المرأة حتى أنسته أولاده وزوجته ففكر هذا التفكير الأهوج .. وهي أيضاً متأكدة أنه سيأتي معها .

السيدة الأولى عمرها ٤٩ عاماً وتعمل موجهة اقتصاد منزلي في التربية والتعليم . والثانية عمرها ٤٢ عاماً وتعمل مهندسة معمارية حرة .

لا أملك أمام كل تلك الأرقام الصادمة .. مع هذا الختام شبه العاقل .. إلا القول بملء الفم بأن .. " العقل زينة " .!!

****

الاصطياد في الماء العكر صار ديدن بعض الناس حتى مع ذوي قرباهم .. إلى الحد الذي يتصور الصديق أن صديقه قد جالسه ليتصيد له هفوات لسانه ، دون أن يستميح له العذر أو بعضه .. حتى أن العودة إلى الحكمة القديمة بأن " السكوت من ذهب " أصبحت خير ما يتناصح به الناس الآن .. خصوصاً مع أصدقائهم وذويهم .!!

إن مرور الأصدقاء بما يقوله أصدقاؤهم " مرور اللئام " .. يجعلنا نتساءل عن حق الصديق على صديقه .. وكيف يتلقف ما يقع لسانه ، حتى وهو يعرف أنه لا يقصده .. دون شفقة أو حسن ظن .. وكأن لسان حاله يقول " يا عدوي ما شفت عليك يوم " .!!

لقد وصف الله عباده المؤمنين بقوله { وإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } صدق الله العظيم ، واللغو كما نعرفه من القرآن الكريم ذاته ، هو القول العرضي الذي لا يحمل توكيداً أو قسماً غليظاً ، كما قال الله سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم { لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ }. وعليه فإن المرور الكريم من الناس على لغو أزواجهم وأصحابهم وأهليهم هو من صفات المؤمن الحق ، الذي اعتاد أن ينفض عن سمعه ما يتناهى إليه عرضاً أو دون توكيد ، فلعله تنفيس لاشعوري من أصحابه عن ضيق وقتي أو همّ عارض .. أما التوقف عنده ونصب المحاكم لشنق من قاله ، واعتبار ما قال " موقفاً " يحسب عليه .. فهذا بعينه هو ديدن اللؤماء الذين ندعو الله ألا يقف الكرماء على بابهم ، حتى لا يراق ماء وجوههم على أعتاب من لا يرحم هفوات الكريم .. الذي إلى الله على نفسه في الحديث القدسي لملائكته أن يغفرها بقوله سبحانه " تغاضوا عن هفوات الكريم ، فإن الله يتغاضى عن هفواته " أو كما قال .!!

حكت لي المرأة حكايتها . وغلالات من الدموع تشكل حاجزاً سمعياً وبصرياً حال دون أن أستوضح معظم ما تقول .. وإن كان السياق قد أسعفني ببعض الفهم : " كنا يا سيدي نجلس أمام التلفزيون نشاهد فيلماً عربياً قديماً .. وكان البطل وسيماً وله مواقف شهامة في الفيلم تدعو إلى الإعجاب .. وفي لحظة اندماج ومعايشة مني مع أحداث الفيلم وأبطاله . صدرت عني كلمة إعجاب بالبطل - وعليك أن تلاحظ أن الممثل الذي قام بدور البطل قد مات قبل عشرين عاماً - فقلت عنه بصوت مسموع وانفعال يبدو أنه كان مستفزاً .. وليتني مت قبل أن أقول : " آدي الرجالة وإلا بلاش " .!! وإذا يا سيدي بزلزال مدمر وإعصار قاتل يجتاح المكان الذي كنا نجلس فيه .. فقد قام زوجي من مقعده مندفعاً نحو التلفزيون فأغلقه .. ثم التفت ناحيتي وبدأ كلامه الذي لم ينته إلا بطلاقي : الست التي تبدي إعجابها برجل آخر أمام زوجها هي ست " غير محترمة " . وأهلها " ماعرفوش يربوها " .. والراجل اللي يقبل إن مراته تتغزل في رجل آخر أمامه هو رجل " .... " . وأنا لست كذلك .!! وصار يقول كلمة ويركل ركلة .. يسب مرة ويلطش مرات .. ويدخل إلى غرفته يحمل بعض ملابسي ويلقيها في وجهي . ثم يستحثني على ترك البيت فوراً .. ولما قلت له إن هذه مجرد كلمة عن ممثل في فيلم وعن شخصية داخل الفيلم وليس في الحياة . وأن البطل قد مات وشبع موتاً .. أجابني : من تقول هذا عن بطل فيلم تقوله عن شخص حقيقي .. ومن لا تحترم مشاعر زوجها في حضوره . بالتأكيد لن تحترمه في غيابه .. ثم وبعد ساعتين من السب واللعن والإهانة قال لي بكل انفعال وكأنه يطلق رصاصات قهر نحو يهودي : انت طالق . طالق .. طالق .!!

" هكذا يا سيدي كان طلاقي .. لمجرد أن زوجي لم يمر بلغو كلامي مرور الكرام كما أمره الله .. فقد كان لئيماً إلى أبعد حد .. وافترض أنني ألمح من طرف خفي إلى مواقفه التي تخلو من أية شهامة معي ومع أفراد أسرتي ..

وافترض أنني غير قانعة برجولته . وأنني أمد عيني إلى رجولة غيره في كل فرصة مناسبة .. وأن قولى عن بطل في فيلم لا يمكن أن يشفع لي . بل هو يؤكد عليّ التهمة .. فمن لا تستطيع أن تخفي مشاعرها نحو ممثل في فيلم - هكذا قال - لابد أنها لن تقاوم مشاعرها نحو من تتعامل معهم في الحياة من الرجال . في حالة الإعجاب بسلوكهم " .!!

" كثير هذا الذي قاله .. وكثير هذا الذي فعله .. وأكثر من الكثير هذا الذي اتهمني به .. وليتني وأدت تلك العبارة في نفسي ولم أقلها . رغم أن في نفسي نحوه أكثر مما قلت .. وقد طلقني وانتهى الأمر .. لكنني أتيت إليك كي أستحلفك بحق حرصك على إصلاح ذات البين في بيوتنا . أن تنبه الأزواج إلى أن لغو القول من زوجاتهم لا ينبغي أن يقوم دليلاً على ما في نفوسهن .. وأن الكرم مع المرأة في حالة سقطات اللسان أهم كثيراً من الكرم في العطاء .!!

هاأنذا قد أبلغت ما تريدين يا سيدتي .. لكنني لا أكتمك أنني لا أكاد أصدق أن زوجك كان بركاناً هامداً فأهاجته تلك العبارة اليتيمة غير المقصودة .. بل أظنه كان بركاناً ثائراً من مئات العبارات من ذات المعنى صدرت عنك في مواقف عديدة . فأوصلته إلى ما قبل قصم ظهر البعير بقشة وتكفلت به تلك العبارة .. كما لا أظنك أطلقت عبارتك لغواً من القول كما تذكرين .. بل لعلك كنت تعرفين أن تنمر زوجك بك وبمواقفك تجاه مواقفه . سوف يسمح له أن يحمّل تلك العبارة المعاني الكثيرة التي حملها لها .. ولذلك فإنني إلى جانب نصيحتك للرجال أن يتخذوا موقف الكرام عند مرورهم بلغو نسائهم .. فإنني أنصح النساء أيضاً ألا يطالبوا الرجال بمرور الكرام على " اللغو اللئيم " المقصود .. فما أكثر النساء اللواتي " يبرطمن " في بيوتهن طوال الوقت بعبارات مدغمة ينفسن بها عن ضيقهن من رجالهن .. وهن يتعمدن أن تصل بعضها إلى أسماعهم .. كيداً وإغاظة !

ولندع الله أن يعافي رجالنا من " مرور " اللئام .. وأن يعافي نساءنا من " وقوف " اللئام .. وأن يعافينا جميعاً من ألا نكون " كرماء " .. فإن كانوا ليسوا أهلاً لكرمنا .. فلنكن نحن أهل له .!!

****

في واحدة من الدراسات الطريفة التي افترضت رواج الطلاق في أيام معينة من الشهر .. توصل باحث في إحدى دول شمال أفريقيا إلى أن معدلات الطلاق تزداد في أول الشهر وفي آخره .. مع هدوء نسبي في أوسطه .. رغم بعض الزعابير ..

وعندما يتحدث أحد عن أول الشهر وآخره . فهو يقصد الشهر الميلادي .. ولا يمكن لعاقل أن يذهب ذهنه إلى أن البدر لم يكن تاماً . أو أن القمر كان في المحاق .!! كما أن الذهن سيقفز فوراً إلى موضوع المرتب . ويوم قبضه في أول الشهر .. والى انتهاء المرتب . وبدء أيام التسول في آخر الشهر .!! فكيف لنا أن نلقى تفسيراً منطقياً ومقنعاً لتلك النتائج . التي تربط بين الطلاق ووقت استلام المرتب .. أو وقت نفاذه .؟!

كلنا يعرف بالتأكيد تلك العلاقة القائمة في البيوت . بين الخلافات الزوجية والإنفاق من مصروف البيت . الذي يخرجه الزوج وكأنه يقتطع من لحمه . بينما تنفقه الزوجة وكأنها وجدته في الطريق .!! هذه الخلافات التي تتأجج دوماً بينهما .. حيث هو يتهمها بالتبذير . وهي تتهمه بالشح .. هذه الخلافات هي بالتأكيد خلافات غير مرتبطة بيوم القبض أو ليلة القبض على المرتب .. إنها خلافات تحدث طوال الشهر وبنجاح عظيم .. ونحن نتحدث عن ازدياد حالات الطلاق بين الأزواج في أول وآخر الشهر فقط .؟!

لي صديق يحلو له أن يردد : أحسن أيام الشهر هي الأيام الثلاثة الأولى فيه .. لأن بقية الشهر يمر علينا ضنكاً .. ذلك أن المرتب لا يكفي إلا ثلاثة أيام فقط ..!!!

ولي صديق آخر يرد على صديقي الأول دون أن يلتقيه بقول مختلف .. مؤداه أن ضنك أيام الشهر السبعة وعشرين ، هو الذي يولد إحساساً بالحرمان لديه ، فيسعى إلى تعويضه في الأيام الأولى الثلاثة من الشهر الجديد .. ولو أنه تعلم أن يرشد سلوكه وألا يطلق لحرماناته العنان ونظم انفاقه طوال الشهر ، لصارت كل أيام الشهر عنده نعيماً مقيماً ..

ورغم قناعتي بكلا وجهتي النظر .. فإننا لم نتطرق بعد للموضوع الأساسي .. وهو علاقة الطلاق بأيام قبض المرتب أو أيام قرب قبض المرتب ..

أنا أتصور أن السبب يكمن في أن المرأة لها متطلبات نسائية لا يعرف بأهميتها إلا النساء وحدهن .. وأن الرجال يتعاملون مع تلك المتطلبات باستهزاء واستخفاف ، لأنهم لا يعرفون قدرها عند المرأة .. ولأن المرأة " متربية وبنت ناس " ، فهي لا تفتح سيرة احتياجاتها هذه أمام زوجها إلا قرب قبض المرتب .. أي في أواخر الشهر .. أو عند قبض المرتب .. في أوائل الشهر .!!

أما الذي لا تعرفه المرأة ، أو تعرفه وتتجاهله .. هو أن الزوج يكون في هذا التوقيت بالذات واقعاً في " حيص بيص " .. يحاول حل الإشكالية الشهرية : بند سداد الديون ، وبند سداد المتأخرات ، وبند قسط المدارس للأبناء ، وبند الطعام ، وبند الحليب ، وبند الزيارات ، وأعياد الميلاد ، والمجاملات ، وبند الملابس التي ستحل محل المستهلكات .... إلى آخره .. وفي حالة تشبه من يكاد يشد في شعره ويطلع من هدومه ، تأتيه السيدة الفاضلة التي صبرت على مطالبها الخاصة شهراً كاملاً .. لتدخل عليه بصينية الشاي وتقدم له

الكوب مصحوباً بالعبارة التمهيدية التي تسبق الأحداث الجسام : " بالهنا والشفا يا روحي " (قالتها من قبلها كل من قتلت زوجها بالسم .. ونقلت عن الراحلتين " ريا وسكينة " حيث كانا يقولاها لضحاياهما قبل الخنق والدفن) . ثم تقول له وهي خارجة : ماتنساش تحجز مائتين جنيه على جنب علشان حاجاتي اللي عايزة أشتريها .!!

بس يا مبارك .. وعينك ما تشوف إلا النور . وكباية الشاي التي كانت تحلم أن تشوي بها معدته فسخنتها بعض إضافة السكر وليس قبله حتى ترتفع درجة الغليان .. تجدها قد سلخت لحم ظهرها .. وهو يسب ويلعن ويفور ويموج .. ويختم كل ذلك بالذي هو شر : الطلاق .!!

طبعاً هيه معذورة .. يعني هاجيب بارفانات وماكياجات وحاجات ومحتاجات منين علشان تعجبه وما يبصش بره .؟؟ وهوه كمان معذور .. يعني هايجيب فلوس تقضي كل البنود . ويتوفر منها كمان ليها منين .؟؟

والحل يا سادة حتى لا يقع الطلاق أول وآخر كل شهر فيصاب الناس بعقدة من أوائل وأواخر شهور ربنا .. هو أن يصدر قرار وزاري . بأن يكون قبض المرتب في منتصف كل شهر .!!

ساعتها كل المشاكل هاتتحل .. مش الباحث المجتهد قال انه مفيش طلاق في وسط الشهر .!!

الفصل الثالث

رائحة الخواء

تابعت الأم على خليفة دموعها : تأكدنا من ذلك بعد أن طاف زوجك وأبوك على كل الأطباء المتخصصين والنوابغ : " عيب خلقي يمنع أن تكوني أماً مدى الحياة " .!! لكن ماذا في هذا يا ابنتي .؟ الأبناء ليسوا كل شيء .. والحياة بها أشياء جميلة كثيرة غير الأبناء .. " ويجعل من يشاء عقيماً " . فتلك قدرته وإرادته .. وها أنت ليس أمامك - ونحن معك - إلا أن تقبلي بقدرك . وبالمشيئة التي لا راد لها إلا من أنزلها .!!

صغيرة أنت على احتمال كل هذا الحزن يا ابنتي .. فقد قرر زوجك - ومعه بعض الحق - أن يتزوج من أخرى لتأتي له بالأبناء .. فجاء بها أصغر سناً وأكثر جمالاً .. وشكا منك لنا عندما رفضت أن تتعاملي مع زوجته الجديدة .. وأفهمنا أن نفهمك أنه صاحب فضل عليك أن أبقاك في عصمته . رغم أرضك البور وتربتك الجدباء كما وصفك .. أجبرك يا ابنتي وأجبرنا معك أن تتعاملي ونتعامل معها . رغم قسوة الأخرى وكيدها لك ومعايرتها لك كل ساعة بأنك لست على هوى زوجك . وأن الشفقة وحدها هي التي جعلته يبقيك في كنفه ..

مسكينة يا ابنتي .. فقد تحولت مع الوقت إلى خادمة لزوجة زوجك . بعد أن بدأ الانتفاخ المحبب يعلو بطنها ليعلن على العالم رجولة الزوج واكتمال ذكورته .!! كنت أرى الدمعة في عينيك تسيل لتكوي وجنتيك . فأطلق ضحكتي في وجهك بعد أن أمسح دمعتي من وراء ظهرك حتى لا تلمحيها ! دفنت مشاعرك في بطنك التي لم تعرف كيف تنتفخ بالولد . فانتفخت بالأحزان .. وزوجك غارق - عنك - في سعادته بزوجته . وبقرب قدوم المولود الجديد .!!

صغيرة أنت على كل هذا الحزن يا ابنتي .. فقد طلبت " ضرتك " من زوجك أن تغادري دارها . وأن يؤجر لك داراً متواضعاً تأوي إليها بعيداً عنها .. وألا تأتي

إلى بيتها الكبير إلا عندما تحتاجك لأعمال الخدمة وما شابهها .!! ولما رفضت .. جاء إلينا يفهمنا أن نفهمك أنه لا يستطيع أن يعكر صفو امرأته التي جاءت له بالولد . حتى لا يشرب الولد من صدرها لبناً " عكراً " .. فأفهمناك كما أفهمنا أن الحياة نصيب .. وأن " ضل راجل " خير من أن تنهش عرضك الألسنة .. وأنك لو كنت مريضة لا قدر الله لكنا سننعي حظك .. أما وصحتك وشبابك على أحسن حال . فلا ينبغي لك أن تلقي بالاً إلى الأمور التافهة من هذا النوع ..

رضيت يا ابنتي المسكينة بنصيبك القليل . وتكومت إلى جوار أحزانك تلقفك ثدييها لترضعك منه هماً ثقيلاً جاثماً .. فكبر الحزن وترعرع في أحضانك يا ابنتي الصغيرة على الحزن .!!

صغيرة أنت حقاً على كل هذا الحزن يا ابنتي .. فلم يتجاوز عمرك الواحد والعشرين . وأتتك ورقة طلاقك .. عقاباً لك على تمردك على أوامر سيدتك التي جاء بها زوجك إلى بيتك فطردتك منه . وألحقتك قسراً بوظيفة خادمة ذليلة لها بمباركة زوجك الكريم .. ولما عنّ لك أن تحركي رأسك قليلاً - ألماً أو قهراً - تصورت أم الولد أنك تتمردين عليها .. فألهمته القرار الذي وقع عليه وهو مغمض العينين .!!

والآن يا ابنتي الصغيرة على كل ذلك الحزن .. ليتنا ما زوجناك .. وليتنا ما أقنعناك أن تقبلي بزوجة أخرى .. وليتنا ما أقنعناك أن تغادري بيتك إلى منفاك .. وليتنا ما أقنعناك أن تعيني " ضرتك " على أمور بيتها .. فقد انتهى بك الأمر إلى آخر ما كنا نتحاشى أن تكونيه .. محض مطلقة ذليلة .!!

ليتنا وافقناك من البداية أن تكوني فقط مطلقة .. عزيزة لم ترض الهوان . حتى لو كان السبب إرادة الله ومشيئته .!!

****

حدث الطلاق بينها وبين زوجها منذ عام أو يزيد قليلاً .. والتقيتها في الممر المؤدي إلى مكتبي ، حيث هي سكرتيرة لأحد زملائي في الجامعة .. سلمت عليّ بحرارة ، فرددت السلام بأقل منه حرارة .. لكنني أكملت ما انتقصته منه عمداً بأن سألتها السؤال الساذج التقليدي الذي يشيع على كل ألسنة البسطاء : مش ربنا قرّب يهدي النفوس وترجعوا لبعض يا مدام .؟؟

كان ردها جميلاً وأنيقاً عندما قالت لي : لقد ذهبت بالأمس إلى شقتنا بصحبة أختي . فقد كانت هناك متعلقات لي لا تزال .. وبمجرد دخولي إليها شممت " رائحة خواء " كنت قد اعتدتها أيام زواجي منه .. رائحة نشرت خوفاً نفسي . جعلني أقسم أنني لو بقيت مطلقة طيلة ما بقي من حياتي ما رجعت إلى هذا البيت الخاوي الذي لا أدري كيف احتملت خواءه طيلة ثلاثة عشر شهراً . دون أن أخرج منه حافية أهيم على وجهي في الشوارع لا ألتفت خلفي .. إنها رائحة الموت وأنفاس سكان القبور تلك التي شممتها بالأمس يا دكتور .. فلا تدعو عليّ بأن أعود إلى رائحة الموت مرة أخرى .. جزاك الله خيراً .!!

عندما دلفت إلى مكتبي جلست ساعة كاملة جلسة المتأدب أمام أوراقي . أنتظر وصول الكلمات التي تصارعت في ذهني وأنا أستمع إليها فلا تأتي .. أستدعي مفرداتي التي طالما تتباهى ذاكراتي بامتلاكها .. فلا أجد .!!

لملمت أوراقي وأرجأت الأمر إلى أن أعود إلى بيتي . فيكون بعض ما دار بيني وبين هذه السيدة الفاضلة محوراً لحديث مع زوجتي ..

قالت لي زوجتي : بالفعل .. هناك بيوت تدخلها فتزكم أنفك رائحة لا تدري كنهها .. لو كانت رائحة طعام مختلفة لعرفتها .. ولو كانت رائحة بشر مختلفون لأدركتها .. لكنها بالفعل رائحة موت شيء ما .. موت بشر ..

موت مشاعر .. موت حياة .. خواء يشملك لا تستطيع أن تملك منه فراراً . إلا إذا أدركك لطف ربك وغادرت المكان ..

والمرأة التي تبتلى بالإقامة والمعاشرة مع زوج من هذا النوع الذي يبعث رائحة الخواء في بيته . هي امرأة من المظلومات .. ويوم خلاصها من هذا الرجل وبيته ورائحتهما هو يوم عيدها بالتأكيد .!! لقد صدقتك المرأة فيما قالت .. وإن كان لي أن أنصف الرجل بقول . لقلت بأنه لو كانت المرأة أكثر إخلاصاً في إعمار بيتها . لغلبت رائحة عمارها على رائحة خوائه .!!

كان عليّ أن أختم ما سمعت من زوجتي بأمرين : أولهما أن أدعو لتلك المرأة بأن يبدلها الله داراً خيراً من داره ورائحة أطيب من رائحته .. ثم .. أن أنظر إلى زوجتى تلك النظرة التي تفهم منها أن عليها أن تحمد الله الذي اختار لها زوجاً . جمّل لها بيتها بأريج الحب والإخلاص والأمن ..

فعلت .. مرت الأولى بسلام .. لكنها صدت الثانية بأخرى " أرضية برازيلية زاحفة " تقول بأنها هي التي صنعت هذا .. فهي التي امتلكت رائحة إعمار غلبت بها على بيتها .. فكان هذا الذي أرفل في أريجه .!!

شكراً لزوجتي ولكل نساء العالم على أريجهن .. ولا أرانا الله مكروهاً في عزيزة منهن .!!

****

صغيرة أنت على كل هذا الحزن يا ابنتي .. فقد زوجناك لتفرحي مثل كل البنات في مثل عمرك .. وانتظرنا أن نفرح معك ببناتك وصبيانك .. وليملأوا الدنيا من حولنا فرحة وبهجة .. فإذا بك تكتشفين بعد عام من القلق الحزين أنك لا تملكين القدرة على الإنجاب . وأن حياتك ستكون بكل أسف خواء في خواء .!!

هناك مسلمة تقول بأن أكثر الناس طلاقاً . هم أكثرهم شهرة .. وأرجو ألا يفهم أحد خطأ أن طلاقهم هو سبب شهرتهم . بل إن العكس هو الصحيح .. فكلما كان الزوجان مشهورين كلما ازداد احتمال طلاقهما بعد فترة وجيزة من الزواج ..

الأسباب وراء تلك المسلمة يعرف البعض بعضها .. ومنها أن المشهور أو المشهورة . تكون أخباره على كل لسان . وتفاصيل علاقته بزوجته أو علاقتها بزوجها تملأ أعمدة الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية والدورية .. وتمثل مادة رئيسية في أخبار كل مطبوعة تريد رواجاً سريعاً بين قرائها .. ولذا فإنك ترى أن الممثلين والممثلات والمطربين والمطربات والفنانين والفنانات هم أكثر الناس طلاقاً .. على الإطلاق .!!

وأيضاً منها أن الشهرة . تتيح للمشهور قدراً أكبر من التفاعلات الاجتماعية . وتسمح بفرصة أوسع لإظهار الإعجاب من الجمهور . وتفتح باباً - يراه الفنان شرعياً - لتلقي رسائل المعجبين وتليفوناتهم والرد عليها .. وكل ذلك يهيئ للمشهور أو المشهورة فرصة أرحب للتمرد على وضع الزوجية والاعتقاد بإمكانية الحياة الأسعد مع غير الزوج أو الزوجة إذا ما تم الطلاق بينهما .!!

وهناك سبب هام أيضاً - ربما يكون هامشياً في نظر البعض - يتعلق بيقين المرأة المشهورة . أنها وبمجرد طلاقها من زوجها . فإن (الآخر) ينتظر على الجمر انتهاء فترة العدة كي يقترن بها .. وهذا هو السبب نفسه الذي من أجله تتردد كثير من الزوجات العاديات (غير المشهورات) في طلب الطلاق من زوجها . رغم وجود أسباب قوية تدفع إلى طلب الطلاق .!!

أما الأسباب التي قد لا يعرفها البعض وندعي نحن معرفتها .. فمنها أن المرأة في العادة تعتمد في معرفة أخبار زوجها المرتبطة بعلاقاته الخاصة على

من يتطوع من الصديقات أو القريبات . أو على من يسمون بـ " فاعلي الخير " . الذين تتيح لهم المصادفة معرفة شيئاً عن أسرار الزوج الخاصة .. أما المرأة المشهورة أو زوجة المشهور . فتكون لها مصادر عديدة ومتعددة .. أهمها بالطبع وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية التي تنتهج أسلوب البحث عن الفضائح وإشعال النار في الرماد شبه المنطفئ .. وعندما تفتح هذه الزوجة مع زوجها باب الحديث في هذا الذي قرأته أو سمعته أو رأته ، فإنها تفتح عين زوجها دون أن تقصد على وجه الجمال الخفي في تلك المرأة التي تتهمه بالعلاقة التي أقرتها مصادرها .!!

ثم إن الأعمال الفنية التي يقوم بها زوجها المشهور مع الأخرى – المشهورة أيضاً – تتيح لهما تواجداً قريباً وعلاقة حميمة لفترات طويلة . إلى حين انتهاء هذا العمل .. فيتقاسمان معاً الطعام والشراب والسفر .. وتتعرف منه على أجمل ما فيه وهو كذلك أيضاً .. وقد يحدث بينهما ما تخشاه زوجته أو زوجها . فيعود أو تعود إلى بيتها وقد ملأت المقارنة عقلها وملأ الرفض قلبها .. فتسعى أو يسعى إلى الانفصال وطلب الطلاق .!!

وهكذا نرى أنه كلما كان الرجل مشهوراً كلما توترت علاقته بامرأته .. وكلما كانت هي مشهورة أيضاً كلما ازداد هذا التوتر بينهما .. إلى أن ينتهي الأمر بينهما إلى أبغض الحلال إن آجلاً أو عاجلاً ..

فهل – أختي المطلقة – كان زوجك مشهوراً في عمله أو وظيفته أو علاقاته .؟؟ فالشهرة ليست بالضرورة مرتبطة بالعمل في المجال الفني .. وهل كانت شهرته والتفاف المعجبات حوله سبباً مباشراً في طلبك الطلاق .؟؟ وهل أنت الآن أسعد حالاً .. أم نادمة على ما طلبت منه يوماً . وتتمنين لو أنك عدت إليه وقبلت راضية ضريبة اقترانك .. من رجل مشهور؟

****

عندما بدأت ملامح أنوثتي ترتسم فوق جسدي وتفرض نفسها على العيون التي تراني .. منعني والدي من الذهاب إلى المدرسة ، وكنت لم أبلغ الثالثة عشرة بعد .. حقاً لقد حزنت كثيراً لمفارقة صديقاتي ومعلماتي وافتقدت صحبتهن .. وحزنت أكثر لمفارقة سائق سيارتنا الذي كان يقول لي في كل مرة يوصلني فيها إلى المدرسة : " أنا اليوم اللي أشوف فيه وشك الصبح يبقى يوم نادي ونهار سعيد " .!! لكن ما باليد حيلة .. فقد اعتدت من يومها على التواجد بالمنزل ، ومساعدة أمي في أعمال البيت ، ومصاحبتها في الزيارات العائلية .. ونسيت أنني كنت تلميذة يوما .!!

بدأ العرسان يعرفون الطريق إلى منزلنا مبكراً .. منهم من كان من أقربائنا ، ومنهم من كان غريباً عن العائلة .. وفي كل مرة كنت – على حداثة سني – أجد طريقة للهروب من سؤال أبي التقليدي : ما رأيك ؟ .. كنت أتعلل مرة بأن شكله لا يعجبني ، ومرة أنني لازلت صغيرة ، ومرة أن مظهره رث ، ومرة أن أمه متسلطة .. حتى ضاق بي أبي ذات مرة على سعة صدره .. وانفجر في وجهي ووجه أمي ، واتهمها بأنها تدللني إلى الحد الذي أفسدني ولا يجعلني صالحة للزواج أو قادرة على إعمار بيت وإسعاد رجل .!!

أول عريس طرق الباب بعد هذه الثورة العارمة من أبي ، كان تاجراً كبيراً من بلدة قريبة جاءت به إلينا إحدى قريباتنا .. يمتلك عدداً من المتاجر في مدينتنا وعدداً أخر في مدينته .. كان ظاهر البدانة .. يكبرني بسنوات لا يمكن تجاهل أثرها على ملامحه .. لكن أبي وافق على الفور ، ودون أن يسألني سؤاله التقليدي : ما رأيك .!!

كان لأخوتي وأمي دور كبير في إقناعي بالموافقة على الزواج منه ، رغم نفوري الشديد من مظهره وغيظي من تجاهل أبي لرأيي .. لكن دموع أمي أمامي حسمت الأمر لصالح الموافقة .. وخلال أسبوعين فقط كان كل شيء

قد تم إعداده .. وانتقلت إلى بيت زوجي الذي تعيش فيه أمه العجوز وأخته الأرملة وابنها الطالب الجامعي ..

مع مرور الشهور ، اكتشفت خيبة الأمل في ذلك الزوج واسع الثراء ضيق العقل والخلق .. حيث كان لا يبت في أمر من أمور حياته أو تجارته ، إلا بعد أخذ رأي أمه شديدة التسلط .. البخيلة إلى أبعد حد .. يأخذ رأيها حتى في أبسط الأشياء المنزلية ، حتى نوع الطعام الذي سنأكله على الغداء لابد من اختيارها وموافقتها .. لا خروج ولا استقبال ضيوف إلا إذا وافقت ، وبعد أن تعرف ظروف ابنتها الأرملة التي تصاحبنا في كل زياراتنا أو خروجنا ولو إلى الطبيب .. ملابسي وتسريحة شعري والهدية التي سأحملها إلى من سنذهب لمجاملته .. وفيما بعد ، اسم المولود وملابسه وطريقة تربيته .. كل ذلك لابد أن تكون لها الكلمة الأولى والأخيرة فيها ، هي وابنتها الأرملة .. والأهم أنها كانت تعتبر نفسها هي وابنتها جهابذة في كل شيء .. الطبخ والموضة والرأي والذوق والسياسة والعلاقات الاجتماعية .. حتى أنني كنت أقدم الطعام الذي أعده على المائدة ، ثم أتعلل بعدم رغبتي في الأكل حتى لا أستمع إلى قائمة الانتقادات للأكل .. ملحه ، نضجه ، لونه ، طعمه ، الخ ..

في كل مرة كنت أتحسس الكلمات وأنا أحاول التلميح لزوجي بضيقي مما يفعلا معي ، كان يثور ثورة عارمة .. ويتهمني بالغباء وعدم القدرة على التعلم من أمه وأخته رغم السنوات التي مرت وأنا معهم في بيتهم .. ثم الختام المعتاد بأنني لم أتعلم شيئاً في بيت أهلي ، وأنه قد أخذني طفلة وأوكل أمر تربيتي إلى أمه وأخته ليربياني كما ربيانه على كل شيء صحيح .. فأنا في نظره لم أتعلم في بيت أهلي إلا العناد والمجادلة .. فقط .. العناد والمجادلة ..!!

سنوات قلائل مرت أنجبت فيها ثلاث أطفال .. وتكاثرت فيها على زوجي الأمراض . بسبب بدانته وقلة حركته ونهمه الشديد لالتهام الطعام الدسم الذي تعده له أمه وأخته .. ارتفع ضغطه وازداد معدل السكر وتضخم الكبد . ولم يعد قادراً على أي شيء معي .. أي شيء .. مما زاده انفعالاً وثورة فوق طبعه العصبي أصلاً .. وقد حاولت أن أكون إلى جانبه في محنة مرضه .. إلا أن وجودهما المكثف . وملازمتهما له طوال الوقت لم يمنحني الفرصة . بل وكان يفسد علي أية محاولة لإثبات أصلي وحسن تبعلي في وقت شدته .. فاضطررت أن أنزوي في حجرتي كالمنبوذة . فبدا وكأنني شامتة أنتظر يوم موته .!! فلما ضاق بي هذا الإحساس الخانق . طلبت منه أن أغادر إلى بيت أهلي إلى أن يمن الله عليه بالشفاء . طالما أن وجودي في مرضه لا لزوم له .. وأنهما – أمه وأخته – يقومان بكل شيء على أكمل وجه . ولا يريداني أن أشاركهما أي شيء .!!

انتظرت أياماً في بيت أبي – رحمه الله – وأنا أتوقع بين ساعة وأخرى . أن يأتي كي يطلب مني العودة إلى بيته لأنه يفتقدني .. لكن الرسول جاءني بما لم أكن أتوقع .. نعم لم أكن أتوقع وأنا أم لثلاثة من أبنائه من صلبه والمفترض ألا يقوى – كأب – أن يتحمل ابتعاده عنهم .. جاءني الرسول بورقة طلاقي .. وعرفت من فوري من الذي دفعه إلى طلاقي .!!!

قبل مرور عام .. كان أب أبنائي قد انتقل إلى رحمة الله .. وآلت كل ثروته -إلا القليل الذي نجحت أمه وأخته في الفوز به بأوراق مزورة – إلى أبنائي .. وتسلمت عدداً من المتاجر . واضطررت للنزول إلى العمل كي أدير ممتلكات أبنائي في مدينتنا وفي مدينة زوجي .. وبعد شهور من المعاناة والإحساس بقرب الفشل لأنني لا أفهم في أمور التجارة ولم يشركني زوجي يوماً فيها . جاءني ابن شقيقته – الذي كان طالباً جامعياً منذ سنوات – وعرض عليّ أن

يساعدني في إدارة أعمالي .. كان قد تخرج وعمل مدرساً للتربية الرياضية وهو يكبرني بست سنوات .. وافقت على عرضه هرباً من تلك المسئولية التي لم أكن أحتملها أو التي كنت أخشى الفشل في تحملها .. وبدأ هو في المواظبة على الحضور إلى بيتي وإبلاغي بكل كبيرة وصغيرة في العمل .. ومداعبة أبنائي ومساعدتهم في مذاكرتهم وشراء متطلباتهم وسداد فواتير التليفون والغاز والكهرباء ، وشراء ما يتطلبه بيتي من طعام وخلافه ..

رغم المودة التي نشأت بيننا إلى حد كبير ، إلا أن طلبه الزواج مني كان مفاجأة .. واعتقدت للوهلة الأولى أن هذا الطلب قد تم بتحريض من أمه وجدته ، حتى يجرداني من المال الذي يعتقدان أنه مال ابنهما الراحل .. لكنني رغم كل تلك الهواجس ، قبلت بالزواج منه بعد تفكير قليل .. فقد افترضت الظن الحسن فيه ، خصوصاً أنه ذكرني بأنه كان يظهر تعاطفاً شديداً معي عندما كنت زوجة لخاله في بيت جدته ، وكان يواسيني بأدب شديد كلما أهانتني أمه أو جدته ..

ومرت الأيام بعد زواجي منه ، وبدأت أطماعه الحقيقية في ثروة أبنائي تظهر بوضوح .. رغم أنني لم أبخل عليه بكل ما كان يطلبه لنفسه من مال.. فتارة كان يطلب مبلغاً لافتتاح مشروع خاص به كان يحلم به منذ طفولته .. وتارة يطلب عقد بيع شقة من أملاكي ليفتتح بها داراً لتعليم فنون الرياضة التي كان بطلاً فيها منذ أيام الجامعة .. وغير ذلك كثير .. إلى أن بلغ الأمر حد أنه لم يعد يمنحني حقوقي كزوجة ، إلا بعد أن يجعلني أدفع الثمن بشكل أو بآخر ..!!!

بعد خمس سنوات من الزواج لم يشبع فيها ابتزازاً وطمعاً ولم أتأخر مرة عن تلبية مطالبه ولم أتفوه مرة في وجهه بكلمة واحدة .. وجدتني أثور عليه

ذات ليلة فجأة ثورة فظيعة وأصفه بأبشع الصفات .. فما كان منه إلا أن ضربني علقة ساخنة ، حمل جسدي آثارها لشهور تلت بعد ذلك ..

أقمت في المحاكم دعوى تطليق .. واستطاع المحامي اثبات الضرر الشديد الذي لحق بي .. وحكمت المحكمة بتطليقي ..

وأنا الآن مطلقة للمرة الثانية .. فهل هناك من يرى أنني أخطأت أو تسببت في فشل الزيجتين .؟؟ هل كان لي دور في الاختيار أصلاً .؟؟ هل بيدي هدمت العش فوق رأسي بطمعي أو بتمردي .. أم أنني واحدة من ضحايا الرجال .. غير الأعزاء .؟؟

****

مادام الطلاق هو حكم يصدره الرجل على المرأة ، ليس أمامه إلا درجتين من التقاضي ، هما الطلاق الثاني والطلاق البائن .. إذن فهو يشبه تماماً ذلك الحكم الذي يصدره القاضي بمحكمة أول درجة ، والذي ليس أمامه إلا الاستئناف ، والنقض .. ثم يصبح حكماً نهائياً .!!

لقد كان من المنطقي والشبه هكذا .. أن يصدر الرجل حكم الطلاق هذا ، أيضاً مع وقف التنفيذ ، مثل تلك الأحكام التى يصدرها القاضي في المحكمة بالسجن مع وقف التنفيذ ..

فالحكم بالطلاق مع وقف التنفيذ ، يعني أنه عندما يقرر الرجل في نفسه أن يطلق المرأة ، فإنه يرجى إبلاغها القرار إلى حين يواتي الظرف المناسب .. والظرف المناسب هنا عند أهل النيات الحسنة ، هو توفر الرصيد المادي الذي يسمح بالوفاء بحقوقها ، بينما هو عند ذوى النيات السيئة انتظار وقوعها في مأزق أو صدور سلوك شاذ منها أو إصابتها بمرض أو غير ذلك ، ساعتها يمكن أن يبلغها الحكم المدعوم بتأييد الآخرين من حوله .!!

لا توجد امرأة لا تملك ما يسمونه بـ " قرون الاستشعار العاطفية " التى تحس بكل صغيرة وكبيرة في نفس زوجها إن كان شخصاً سوياً .. وأظن أن المرأة التى يصدر ضدها مثل هذا الحكم . تتعامل في الغالب مع زوجها على أنها " خارج التشكيل " طوال الوقت . وتتصرف معه بلؤم ومكر وتجاهل وتغابى . لأنها أدركت بحاستها أنه رجلها .. مع وقف التنفيذ .!!

لسنا في معرض الحديث عن الأبناء في مثل هذه الظروف . ودعونا نذكر لكم تلك الواقعة الطريفة التى تحمل رغم كلماتها القليلة معانٍ تملأ كتباً (واحد ضم قبضة إيده وفرد السبابة وعمل إنه بيضرب واحد تانى بالمسدس وقال طاخ .. فالتانى عمل إنه ميت وقال آه) .!! فالرجل الذي خبأ في نفسه قرار الطلاق . منتظراً الفرصة المناسبة .. ربما لا يعرف أن امرأته قد أدركت ذلك . وبالتأكيد لا يعرف أنها قد تتصرف على إنه ليس زوجها . وهنا تحدث الطامة الكبرى عندما تلقى بنفسها في أحضان رجل آخر (وتقنع نفسها بالتبرير المنطقي الذي تخفيه) . وربما تقرر أن تقتله قبل أن تواتيه الظروف المناسبة لإعلان الطلاق (ولديها مبرراتها) .!!

ملحوظة : المصيبة أن يجتمع السببين السابقين معاً . فتتفق مع عشيقها لقتله .!!

أية حياة هذه التى لا يمكن أن يعيشها الرجل بأمان في بيته مع امرأة أضمر الغدر بها فأضمرت له الغدر المقابل .؟؟ من منكم يستطيع أن يستخرج من العبارة الأخيرة المعنيين الأصيلين في الزواج . السكن .. والرحمة .؟؟

أنا لا أفهم إلا أن يكون زواجاً كاملاً أو طلاقاً كاملاً .. بل لعلى أفضل أن يطلق رجل امرأته ويعلنها بذلك إذا قرر في نفسه . حتى لو تشردت من بعده

.. على أن تبقى في كنفه قنبلة موقوتة هو يريد أن يفجرها بعيداً عنه وهي تخطط لتفجرها في وجهه .!!

إن الذي يفعله بعض الرجال في هذا الشأن ليس ذكاءً كما يعتقدون ، بل هو قمة الغباء وعدم الفهم للمرأة .!! فالمرأة تنشأ في مجتمعنا العربي خائفة من شيء ما ، وعندما تأمن في ظل رجل أمين .. فأنها تعطى نعيماً بلا حدود ، وعندما يضيف الرجل الغبي إليها خوفاً على خوفها بمثل هذه القرارات " السرية " وتدرك هي ذلك .. فإنها تعطي له جحيماً بلا حدود ، وساعتها لا يلومن الرجل إلا نفسه .. حيث البادي .. أظلم .!!

****

لقد نشأ الرجل في المجتمعات الشرقية منذ القدم على أن يفضح امرأته في حالة حدوث تقصير " أنثوي " منها ، أو ظهور عيب " نسائي " فيها ، يفضحها أمام نفسها وأمام أهلها .. بينما نشأت المرأة في المجتمعات ذاتها على أن تظل طوال السنوات الأولى من زواجها مرتدية برقع الحياء أمام زوجها .. فلا تملك أن تلمح بأية ملاحظة من شأنها أن تنتقص من رجولته أو كفاءته .. لا أمامه ولا أمام أهلها .!!

فلما خرجت المرأة وتعلمت وعملت ، انهارت أمامها أستار كثيرة كانت تحول بينها وبين انتزاع حقوقها من مجتمعها الرجالي شبه الظالم .. لكن برقع الحياء ظل كما هو ، ولم تستطع نجاحات المرأة وتحقق طموحاتها أن تزيل منه طبقة واحدة .. ويبدو أن استمساك المرأة بحيائها في مثل تلك الأمور هو أمر فطري لا مناص من ارتباط الأنوثة به في كل زمان ومكان ، وبغض النظر عن مكانة صاحبته .. أميرة أو حقيرة .!!

ولو أن طبقة واحدة على الأقل ، أزيلت من طبقات هذا البرقع .. وأطلعتنا على ما تعانيه المرأة منذ بداية علاقتها برجلها ، لربما اختصرنا من عمر

شقاء المرأة الشرقية الشيء الكثير .. ولكن كيف السبيل .؟ وما هي الطريقة التي يمكن أن تحفظ للمرأة حياءها قبل أن تحفظ لها حقوقها .؟؟

قالت لي إحداهن وهي تذرف دمعاً ساخناً : لم أستطع أن أحكي شيئاً لأحد عما عانيته في علاقتي الخاصة به حتى لا أخدش حيائي .. واكتفيت فقط بطلب الطلاق دون ذكر أسباب .. حتى أن أبي اتهمني بالبطر على النعمة . بينما اتهمتني أمي بأن في حياتي سر لا أريد أن أبوح به .. ناهيك عن تلميح القريبات والبعيدات بأن هناك – لابد – علاقة مشبوهة بيني وبين رجل آخر . اجتهدت كل واحدة منهن في أن تستنتج أسمه ..!!

وذكر لي أحد المحامين من أصدقائي أن إحدى موكلاته . طلبت منه أن يطلب من القاضي أن تكون الجلسة سرية . لأنها تريد أن تفصح للقاضي عن شيء ما .. غير أنها في يوم الجلسة لم تحضر ولم تعتذر .. وعندما اتصل بها بعد الجلسة . أخبرته أنها لم تستطع الحضور بعد أن قضت ليلتها كاملة متيقظة . تفكر فيما ينبغي أن تقول . وما ينبغي أن تصمت عنه .!!

لتظل القضية قائمة .. وتظل المرأة الشرقية مكبلة ببرقع حيائها رغم الجمال الذي يخلعه عليها هذا الحياء .. ويظل الرجل الغبي أعجز من أن يقرأ ما وراء طبقات البرقع . إلى أن يصيب امرأته بالعجز عن مواصلة رحلة الحياة معه .. وساعتها سوف يكون " الحياء " بعيداً عنه .. أفضل كثيراً من " الحياة " معه ..!!

****

ينبغي أن نقر ونعترف بكل شجاعة . أننا نتعامل مع كل حكايات الطلاق التي نعرفها بميزان واحد لا نحيد عنه : رجل يطلق امرأته فيظلمها .. بدلاً من أن يظلم نفسه ببقائها على ذمته .!!

غير أننا وللحق ، يجب أن نقر الآن أن حكايات الطلاق ينبغي أن تناقش من وجهة نظر جديدة مختلفة ، لا تتخذ من هذا الميزان الواحد سبيلاً أوحد للحكم عليها ، وعلى مدى خطأ وخطيئة أصحابها .!!

لقد اكتشفنا أن كثيراً من الرجال يطلقون زوجاتهم ، لأسباب أخرى غير الحرص على عدم ظلم أنفسهم .!! كما اكتشفنا أيضاً أن كثيراً من النساء لا يظلمهن الرجال فقط بالطلاق ، بل يقتلوهن .!! وعليه فقد وجدنا أنه لابد من التخلي عن فكرة التعامل مع قضايا الطلاق جميعها على أنها محض خطايا رجال ومجرد ظلم نساء .. بل التعامل مع بعضها - إن لم يكن أغلبها - على أنها جرائم رجالية تستحق العقوبة .!!

فهذا رجل يطلق امرأته من أجل امرأة أخرى يتزوجها لنزوة .. أو حتى لعلاقة حب لا يستطيع أن ينفلت منها .. دونما نظر إلى أبناء ، والى وضع اجتماعي للأسرة ، والى امرأة رتبت أمورها على أنها زوجة محترمة تعيش في بيت تملك كله أو جله .. فإذا بها تتلقى الحكم الظالم بتشريدها وإكراهها على هجر أبنائها ، والعودة من جديد إلى التسكع أمام بيوت أهلها ، التي لم تعد مهيأة لاستقبالها أكثر من ضيفة لساعات ترحل بعدها .. فقد باع الورثة بيت العائلة واقتسموا ثمنه .. وأصبح الملجأ الوحيد لها هو بيوت الأخوة والأخوات ، الذين لديهم أبناء وبنات ، وليسوا مستعدين لتغيير نمط حياتهم من أجل عيون أخت لهم ، كانت منذ قليل صاحبة بيت وأصبحت الآن بلا مأوى .!!

وكل هذه المذلة من أجل ماذا .؟؟ من أجل نزوة ارتآها رجلها ورفض أن يضحي بها من أجلها ومن أجل أسرته .. مثلما ضحت هي بالتأكيد بمئات النزوات والإغراءات من أجله ، ومن أجل بيته وأولاده .!!

ليست إذن كل حالات الطلاق هي حالات رجال زادت معاناتهم من زوجاتهم . فاستخدموا حقاً مشروعاً لهم .. إنه بكل حياد شطط شديد في استخدام هذا الحق . وعسف جائر في تطبيقه .! إنه محض استخدام لحق . دون اتخاذ كافة التدابير الواجبة للحيلولة دون الوصول إلى لحظة استخدام هذا الحق .!! انه فعل يستحق العقاب ويستأهل التجريم .!!

إن من يهمل في ابنه فيتسبب بإهماله في أذى يلحق به - حتى لو كان هذا الإهمال غير عمدي وغير مقصود - يخضع للقانون . ويقع تحت طائلة عقابه .. فكيف لا يكون الرجل الذي يهمل في زوجته ويتسبب بإهماله هذا في إلحاق الأذى بها - وبشكل عمدي وليس عرضي - عرضة لطائلة القانون وعقابه .!؟

ومن يقصر في حق ابنته فتنجرف في تيار الرذيلة . بسبب تقاعسه عن تربيتها ومتابعتها وتهيئة كل الظروف لها كي تنشأ دون انحراف أو اعوجاج .. يطاله القانون بعقابه .. فكيف للمرأة - التي هي شرفه وعرضه - إذا ما أهملها وانصرف إلى نزواته .. ثم أكمل مصيبته بأن اختار أن يطلقها ويشردها .؟؟ ألا يستحق الأمر قليلاً من إعادة النظر في هذا الجرم . ولفت نظر المشرع إلى خطورته على المرأة . وعلى الأبناء وعلى المجتمع .. فيستحدث مادة في قانون الأحوال الشخصية تجرم هذا الفعل وتقر عقاباً عليه .؟؟أليست الزوجة كالابن والابنة .. أم أن الأمر في الحالين يختلف .؟

لقد آن الأوان لهذا المجتمع أن يضع قيوداً على هذا الحق الذي استمرأ الكثيرون من أشباه الرجال إساءة استخدامه بسبب ودون سبب .. واعتاد البعض أن يعتبره حقاً لا تقابله واجبات عليه أن يقوم بها . قبل أن يشرع في استخدامه ..!!

لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته " صدق رسول الله .. والرجل بالتأكيد مسئول عن امرأته مسؤولية كاملة .. فكيف لا يحاسب من قصر في مسؤوليته ، مهما كان السبب الذي يطرحه كمبرر لتقصيره وإهماله .؟؟ وكيف لم يصبر هذا الرجل على واحد من رعيته إلى أن يعود إلى جادة الصواب . قبل أن يصدر عليه حكماً بالإعدام هو وأتباعه من الأطفال الذين لا ذنب لهم .؟؟

الحديث الشريف يصف الرجل بالمسئول .. وحدوث الطلاق منه لأسباب تافهة تستند إلى نزوات شخصية يعني أنه ليس أهلاً للمسئولية .. وعليه ينبغي عقابه على تخاذله عن مسؤولياته في ساحة المعركة ، مما تسبب في هزيمة نكراء لكل أفراد كتيبته .. وقد شهد هزيمته بكل أسف قطاع كبير من المتفرجين ، فكانت هزيمة مصحوبة بفضيحة .!!

فهل تجد تلك الدعوة صداها عند أهل الحل والربط من مشرعي قوانينا الوضعية .. لتكون سنة حسنة ، لهم أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين .؟!

****

علماء النفس وأطباؤه يسمون فقدان الذاكرة المؤقت " أمينيزيا ".. ويعرفونها بأنها حالة من العطب تصيب منطقة ذاكراتية من المخ ، فينسى المريض معها وقائع وأحداث مرحلة عمرية معينة من تاريخه العمري .. قد تكون مرحلة طفولته ، وقد تكون مرحلة شبابه ، وقد تكون آخر مراحل عاشها من عمره .. والأخيرة هي الأغلب في معظم حالات الأمينيزيا .!!

فأنت تجد حالة مرضية تأتيك ليبلغك أهلها أنه صحا فجأة – أو تعرض لحادث – فوجد أنه لا يعرف أحداً منا .. لا زوجته ولا أبناءه وأمه ولا أخوته ولا جيرانه أو أصدقاؤه .. بينما هو يتذكر جيداً اسمه ويتذكر أحداث طفولته

ومكان سكنه القديم وغير ذلك من مفردات الذاكرة بعيدة المدى عمرياً .. وبالطبع فإن العامة يلفهم الاستغراب من هذه الذاكرة الانتقائية التي تنسى وتتذكر على هواها .. ويميلون في الغالب إلى الإعلان عن شكوكهم في أن في الأمر سر ما .. وتكتشف أنهم ما جاءوك لتعالج مريضهم ، بقدر ما جاؤوا لتفك لهم هذا الطلسم ، وتختص أحدهم بهذا السر الذي جعل صاحبنا ينسى زوجته بينما يتذكر طفولته .!؟

الرجل الذي يطلق امرأته ، هو شخص من هذا النوع المصاب بحالة أمينيزيا اختيارية ، ولا هم لزوجته إلا البحث عن سر تغيره معها بين عشية وضحاها .. ولماذا " اختار " أن ينسى وقائع أواخر أيامه التي عاشها ، ومسحها من الذاكرة مسحاً ، ليبرر لنفسه ما ينتوي فعله في الأيام القادمة .. بعدما ينتهي من طلاق امرأته .!!

فإذا ما اخترت أن تكون وسيطاً بين هذا الرجل وامرأته ، لتثنيه عن الطلاق الذي قرره .. فليس أمامك أولاً إلا أن تذكره بأيامه الحلوة معها .. ليجيبك هو دون تفكير : لم أر معها يوم واحد حلو .!! وإذا ما تركت تلك النقطة لتحكي معه عن تلك التي شاركت معه الحياة وصنعت معه ما هو فيه وعليه من نعمة .. فاجأك بقوله : لم تيسر لي أمر شيء فيما صنعت ، بل كانت معوقة في الأغلب .. ولولاها لحققت أضعاف ما أنا عليه من نجاح ونعمة .!! وإذا ما ذكرته بموقفه وموقف زوجته وأبنائه أمام أهله وجيرانه كمطلقة وأبناء مطلقة .. أذهلك أنه لا يعنيه هذا الذي تقول ، لأنه قرر أن يغادر البلد التي تقيم فيها بحالها ، وأنه سينسى جيرانه وأهله وأهلها ، وسيمسح تلك المرحلة نهائياً من تاريخه .!!

إن لم تكن تلك حالة أمينيزيا " اختيارية " .. فبماذا نسميها .؟؟ وإن كنا لا نضمن أن تعود ذاكرة مريض الأمينيزيا الحقيقي الذي فقدها دون وعي في أي

وقت ، فيسترد عافية ذاكرته ويتعرف إلى محيطيه .. فكيف نضمن عودة الذاكرة إلى هذا الرجل " المطلق " ، الذي اختار فقدانها بوعي تام .؟!

****

يعرف الناس الكثير عن طلاق الغاضب وطلاق المضطر والطلاق الرجعي والطلاق البائن بينونة صغرى وكبرى ، والطلاق المعلق والطلاق البدعي وغيرها .. ومع كل ذلك يظل الطلاق هو من أبغض الحلال عند الله .. وبالطبع فإن ما يبغضه الله لا ينبغي أن يأتيه عباد الله إلا مضطرين .. وعليه فقد كان حذر الفقهاء شديداً وهم يفتون للناس في أمر الطلاق - الحلال - خشية أن يقعوا في محظور فيوقعوا الناس معهم فى سنة سيئة يكون عليهم - الفقهاء - وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم الدين .!!

أما الخلع .. فبالرغم من أن ذكره لم يرد في نص واحد من نصوص القرآن الكريم .. وبالرغم من أنه ليس له دليل في السنة الكريمة ،إلا في حديث واحد عن المرأة التي أمرها الرسول أن ترد الحديقة التي أمهرها بها زوجها ثم أمره هو أن يطلقها تطليقة .. فقد انطلق الناس في الآونة الأخيرة ودون فتوى مؤتمنة في الاستمساك بأمر الخلع دون قيود أو شروط أو محاذير أو تحفظات ، اللهم إلا أن تعلن المرأة أنها لا تطيق العيش مع زوجها .. رغم أنها قد تكون متجنية ، وقد تكون مغرضة ، وقد تكون مبيتة النية على زواجها من آخر بعد أن تتخلص من زوجها الأول .. أقول بأن الناس قد انطلقوا نحو هذا الخلع وأقاموا له القوانين وقضوا به في المحاكم ، دون أن يخشوا - مجرد خشية - أن تكون بدعة مستحدثة بنيت على حالة واحدة حدثت في صدر الإسلام ولها ظروفها .. ودون أن يضعوا لها محاذيرها التي تحول دون سوء استخدامها والعمل بها .!!

أقول ذلك بعد وقوفي على ثمانية عشرة ألف حالة خلع منذ ظهور القانون تقدمت بها صاحباتها إلى المحاكم حتى الآن .. وينتظر أن يقضي القضاء بتلبية رغباتهن طالما أنهن يقلن " نحن لا نطيق معاشرة رجالنا " ..!!

ألم يمر بخاطر هؤلاء . أن الخلع - قياساً على الطلاق - هو أيضاً أبغض الحلال عند الله .. بل ربما هو أبغض من أبغضه .؟؟ ألا يدفعنا ذلك إلى التريث في القضاء به بين الأزواج . إلا بعد أن نتيقن أنه الملاذ الأخير للمرأة المقهورة من ظلم الرجل المتعسف .؟؟

لقد رأيت بعيني رأسي زوجة تزوجها زوجها وهي تتكفف قوت يومها هي وأسرتها . فأحسن معاشرتها وأكرمها وساعدها في الحصول على شهادة . ثم خرجت إلى العمل سكرتيرة في شركة خاصة . فأعجب بها صاحب الشركة واتفق معها على الزواج منها إن هي خلعت زوجها .. وفعلت المرأة .. وهي الآن في طريقها إلى إتمام مخططها الذي ستعض عليه أصابع الندم يوماً ما .!!

وسمعت - بأذني رأسي - عن نسوة اعتبرن حياتهن مع أزواجهن مرحلة من مراحل طموحهن . وقررن ذات صباح أن ينتقلن إلى مرحلة أخرى في صحبة رجال آخرين . ووجدن في دعاوى الخلع مفازاً .. وهن الآن يرتعن في ساحة طموحهن . لكن دوام الحال من المحال .. فقد قيل لي أن زوج إحداهن " المخلوع " يدعو على زوجته ليل نهار بعد أن تركت له طفلاً وحملت معها طفلة . فشتتت حياته وأقضت مضجعه .. وهي لا تدري أنها بظلمها له قد فتحت على نفسها نار جهنم كما يقول الشاعر :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً // فالظلم ترجع عواقبه إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه // يدعو عليك وعين الله لم تنم

إن الشطط القانوني في مجال العلاقات الزوجية والذي يمارس الآن على نطاق واسع استناداً إلى دعم مجتمعي جاهل أو مغرض وتفسير فقهي متطرف . لهو أكثر خطراً على المجتمع من ارتكاب بعض الموبقات .. فقد يرتكب الفرد جرماً يجني وحده جزاءه ويعاقر بمفرده عواقبه . أما ارتكاب أبغض أبغض الحلال - أعني الخلع - دون قيد أو شرط . فإن أثره يمتد إلى زوج وأبناء . وأسرة أخرى ستخطف الزوجة منها عائلها . ومجتمع سوف يشيع فيه التفكك والغدر والاخلال .!!

وليت الخلع كان رجعياً - كالطلاق - تعيد فيه المرأة التفكير في الأمر . وتراجع نفسها علها تثوب إلى رشدها فتعود إلى زوجها وبيتها .. لكن الطامة أنه بائن . رغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال للرجل : " وأنت .. خذ منها الحديقة وطلقها تطليقة " . وأنا أفهم من قول الرسول الكريم هذا أنها تطليقة واحدة . ينبغي أن نجمعها على سوابقها إن كان قد طلقها زوجها من قبل .. فإن لم تكمل الثلاث جاز لها أن تراجعه . وإن لم تفعل فلا تتزوج من غيره إلا بعدما تنقضي عدتها ..!!

اللهم لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ..آمين ..!!

****

إذا كانت المرأة المطلقة مظلومة حقاً .. وكان رجلها ظالم بكل المقاييس .. وكانت لم تترك شيئاً تحسن به معاشرته إلا وفعلته لكنه افترى عليها وحرمها من أن يكون لها بيت وأسرة وطلقها وراح ليتزوج غيرها . وإذا كان كل من حول المرأة يشهد بأنها كانت معه كالملاك . ولم تفعل ما يغضبه لكنه هو الذي تغير عليها فجأة ربما بسبب امرأة أخرى .. أقول لو أن الأمر هكذا .. فإن التساؤل البريء الذي يطرح نفسه هو : ولماذا ينجح هذا الرجل الظالم في زواجه الثاني في الأغلب . بينما تبقى الزوجة المطلقة المظلومة في

حالة انتظار دائم لمن يأتيها ، وقد يطول هذا الانتظار فتكتفي من سعادتها في الدنيا بهذا القدر اليسير .. بينما ظالمها ينهل من أنهار السعادة ، إلى ما لانهاية .؟؟

هذا السؤال ليس " ظالماً " كما يبدو من ظاهره .. لكنه محاولة جادة لفهم أمر أريد أن الله سبحانه وتعالى أسمه العدل .. وهو جل جلاله لا يرضى الظلم .. وإن ترك حالة ظلم على ظلمها فلأجل قريب .. فالحديث القدسي عن دعوة المظلوم وصاحبها " وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين".. وعليه فإن حال المرأة التي ظلمها زوجها ثم طلقها ، كان ينبغي ألا يدوم دون نصر قريب من الله .. هذا إذا لم ينتقم الإله الجبار من هذا الرجل الذي ظلمها .!! فإذا ما حدث غير ذلك ، واقترن الظالم من غيرها فأسعدته ، وتناقل خبر سعادتهما القاصي والداني ، بينما ضجر الحائط من فرط استناد رأس المظلومة إليه في بيت أبيها .. فهل لديكن أدنى رغبة في التفكير في أن الأمر ربما لم يكن حالة ظلم للمرأة من الرجل .. وأنه على العكس ، ربما كان الرجل هو المظلوم .. وأن المرأة قد ظلمته .. وأنها تستحق ما هي فيه .؟؟

أنا بالطبع لا أقصد الإساءة إلى أحد من النساء المطلقات .. لكنني أتساءل عن الكيفية التي ينبغي أن نمارسها في التفكير عندما تأتي النتائج على عكس المفترض في ناموس الكون .. هل ينبغي عندئذ أن نتهم الكون بالجور ، أم ينبغي أن نتهم أنفسنا بإمالة ميزان العدل لصالحنا ، بينما نحن الجائرون .!!

قالت لي يوم أن طلقها زوجها : إن شاء الله فلان ابن فلانة ها تكون نهايته سوده .. وربنا هايبتليه بزوجة هاتخلص منه كل اللي عمله فيا .. ربنا هاينتقم منه بقدر ما ظلمني وافترى عليا .. وأنا هايديني على قدر نيتي وعلى قدر اللي عملته معه بإخلاص .!!

وقلت لها بعد أربع سنوات عندما التقيتها : لقد تزوج الرجل ، وهو الآن يرفل في السعادة مع زوجته ، وأنت بعد لا تزالين في بيت أبيك .. ألا يدعوك هذا إلى إعادة النظر في أمر ما كان بينكما : هل كان هو الظالم أم أنت .؟؟ فنظرت إلى الأرض منكسرة وهي تقول : كل واحد بياخد نصيبه يا أستاذ .!!

أنا أحكي هذا متعمداً المبالغة في التصوير .. لألفت نظر السيدات المبجلات في البيوت ، أن ينتبهن إلى أن تقديرهن لظلم أزواجهن لهن قد يكون نسبياً .. أو قد يكون وجهة نظر أحادية الجانب ليس فيها من الحقيقة شيء .. وأن استمرار العزف على وتر الظلم هذا ، ربما هو الذي يظلم الرجل ويوجب له النصرة من الله على من ظلمه وراح يدعي أنه مظلوم ، بينما هو ظالم .!!

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } صدق الله العظيم .

إن الظلم الحقيقي هو ظلم الإنسان لنفسه عندما يتمرد على ما هو فيه من نعمة قد يشوبها بعض التنغيص ، لكن هذا لا يبرر إنكارها بالمرة .. فالشاعر يقول :

إذا كنت في نعمة فارعاها // فإن المعاصي تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله // فإن الإله سريع النقم

الظلم الحقيقي هو المبالغة في تقييم الدور الذي نلعبه في حياة الآخرين ، مع بخس الدور الذي يلعبونه هم في حياتنا .. فهذا هو عين الظلم للآخر الذي يحتاج وبشدة لمن يثمن دوره ولو كان قليلاً أو هامشياً .. وهذا أيضاً هو ما يجعله يهرع إلى أحضان غيرنا عندما يجد منهم بوادر تقدير لذاته ولدوره ، ويجعله يهرب من حياتنا التي صنعها معنا كي تبقى ويبقى فيها .. لكننا آثرنا أن نظلمه .. فظلمنا أنفسنا .

والسؤال الآن لكل زوجة : هل أنت في حياتك مع زوجك .. ظالمة أم مظلومة .؟؟ فإذا كانت إجابتك هي الثانية .. فسارعي إلى إعادة النظر في رأيك .. فقد تغيرينه . وساعتها قد تنصلح أمور كثيرة في بيتك .. وفي حياتك.. وفي نفسك .!!

****

الأرقام المخيفة لعدد المطلقات في مصر تفتح الباب على مصراعيه أمام كل التوقعات المتشائمة التي يمكن أن تجهض كل الأفكار والمقترحات والحلول . التي يمكن أن تعود بالأسرة إلى سابق عهدها من الاستقرار والسكينة .!!

أول تلك الأرقام المخيفة .. أن عدد المطلقات في مصر وطبقاً لتلك الإحصاءات الموثقة قد بلغ مليون وربع مطلقة .!! وهذا الرقم بالطبع يخلو من تلك الحالات التي ينطبق عليها وصف الطلاق النفسي .. كما يخلو من حالات الطلاق المعروضة الآن على المحاكم وتنتظر الحكم لها بالطلاق .. كما يخلو من دعاوى الخلع المرفوعة أمام جهات الاختصاص .. وأخيراً فهذا الرقم يخلو من حالات الخلاف الحاد التي تختمر الآن في البيوت . لتسفر عما قريب عن حالات طلاق مؤكد .!!

ثاني تلك الأرقام .. أن كل يوم يمر على مصر منذ الآن . سوف يسفر طبقاً للتوقعات الإحصائية المستقبلية عن مائتين مطلقة يومياً .. بحيث يضاف إلى المليون وربع مطلقة حوالي مئة ألف مطلقة سنوياً .!!

الرقم الثالث .. يقول بأن ٤٠ ٪ من حالات الطلاق تحدث فقط في محافظتي القاهرة والإسكندرية .. أما باقي الحالات (الـ ٦٠ ٪) . فتحدث في باقي المحافظات .!!

وخامس تلك الأرقام المخيفة .. تقول بأن ٦٠ ٪ من الأطفال الذين ضبطوا في جنح التشرد والتسول في الشوارع في العامين الأخيرين . هم من أبناء المطلقين ..!!

كان ينبغي أن نكتفي بهذا القدر من الأرقام المشئومة قبل أن تصيبنا حالة من الاشمئزاز .. لكننا نفضل أن نضيف رقماً آخر قد يخفف من تلك الحالة الاشمئزازية .. هذا الرقم يقول بأن محافظات الصعيد (معقل الأخوة الصعايدة الطيبين) قد استأثرت بحدوث أقل حالات الطلاق في مصر .!!

ماذا يمكن أن نقرأ في تلك الأرقام أكثر مما تقرؤه الأرقام نفسها .؟! هل ننبه إلى أن محافظات التحضر (القاهرة والإسكندرية) وبها أكبر نسبة عمل للمرأة .. هي المحافظات الأكثر طلاقاً . في مقابل أن المحافظات الأقل ثقافة وتحريراً للمرأة بمفهوم أنصار التحرير . هي الأقل طلاقاً .؟! هل نقرر أن أكثر الدول العربية سبقاً في موضوع تحرير المرأة - مصر - تعاني من تهديد المستقبل الأسري فيها . وهي الأكثر إهانة لنسائها .. وأن تصدير هذا التهديد إلى كل الدول العربية . هو الأمر الحتمي طالما أن تلك الدولة قد اعتادت الريادة سلباً وإيجاباً على كل جيرانها العرب .؟! هل نقرر أن محاولة البحث عن طريقة لمنع حدوث الطلاق . هي المحاولة التي ينبغي أن تحظى بالاهتمام . وأن تجند لها كل القوى والإمكانات .. بدلاً من هذا السفه الإنفاقي على قضايا فرعية وهامشية مقارنة بالقضية الأم .. كقضية رعاية اللقطاء . ورعاية الأيتام . ورعاية المعاقين . ورعاية أبناء المطلقين .. وغيرها .؟! هل استعراض الإحصاءات المماثلة في الدول العربية الأخرى . يمكن أن تسفر عن نسب مشابهة .. خصوصاً في ظل حساب الأرقام المذكورة كنسبة مئوية من عدد السكان .. فربما كانت المصيبة عامة ونحن لا ندري ..!!

وأخيراً .. هل ننبه إلى أن ضرورة إصدار صحيفة أو مجلة باسم " عالم المطلقات " . لعلاج حالات الطلاق القائمة من جهة ، والوقاية من إضافة حالات طلاق جديدة من ناحية أخرى .؟!

إنها أسئلة ينبغي أن تحتل الأولوية في تفكيرنا وخططنا المستقبلية .. إن لم يكن لصالح نسائنا ولصالح أبنائنا .. فعلى الأقل - قبل هذا وذاك - لصالح أنفسنا .!!

****

وأظننا نعرف الكثير من الحالات الإنسانية التي تم فيها الطلاق رغم أنف المرأة .. حيث لم تكن هي تريده أو تتمناه .. ولم تطلبه لا صراحة ولا ضمناً ، بل باغتها به الرجل فيما يسمى قانوناً بـ " الطلاق الغيابي " .. وأظننا قد أشفقنا كثيراً – ولا نزال – على تلك المرأة التي كان زوجها ديمقراطياً حين جاء إليها يأخذ رأيها في الزواج منها وانتظر موافقتها على أحر من الجمر .. لكنه عاد إلى ديكتاتوريته ولم يسألها أو يفرض لها وجوداً وكأن الأمر لا يعنيها ، عندما اتخذ قراراً فردياً بالطلاق .. بل وحرص على أن يباغتها به .!!

لكن الجديد في الأمر .. والذي قد لا نعرفه .. أن يتم الطلاق رغم أنف الرجل ، وهو لا يريده ولا يتمناه .. وإن كنا نعرف ونسمع على أزمان متباعدة عن مثل تلك الحالات ، إلا أننا نعرف أنها حالات تتم بقرار قضائي وبحكم محكمة وبأسباب دامغة تجعل ذلك الرجل غير مجني عليه ، حتى وإن أبدى عدم رغبته في الطلاق ..

لكنني أحكي هنا عن حالة يتم فيها إكراه الزوج على أن يوقع يمين الطلاق على امرأته ، لأنها هي التي لم تعد ترغبه وليس هو .. سواء أكان هذا رأيها عن قناعة أو كان بإيعاز من أهلها لسبب أو لآخر .. فماذا يمكن أن يفعل الرجل في مثل تلك الحالة .؟؟

لقد جاءني صاحب تلك الحالة يحكي لي . كيف أنهم يحاولون أن " يأخذوها منه " عنوة واقتداراً .. وأن يجبروه على أن يفصم عرى علاقته بها . رغم أنه يحبها حباً جماً . بل ويكاد يجزم بأنها أيضاً تحبه .. لولا ......

" كنا يا سيدي زوجين سعيدين .. لا ينغص علينا حياتنا إلا ما يعكر صفو كل الناس من منغصات تطلع شمسها في أول اليوم لتغيب إلى غير رجعه مع حلول المساء .. وقد أنجبنا طفلتين جميلتين . أحالا حياتنا إلى مزيد من البهجة أكثر مما هي ممتلئة بسعادتنا .. كنت أنتظرها عائدة من عملها وبيديها الطفلتين وقد أحضرتهما من الحضانة . فتجدني أخفي في يدي اليمنى قطعة شيكولاتة لإحداهما وفي اليد الأخرى قطعة للأخرى وفي فمي القطعة الأشهى لها .. زوجتي الحبيبة .!! وفي كل ليلة .. كان كلانا يجاهد كي لا ينام ويترك نصفه الآخر يقظاً .. ويخشى كلانا أن يلتفت إلى شيء غير حبيبه فتفوته من رؤيته لحة – كما تقول أم كلثوم في إحدى أغنياتها (وأخاف أسرح تفوتني لحة منك .. وم الدنيا اللي أجمل من خيالي) .!!

ظللنا على حالنا السعيدة تلك إلى أن طلبت مني زوجتي ذات يوم في ساعة صفاء – وما أكثرها بيننا – أن أشارك أخاها مشروعاً تجارياً مستقلاً عن تجارتي . رغم أن المشروع في ذات النشاط .. فهو يملك بعض المال ولا يعرف كيف يستثمره وليس له من يثق فيه إلا أنا .. هكذا قالت زوجتي .. فلما رأيت في ذلك المشروع مساحة جديدة – غير ابنتيّ – أظهر فيها حبي لزوجتي ولكل من يمت لها بصلة حتى لو كان شريكاً في مشروع . قبلت على الفور ودون مناقشة .. أليس أخاها .؟؟

استمر مشروعنا ناجحاً رابحاً يتنامى كل عام عن العام الذي سبقه .. وأنا أهدي هذا النجاح إلى زوجتي هدية لها في صورة أخيها .. إلى أن جاء يوم بغيض اختلفنا أنا وهو اثر اتهامه لي بعدم الأمانة وسرقة بعض أرباح

المشروع من وراء ظهره .. كان اتهاماً قاسياً لا يناسب طبيعتي وأخلاقي .. أو رغبتي في إسداء معروف له وجميل لأخته .. وعبثاً حاولت أن أفهمه أن الأمر لا يعدو مجرد سوء فهم منه . وأنني أشرف من أن يتهمني بفعلة شنيعة كتلك .. إلا أنه أبى واستعصى وصمم على فض الشركة بيننا ..

فلما شرعنا في فضها .. كان لابد من أن أحفظ حقوق ابنتي الطفلتين .. لكنه كان طامعاً أكثر مما يتوقع أحد .. فقد طلب مني أن أترك له المشروع – الذي هو جزء من نشاطي التجاري الأصلي – على أن يسدد هو لي ما يرى أنه حقي بعد كل ما " سرقته " منه على حد تعبيره .. فكان الخلاف وكان الاختلاف الذي جرنا سوياً بعد طول وساطات إلى ساحات المحاكم .. وارتضيت أنا أن يحكم بيننا قاض عادل يكبح جماح طمعه واستغلاله لصلة النسب بيننا . ولم أفسد على زوجتي لحظة من لحظات سعاتها معي . فكنت أرفض أي محاولة للنقاش في هذا الأمر بينا .. ولم أنتبه أبداً إلى ضيق زوجتي الذي بدأ يتنامى رويداً رويداً دون أن ألحظ .. وكأنها قد صدقت ما اتهمني به أخوها .. أو كأنها في أحسن الظن أرادت مني أن " أتغلب " لأخيها وأترك له مالي ومال ابنتيّ ..!!

وصدر حكم المحكمة بأحقيتي في امتلاك المشروع .. وأن أدفع له رأس ماله الذي بدأ به معي وأرباحه منذ بدأنا . إضافة إلى تلك الزيادة التراكمية في قيمة المشروع التي جعلت البنية الأساسية للمشروع أعلى سعراً بمفهوم السوق .. وكان الحكم مستنداً إلى أنني كما هو ثابت بالأوراق صاحب المشروع الأصلي من قبل أن ندخل معاً في شراكة .. وأن نجاح المشروع كان بفضل ما بذلته أنا وما وظفته من خبرتي في المجال . ناهيك عن استغلال المشروع لاسمي التجاري الذي صنعته في السوق طوال سنوات سبقت الشراكة ..!!

لم أصدق يا سيدي ذلك الوجه العدائي الذي لاقتني به زوجتي وأنا عائد من المحكمة .. كذبت عيناي وحاولت أن أبدو طبيعياً . إلى أن لاحظت أن الهمس بينها وبين أخيها على التليفون قد بدأ يتزايد ليلة بعد ليلة .. إلى أن باغتاني ذات مساء كئيب بعد حضوره دون موعد سابق . بأن عليّ أن أختار بين أمرين لا ثالث لهما : أما أن أنسى تماماً حكم المحكمة وأن أعيد له المشروع بكل شروطه التي رفضتها من قبل .. أو .. أو .. أو أن أطلق زوجتي !!

لم يكن الوقت يا سيدي وقت مزاح حتى أتشكك فيما سمعت منه .. ولم يكن وجه زوجتي موحياً بأي قدر من الأمل عندما نظرت إليها أستفتيها فيما يطرحه أخوها .. فقد أيقنت أن هذا العرض متفق عليه بينهما من قبل .. وأن رأيهما قد استقر على تلك المفاضلة الظالمة .. وشعرت لأول مرة منذ تزوجتها أنها تحاول أن تلوي ذراعي لصالح أخيها . متكئة على ما تعرفه عن حبي لها وتعلقي بها وبابنتيها .

طلبت من زوجتي أن تستأذن أخاها لأنفرد بها قليلاً في حجرتنا .. لكنهما رفضا معاً وفي صوت واحد .. طلبت أن تمنح نفسها مهلة كي تفكر فيما هو مطروح . وتقلب أمرها معي على كل وجوهه . فلم تقبل أن يتأخر قراري لحظة عن تلك الجلسة ..

لم أجد أمامي مفراً من أن أجرب رفضي لكلا العرضين . لأرى ماذا سيفعلان .. فأعلنت رفضي .!! وكأنني يا سيدي برفضي " الحيي " هذا قد فتحت على نفسي باب جهنم .. فقد انهالت زوجتي - حبيبتي - على سمعي بكل أنواع التهديد باللجوء إلى المحاكم للحصول على الطلاق .. وبإفشاء سر تجارتي وأسرار عملي التي أخفيتها عن أخيها إلى كل أحد .. وبإبلاغ مصلحة الضرائب عن أنشطتي التي تدر عليّ أرباحاً لا يعرف أحد عنها شيئاً .. وبفضح أسراري الشخصية بين معارفي وأصدقائي .. وعدد

آخر من التهديدات لا أذكره . أو بالأحرى لا أرغب في أن أتذكره .. أما أخوها فقد اكتفى بقوله لي من تحت عض أسنانه : إذا لم تقبل بشروطي أو تطلقها فستكون نهايتك على يدي .. ويديها ..!!

تلك هي حكايتي يا سيدي .. جئتك بها لترى معي مخرجاً من هذا المأزق الذي عليّ للخروج منه أن أختار أحد أمرين كلاهما علقم .. فمالي ومال ابنتيَ وتجارتي هو نصف حياتي .. وامرأتي التي أحبها ولا أطيق فراقها هي وابنتيها هي نصف حياتي الأخرى .. فماذا أفعل لأخرج من تلك الكماشة التي ما كنت أظن ذات يوم أن تكون زوجتي .. هي حد فكيها .. ؟؟

وحتى الآن لا يزال صديقي ينتظر رأيي .. وحتى الآن أعترف أنني عاجز عن أن أسديه الرأي ..!!!!

****

عرفنا منذ زمن بعيد الزواج عبر " الخاطبة " - وهي المرأة التي تدخل بيوت القوم وتعرف مواصفات ابنتهم وتنقلها إلى بيوت أقوام آخرين . فيهم من يبحث عن زوجة بتلك المواصفات - وقد كان المبرر المعقول وقتها أنه ليست هناك فرصة لأن يلتقي الرجل والمرأة في مكان واحد . فيتعرف بنفسه إلى مواصفاتها ويقرر اتفاقها أو اختلافها مع ما يرغب من مواصفات ..!!

ثم جاءنا زمن آخر .. استعجبنا فيه للزواج عبر أبواب الصحف والمجلات .. حيث تطرح المرأة - والرجل أيضاً - مواصفاتهما (التي أغلبها كاذبة) .. وهو أسلوب لم يحقق نجاحاً . ولا أظن أن الحالات التي تزوجت عبر الصحف قد بلغت من العدد ما يبرر استمرار الصحف في تحرير تلك الأبواب . أو حتى كتب النجاح للحالات القليلة التي تزوجت بتلك الطريقة ..!!

ثم انبهرنا أخيراً بطريقة الزواج عبر الإنترنت .. حيث الشريحة التي تطالع الإعلان الزواجي أكبر . ووصول الرسالة أسرع . ودرجة السرية أكبر .. ولم

تصلنا حتي الآن – ربما لحداثة العهد بهذا الأسلوب – ما يفيد جدوى تلك الطريقة من عدمه .!!

وكلها تظل رغم – اعتراضنا على بعضها – طرقاً مشروعة للحصول على النصف الآخر " المناسب " مهما كانت وسيلة الحصول عليه .. انتهاجاً للمبدأ الميكيافيلى المعروف " الغاية تبرر الوسيلة " .!!

واستناداً لذلك التطور الذي يطلع علينا كل يوم .. فإن الذي أستقرؤه فى المستقبل القريب الذى لم تعد هناك غرابة فى توقع إحداثه مهما بلغ شذوذها .. هو " الطلاق عبر الإنترنت " .. الذي سيكون طريقة حديثة للحصول على زوج للمرأة التي تنوي الطلاق من زوجها .. وذلك قبل حدوث الطلاق .!!

إن مشكلة المشاكل لدى كل امرأة تعانى من مرارة حياتها الزوجية هو خوفها من أن تطلب الطلاق من زوجها فتحصل عليه ثم لا تجد بعده من يقبل بالزواج منها .. فتضطر إلى أن تطوى جوانحها على تعاستها وتقبل بمعيشتها مع هذا الزوج الذي لا تريده .. وهي تردد المقولة الشهيرة التى ترد على لسان كل امرأة مقهورة " أهي عيشة وآخرها الموت " .!! وتصبح تلك المشكلة غير ذات موضوع ، لو أن المرأة ضمنت أن تطلق من زوجها فتجد فوراً من يرغب فيها ويتمناها .. ولا يكون عليها إلا أن تنتظر حتى انتهاء فترة عدتها ، لتبدأ مع الزوج الجديد – الذي ينتظرها – حياة جديدة ، ربما تكون تعويضاً إلهياً لها عما عانته في زواجها الأول .!!

وفكرة الطلاق بالإنترنت التي ستأتي بها الأيام القادمة بالتأكيد ، يمكن أن تحقق هذا الهدف وتحل تلك المشكلة تماماً .. حيث المتوقع – لو صدق توقعي – أن تفتح المرأة المقهورة في زواجها صفحة لها على شبكة الإنترنت ، تكتب فيها مواصفاتها : عمرها وهواياتها وطموحاتها وأبنائها ..

ومواصفات من ترغب فى الزواج منه ليخرجها من تعاستها مع زوجها الحالى .. فإذا عثرت على مبتغاها عبر التراسل واتفقا على الزواج .. شرعت في السير على طريق طلاقها .. بعد أن تكون قد ضمنت لها زوجاً .. قبل أن تطلق .!!

أعرف أن البعض من المستمسكين بعروة الدين الوثقى سيستهجنون تلك الفكرة ويتصدون لها .. على اعتبار أنه ليس من الأخلاق أن تبحث المرأة عن زوج ، وهى لا تزال على ذمة رجل أخر .. وليس من الدين أن تخدع زوجها الذى يعيش معها تحت سقف واحد وهو عنها وعما تعمل غافل .!!

وأعرف أيضاً أن البعض سيرى فى ذلك الفعل قمة الانحلال الأخلاقي .. أن يتواصل رجل غريب مع امرأة متزوجة حتى لو كان ذلك عبر الأثير .!!

لكنني أوقن أنني سأجد من بين هؤلاء الرافضين من سيتفهم ذلك التطور الطبيعى والمنطقي لتلك الصرعة المسماة بحرية المرأة وحقوق المرأة وتحرير المرأة .. وأن تلك الفكرة لا تعدو أن تكون مجرد استنتاج ساذج لواقع كئيب قادم قد يأتي بما هو أفظع من ذلك .. واقع قد يحلو للمرأة فيه أن تتصرف بما يحقق مصلحتها الشخصية ، ضاربة عرض الحائط بكل حقوق الرجل وأخلاقيات المجتمع وآداب الدين .. خصوصاً بعد أن نجحت في انتزاع قانون الخلع وقانون سفر الزوجة بدون إذن الزوج وقانون اشتراط موافقة المرأة على زواج زوجها من غيرها .. وغيره من القوانين التعسفية التي جاء بها زماننا " النسائي " الذي نعيشه الآن .!!

وعلى الجانب الآخر .. فإنني أعرف أن هناك من سيرى في هذا الأمر عدلاً منطقياً ، مادام أن الرجل عندما يضيق بامرأته ، يبحث – وهى لا تزال على ذمته – عن امرأة أخرى تصلح للزواج .. وعندما يجدها يصارح امرأته برغبته فى الزواج من غيرها ويترك لها حرية أن تقبل بالبقاء معه أو تمضى إلى حال

سبيلها .. فلماذا والحال كذلك لا يكون للمرأة الحق ذاته .. خصوصاً أنها لن تلتقي بالرجل وجهاً لوجه .. ولن تنفرد به قط .. بل هي فقط سوف تخاطبه من وراء حجاب أو من وراء شاشة .. لتخرج بنفسها مما وضعه قدرها فيه .. شأنها شأن كل إنسان عاقل يرفض الرضا الذليل بالواقع المرير .!!

إنها أبداً ليست دعوة لأن تفعل النساء ذلك .. وليست أبداً دعوة للتمرد ننشرها على النساء لتهتدى بها من ضاق بها السبيل وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من بحيرة اليأس المتماوجة .. لكنها فقط مجرد استقراء نبيل لواقع يصر على أن يطلع علينا بما يسفه خيالنا ويكرهنا أن نمزق كل كتاباتنا . التى ستتضاءل بالتأكيد أمام قسوته وغرابة مفرادته .!! ومادام الخبر اليقين عندهن .. فالأمر معروض عليهم .. ولهن فيه فصل الخطاب .!!

****

الفصل الرابع

هزار تقيل

مظلومون أولئك الصعايدة في مصر والشام وكل البلدان العربية والأوروبية والأمريكية .. حيث الصعيدي - اصطلاحاً - هو ساكن الأرض المرتفعة أو الصعيد من الأرض .. وفي الغالب يكون الجنوب في أي بلد هو المرتفع . والشمال هو المنبسط .. والصعيدي - عرفاً - هو القادم من جنوب البلاد .. وعليه فإنه في كل بلد صعايدة . في جنوب أمريكا ناس صعايدة جدعان قادمون من ولايات الفول السوداني . جورجيا وجاراتها (مش فاكرين الراجل الجد " جيمي كارتر " .. اللي لولا انه صعيدي ماكانش قدر يحكم على مناحم بيجن ويخليه يوقع معاهدة السلام اللي بتندم عليها إسرائيل دلوقتي وعايزة تلحسها) .. وفي جنوب ايطاليا ناس صعايدة " زي العسل " .. وفي جنوب سوريا - وأنتم تشاهدون في المسلسلات السورية - ناس صعايدة " كُمَّل " . لغتهم وقيمهم مبهرة .. وغيرهم كثير .. لكن والشهادة لله أشهرهم - وأطيبهم - هم صعايدة مصر . الذين احتملوا من النكات ما تنوء بحمله الجبال . ومع ذلك لسه سعداء وبيضحكوا من قلوبهم الى الآن .. والمصيبة إنهم بيضحكوا على النكت ذاتها التي تقال عنهم .!!

وقبل أن أروي لكم نكتة صعيدية يمكن تصنيفها على أنها من نوع الهزار التقيل .. أؤكد لكم أنني صعيدي أباً عن جد عن جد عن جد عن جد (كفاية كده لأن الكذب حرام .. وهل فيكم من يعرف اسم جده الثامن مثلاً) .. وعليه فأنا مسئول عن النكتة مسئولية كاملة وعن المستهدفين بها :

(يروى أن رجلاً صعيدياً قرر أن يدخل مع امرأته في " أفية " (قافية " يعني تقول له شيئاً فيقول لها اشمعنى فتكمل بقول فيه مفارقة طريفة تبعث على الضحك .. ثم يأتي الدور عليه فيقتص لنفسه مما قالت وهكذا) ..

بدأت الأفية بأن قالت له امرأته : انت ؟ قال لها : اشمعنى ؟ قالت له : مش راجل .!! صمت طويلاً قبل أن يعتدل في جلسته ويقول لها : وانت ؟ قالت له : اشمعنى ؟ قال لها : طالق بالتلاتة ..!!

وانتهت الأفية .. وانتهت الحكاية .. وانتهت بينهما الحياة الزوجية برمتها.. وربما بسبب هذه الحكاية بالذات ، اشتهر عن الصعايدة قول شائع ، بأن " الصعيدي لما يتدلع يجيب لأهله مصيبة " .!! وهل هناك مصيبة أكثر من الطلاق .؟؟ وهل توجد على الأرض واحدة مجنونة تقول لزوجها انت مش راجل .. حتى لو كان هزاراً .!!

هذه الأفية التي حدثت بين هذا الصعيدي وزوجته ، ليست أول وآخر أفية حدثت بين صعيدي وزوجته .. لكنها أقصر قافية سجلها التاريخ - إن كان التاريخ لديه الوقت لتسجيل الأفيات .!! ورغم إن غير الصعايدة يسمعون كثيراً عن حكايات الصعايدة ، ويأخذون العبرة منهم حتى لا يقعون في تلك الأخطاء الساذجة .. لكنني أؤكد لكم أن بإمكاني أن أرصد لكم لدى غير الصعايدة هزاراً من هذا النوع الثقيل ، لم يؤد فقط الى الطلاق .. بل الى القتل أحياناً .. ربما كي يثبت الرجل لامرأته أن رجولته ليست محل شك .!!

وكم أرغب وبشدة أن تقوم لجنة من الجامعة العربية - فرع أي حاجة إنسانية .. لتسجل السلوك الصعيدي الرائع المتكافل فيما بينهم قبل وأثناء وبعد حدوث حالات الطلاق هناك .. إنه سلوك أكثر من انساني وأكثر من أصيل وأكثر من محترم .!

****

لم يحدث أن أفزعتني في شأن علاقة الرجل بالمرأة . عبارة قدر تلك العبارة التي تتردد بين الناس في أروقة المحاكم وعلى ألسنة المطلقين والمطلقات : " نفقة المتعة " ..!!

هذا المصطلح الوقح الذي يحكمون بموجبه ببضعة الآف من الجنيهات للمرأة من الرجل بعد طلاقها ، مقابل ما " استمتع " بها أيام كان زوجها .. هو مصطلح متدني ، يعود بالمرأة الى عصور الهمجية والنخاسة التي كان الرجل يشترى فيها المتعة من جسد المرأة ، بمقابل كان يدفعه مقدماً للجواري أو القوادين .. والآن يدفعه بالقانون .. ومؤخراً .!!

ليس اعتراضاً على حتمية تعويض المرأة عن سنوات شبابها التي أفنتها في خدمة زوج لا يستحق .. فقد أخذها لحماً ورماها عظماً كما يقولون .. وليس رفضاً للقصاص " المادي " ممن غدر بصاحبه ، بعد أن استنفد رحيقه وامتص شهده حتى آخر قطرة ، ثم تركه الى زهرة أخرى لم يقترب أحد من عسلها بعد .. لكن اعتراضنا المعلن والواضح هو على أن الحياة التي قضتها المرأة في بيت الزوجية لم تكن من أجل متعة للرجل وحسب .. بل من أجل أن تكون أنيساً وجليساً ومربية وعاملة ووفية وأماً .. وكل واحدة من هؤلاء كانت لها أعباء قامت بها على الوجه المستطاع وبقدر ما مكنتها قدراتها وظروف زوجها .. فإذا ما انفض عنها ذلك الغادر وألقى بها على قارعة الطريق تستجدي المارة قوت يومها .. فقد حق للقانون العادل أن يحميها من تشفيه في احتياجها ، وأن يأخذ منه قهراً ليعطيها طواعية .. أما ما هو اسم هذا الذي يقتطعه منها ويعطيه لها .؟ فلابد أن له أسماً آخر محترماً ، يليق بكرامة المرأة .. غير هذا الاسم الذي يحمل في طياته إهانة أكثر ما يحمل من إنصاف .!!

قال لي وهو يشكو من عسف القاضي معه في قضية طلاقه لامرأته : أنا قلت للقاضي إني ماستمتعتش بيها ولا يوم من عمري معاها .. وقلت له أيضاً : انظر إليها يا سيادة القاضي ، هل هذه امرأة يمكن أن يستمتع معها

أحد .. كيف تطالبونني بثمن بضاعة لم أشتريها ، وبمقابل عمل لم يقم به أحد .؟ إن هذا هو الظلم بعينه يا سيادة القاضي .!!

كنت أعرف أنه يقول هذا للقاضي نكاية فيها وتقليلاً من شأنها .. لذا لم أرد أن أدفعه الى المزيد ، وقلت له : ما كان يليق برجل محترم مثلك أن يهين المرأة التي كانت يوماً زوجته ، فما بالك وهي ستظل أم لأبنائك شئت أم أبيت .!! رد بتبجح : يا أستاذ النساوين عايزة حرقها بالجاز .. والقانون اللي بيحميهم ده قانون ظالم .. يعني إيه أدفع مهرها علشان هاستمتع بيها .. وأكتب لها مؤخر صداق علشان لو غدرت بيها .. وفي الآخر أدفع نفقة متعة علشان استمتعت بيها .!! ده لو أنا استمتعت بجد فيبقى كده أنا دفعت الثمن مرتين على عمل واحد ، وأظنك تعرف موطئ قدمه في جهنم كل من تقاضى أجره على عمل واحد مرتين .!! ألا يوجد من يعرف الحق ويجاهر به في هذا البلد .!؟

قمت من المكان الذي كان يجلس فيه ، بعد تيقنت أنني غير قادر على إيقاف سيل الكلمات غير المنتقاة على لسانه .. فعاجلني وأنا أغادره : طيب ايه رأيك .. لو راجل جميل ووسيم وشباب مثلي .. مش برضه الزوجة بتستمتع بيه أيضاً .؟؟ لماذا إذن لا يقرر القانون – بالمثل – نفقة متعة له أيضاً إذا طلبت امرأته الطلاق منه .؟؟ أم أن المتعة خاصة بالمرأة لكونها امرأة ، وليس لكونها متعة في ذاتها .!!

غادرت المكان وأنا أحاول أن أهرب من شعورين متناقضين : أحدهما هو شعور النظر الى كل امرأة تمر الى جانبي – وأنا أسير – على أنها جارية تنتظرها نفقة متعة إذا طلقها زوجها .. وشعور آخر بالرغبة في إعادة النظر في ذلك القانون الوضعي الجائر الذي لم يقرر بالفعل نفقة متعة للرجل .. على الأقل عندما يكون شاباً متزوجاً من امرأة عجوز .. ثم طلقها بناء على

رغبتها ..!! ولم أجد على لساني .. إلا أن أتمتم : أعوذ بالله من همزات الشياطين ..!!

****

آخر إحصائية جاءتنا من ايطالي منذ أسابيع ، تقول بأن ٦٩٪ من حالات الطلاق تحدث خلال أيام الشتاء الباردة .. بينما تتوزع النسبة الباقية على فصول العام الثلاثة الأخرى ..!! غير أنه لم يرد بصحبة هذه الإحصائية أية تفسيرات من أي نوع لتلك النتيجة .. وكأنهم يقصدون أن يتركوا للباحثين والمهتمين بشؤون الطلاق ، فرصة الاجتهاد في البحث عن تلك الأسباب .. فربما كشفت اجتهاداتهم عن تفسيرات تستحق أن يضعوها في الحسبان وهم يعالجون أمر الطلاق ، الذي استشرى في كثير من الدول الأوروبية في السنوات الخمس عشر الأخيرة .. حيث ازدادت حالات الطلاق الى مرة ونصف عما كان قبل ذلك ..!!

وها نحن نقع في الفخ الذي نصبوه لنا عمداً ، فنحاول أن نفسر لهم ما أحصوه .. وإن كنا لا ندري لو أنهم اكتشفوا أن في الشتاء أسباباً قوية للطلاق .. فهل بإمكانهم مثلاً أن يصدروا أمراً جمهورياً أو قراراً ملكياً بإلغاء فصل الشتاء من فصول السنة .. أو تقليص عدد أيام الشتاء وشهوره ، لصالح الفصول الأخرى " اللاطلاقية " ..!؟

المهم .. نحن نعتقد - إن كانت تلك الإحصائية صحيحة - أن ليالي الشتاء الطويلة لها دخل كبير بالطبع في مسألة الطلاق .. فالأزواج ينامون مبكراً في تلك الليالي .. وهذه نعمة تحسب لصالح الشتاء وأيامه . لكنهم للأسف يأرقون بعد منتصف الليل ، بعد أن يكتفي الجسم من الراحة والمخ من ساعات النوم .. فيطير النوم من عيونهم ويستيقظون .. ولأن الوحدة قاتلة ، فإن الزوج يعمد الى إيقاظ زوجته لتشاركه سهره المؤرق .. وهنا تحدث

الطامة الكبرى .. فهو عندما يفزعها من نومها في منتصف الليل .. يكون كل أحمر وجهها وطلاء شفاهها وكحل عينيها وظلال عيونها الأخضر أو الأزرق أو البنفسجي . قد اختلط ببعضه أثناء نومها .. فتقوم له بوجه أشبه بوجه المهرج الذي نراه كثيراً في السيرك .. هذا إن لم يكن أشبه بوجه عفريت خارج لتوه من حفلة تنكرية .!!

لقد ودعها قبل أن ينام وهي في جمال بنات الحور .. وهاهو يراها الآن بعد أن استيقظت وهي في قبح بنات الشيطان .. فلا يملك إلا أن يتركها ليعود الى سريره ويسأل نفسه السؤال الذي سأله كل منا لنفسه كثيراً ولم يجد عنه جواباً حتى حينه : كيف تزوجت من هذه المرأة الـ .... .؟؟ وكيف استطاعت أن تخدعني وتضع على وجهها قناعاً يخفي تلك البشاعة التي رأيتها لتوي .؟؟ وهل من الممكن أن أتخلص من هذا الكابوس بعد أن رأيته رؤي العين الآن .؟؟

وهنا يتوقف صاحبنا عن الأسئلة .. لأنها تكون قد لحقته . بعد أن مسحت قدر ما استطاعت من ألوان الطيف التي رسمت على وجهها سيرالية بغيضة .. لتسأله بتنمر وتحفز : ماذا كنت تريد مني .. وما الذي أوقظك في تلك الساعة .. وهل سأستطيع أن أذهب الى عملي في الغد مبكرة إذا أنا جلست لأسري عنك سهرك وأرقك الذي لا أعرف من هي تلك السنيورة التي تسببت فيه .؟! ثم تعود أدراجها وهي تنصحه بفظاظة : نام وخلي الليلة دي تعدي على خير .. نام الله لا يسيئك .!!

أليس منطقياً أن يصحو هذا الزوج في الصباح ، وقد انتوى أن يتخلص والى الأبد من تلك الشمطاء .. بالطلاق البائن .؟!

نحن لا نزال في مرحلة الاجتهاد لتفسير الإحصائية فقط .. فلا يسارع أحد الى اتهامنا بأننا نفتري عليهن لا سمح الله .. وللمزيد من هذا الاجتهاد نقول بأن من المحتمل أيضاً ، أن برودة الشتاء القارصة تجعل الزوج بحاجة

شديدة الى دفء زوجته كي يخفف عنه برودة الجو وسخونة المشاعر .. ولأنها في الغالب امرأة عنيدة و " بحالات " والعياذ بالله .. فإنها تضيق في الغالب بمطلبه الذي يتكرر كثيراً في ليالي الشتاء الباردة . وترفضه في أغلب المرات .. ولذا فإنه وفي لحظة انفعال غبي من تلك اللحظات التي تنتاب الرجال عندما تعميهم رغباتهم الشهوانية عن الرؤية .. يصدر حكمه الأغبى منه .. فيطلقها ..!!

ولسنا نعذر المرأة في تلك الحالة . أو نقف الى جانبها ضد موقف الرجل .. فبالتأكيد من حق الرجل أن يسكن إليها وقتما يريد . ولو على ظهر بعير كما يقول الحديث الشريف . ومن واجبها أن تطيع .. لكننا لا نزال نجتهد في البحث عن أسباب الطلاق الشتوي هذا ..!!

فقد يكون سبب الطلاق بوفرة في أيام الشتاء .. أن البرودة القارصة في لياليه . تجعل المرأة تتدثر بكل ما لديها من ملابس وأغطية في المساء .. فتبدو عندئذ لعين الرجل " شوالاً " محشواً بالملابس . وليس جسداً جميلاً في غلالة رقيقة كما اعتادت ليالي الصيف أن تبديها له .. وهنا تثور في نفس الرجل مئات المشاعر المتناقضة .. بين تلك التي تتشبث بأغطيتها وملابسها القطنية والصوفية وكل ما تطاله يدها من أقمشة .. وتلك التي لاقاها في النادي ذات صباح مشمس في أيام التزاوج الربيعي . فأعجب بمنظر سير الدم تحت بشرة كفيها . فاختارها للزواج .. وها هو الآن يراها امرأة " حرشفية " .. ذات زعانف وقشور ..!!

يبدو أننا خرجنا من حالة الاجتهاد لتفسير الإحصائية الإيطالية . الى حالة توصيف لواقعنا النسائي البغيض الذي لا تريد امرأة أن تعترف به .. حتى بعد أن يطلقها رجلها ويذرها وحيدة .. مع أغطيتها ..!!

****

لا أتصور أن يقام احتفال بنجاح أحد ، بينما صاحب النجاح نفسه غائب عن الاحتفال .!! كما لا أتصور حفل زفاف يكون العروسين غائبين عنه .. ذلك أن أصحاب الشأن هم أولى الناس بالتواجد في التجمع المقام لهذا الشأن .. لكننا وبكل أسف أصبحنا نناقش قضايا مصيرية في غياب أصحابها الحقيقيين ، ومع هذا ننتهي الى قرارات ، نطلب منهم هم أن يطبقوها ، وهم الذين سيعانون منها .!!

وإن صح أننا نناقش قضايا الأطفال في غياب الأطفال .. فقد يكون لدينا بعض العذر – ولا أقول كله – لأنهم أقل إدراكاً للأبعاد والأسباب والتداخلات القائمة وراء مشكلاتهم .. أما أن نناقش قضايا المطلقات في غياب المطلقات أنفسهن .. رغم أنهن أدرى بها وبأبعادها وخباياها ، فهذا ما لا نتصور أنه يمكن أن يصل بنا الى الطريق الذي نبتغيه من وراء مناقشة تلك القضايا .. فلا يعرف نوع المادة التي صنع منها " السوط " إلا من يتلقى به الضربات .. وكلمة واحدة صادقة من صاحبة الأمر ، حتى لو كانت تعري بها قصوراً أو تكشف بها عيباً ، هي أهم وأنفع ألف مرة من صفحات طويلة كاذبة فيها ما فيها من ادعاء الملائكية وتبرئة الذات وإلقاء التبعة على الآخرين .!!

قالت لي إحداهن وهي تبتسم : " أنا أستاهل كل اللي جرالي " .!! لم أصدق ما تقول وضحكت .. فأدركت هي أنني لا أصدق .. فقالت مرة أخرى : آه والله العظيم أنا أستاهل .. فقد كان زوجي من النوع " السوبر " ، لكنني " افتريت " عليه ، ولم أصن النعمة التي منحني الله اياها .. فنزعها مني .!!

أغرتني جرأتها فسألتها : وكيف ذلك يا سيدتي .؟؟ قالت ولا تزال الابتسامة تعلو وجهها وان كانت تشحب قليلاً مع كل عبارة تقلب عليها ذكرياتها : لقد توارثنا في أسرتنا عدداً من الأفكار الساذجة الغبية عن

الكيفية التي يمكن أن تحتفظ بها المرأة بزوجها .. وقد طبقتها مع زوجي حرفياً وأنا على يقين من نجاحها .. أليست هي وصفة أمي رحمها الله فكيف لا تصدق .؟ لكن زوجي حذرني من التمادي في هذا . لأنه لا يطيق مثل تلك التصرفات .. فأيقنت من قوله أنني على الطريق الصحيح .. وأنه على طريق الاستسلام .. وأنه سيصبح عما قريب " خاتماً في إصبعي " كما قالت لي أمي رحمها الله .. لكنه بعد قليل باغتني بورقة الطلاق .. ومعها بضع كلمات تقول : " الوصفة الواحدة .. لا تصلح في كل الأحوال .. مع كل الرجال " .!!

وأسألها : هل تذكرين لي بعض تلك الأفكار الغبية التي توارثتها المرأة يا أختاه .؟؟ قالت لي : أولاً : التشكيك في كل ما يقول الى أن يصل الى درجة أن يأتي ويحكي لي كل شيء وهو يتمنى فقط أن أصدقه . ثانياً : التقليل من شأن كل ما يأتي به .. الى أن يأتي لي بأغلى الأشياء وهو يتمنى فقط أن أقبلها منه . ثالثاً : المتاجرة معه بالمتعة .. إلى حد ألا يأخذ شيئاً مني إلا بعد أن يدفع لي المقابل المادي أو المعنوي . رابعاً : رفض كل أوامره . الى أن يقنع أنني لن أنفذ .. ثم أفاجئه بالتنفيذ . فيكبر عنده ما أفعله . ويصغر عنده قدر أوامره لي ....

استوقفتها بإشارة من كفي وأنا أقول لها : يكفي هذا أيتها المرأة الصادقة .. وليت من يسمع يعي .. وليت من يعي يطبق ما وعاه .. وكفانا استمساكاً بما لم نجن من ورائه إلا الخراب .!!

****

لو أننا حصرنا الحوادث الإنسانية التي تزخر بها الصحف والمجلات الآن .. لوجدنا أن أكثر من خمسين بالمائة . هي حوادث يمكن أن توصف بأنها " حوادث زوجية " .!!

وهذا ليس من قبيل المبالغة على الإطلاق .. فقد قام بالفعل فريق قسم الملفات الصحفية في المؤسسة التي أشرف بإدارتها . بعمل من هذا النوع كلفتهم به .. ووجد أن هذه النسبة قد وصلت خلال شهر مايو الماضي فقط الى ٥٣ ٪ بالفعل .!! ولما طلبت منهم أن يصنفوا تلك الحوادث .. كشفت ذلك التصنيف عن نتائج مذهلة . وربما غير متوقعة .. فقد احتلت جرائم الاتفاق الجنائي بين الزوجة والعشيق لقتل الزوج المرتبة الأولى بين الحوادث الزوجية . بنسبة تصل الى حوالي ٢٢٪ من مجموع الحوادث .. كما احتلت جرائم قتل الأزواج للزوجات المرتبة الثانية . وبنسبة ١٢ ٪ (معظم تلك الجرائم تمت لأسباب تافهة في الأغلب .. كتأخر الزوجة في إعداد الطعام . أو النقاش في مصروف البيت) . ويغلب على ظني أنها أسباب ظاهرية كاذبة يقولها الزوج بعد وفاة المجني عليها . التي كانت " الوحيدة " التي تعرف السبب الحقيقي .!! كما بلغت نسبة قتل الزوجات للأزواج - بدون معونة خارجية - إلى حوالي ٧٪ .!! أما نسبة انتحار أحد الزوجين ضيقاً بحياته مع الطرف الآخر . فقد بلغت حوالي ٩٪ .!! وأخيراً فإن جرائم الأبناء . من انحراف وإدمان وضرب الوالدين وقتل الأخوات في جرائم الشرف .. وجرائم البنات . من هروب من منزل الأسرة والانحراف وزواج عرفي وحمل سفاح وتعرض لاغتصاب .. وجرائم الأخوة . من مشاحنات بسبب الزوجات وصراع على الميراث الى حد القتل ... فقد احتلت النسبة الباقية .!!

كان لا بد من إخضاع تلك النتائج للتحليل بشكل أو بآخر . لمعرفة تلك الأسباب التي يمكن أن تنتج هذا الكم من الجرائم داخل الأسرة . التي يفترض أنها مؤسسة صغيرة جداً يحظى أفرادها القليلين بالرعاية والرقابة والتوجيه والإرشاد من قبل الوالدين .. كما يفترض أن شريكا الكفاح في تلك الأسرة قد اقترنا على سنة الله ورسوله وبينهما من المودة والرحمة التي جعلها الله بينهما . ما يهيئ قدراً من الاستقرار والأمان لا يسمح بمثل تلك

الحوادث .. حتى لو كانت الظروف تسمح بمثلها في مؤسسات أخرى ، كالمدرسة أو جماعة الرفاق أو مكان العمل ..!!

كما أن التحليل الذي ينبغي أن تخضع له تلك الأرقام يجب أن يعمد الى عمل مشابه عبر فترة زمنية سابقة (منذ ثلاثين عاماً مثلاً) من خلال الصحف والمجلات القديمة ومحاضر أقسام الشرطة وملفات القضايا في المحاكم .. وذلك لمعرفة الفروق بين الفترتين ، وفي صالح أيهما كان الموقف الجرائمي .. توطئة بالطبع للبحث عن متغيرات حياتية داخل الأسرة يمكن أن تكون قد تسببت في هذا التغير .. وأوصلت الحوادث الزوجية الى هذا القدر المفجع من السلوك .. والذي يبعث بالتأكيد على نوع من الفزع الاجتماعي والإنساني .

بإمكانك أن تقوم بتجربة بسيطة صباح الغد ، بأن تشتري الجريدة وتجلس بالورقة والقلم لتحصر فيها الحوادث المنشورة في صفحة الجرائم .. وتصنفها ، لتكتشف بنفسك كم تحتل الجرائم الزوجية .. وما هي نسبتها بين كل الجرائم مجتمعة ..!!

لقد أصبحت الأسرة مسرحاً لكل أنواع الجرائم تقريباً : القتل والسرقة والزنا والانتحار والضرب المفضي الى الموت والقتل الخطأ والتزوير والنصب وشهادة الزور .. كما أصبح يتشارك في ارتكاب تلك الجرائم جميع أفراد الأسرة بلا استثناء : الزوج والزوجة والأبناء والخدم والمربيات .. والعمات والخالات والأعمام والأخوال ..!!

لقد كان البيت هو المكان الأكثر أماناً للجميع فصار الأكثر خطراً .. فهل من سبب معقول لهذا التحول الفظيع في أحوال تلك المؤسسة التي كانت مسئولة مسؤولية كاملة عن صلاح حال المجتمع أو فساده ..؟؟

بالتأكيد لابد أن شيئاً ما قد تغير .. ويقيناً لابد أن خللاً ما هناك .. ويبقى أن يتجرأ أحد فيكشف عنه ويرفع اللثام عن خباياه .. قبل أن ينخر السوس في عظام المجتمع فلا يبقي ولا يذر .!! لابد أن نتدارك شيئاً مما بقي .. لابد أننا حريصون على إيقاف ذلك الانهيار الأسري الذي ترجم نفسه الى أبشع صور الترجمة ، ولا يريد أن يتوقف منذ ثلاثين عاماً .. لابد أن نقلع عن ذلك الصمت العاجز أمام تلك الطامة ، حتى لو كان ما سنقوله ليس يقيناً .. فلنقل ولنجرب ونتناقش ونصل الى حل .. فلن نصل الى موقف أكثر سوءاً مما هو عليه الآن .!!

قد يقول قائل بأن الإعلام الآن أكثر انتشاراً عنه منذ ثلاثين عاماً ، وهذا هو الذي صور لنا الأمر على ذلك النحو .. وقد يقول آخر بأن أول جرائم الخلق على الأرض كانت جريمة أسرية قتل فيها " الأخ " أخاه ، بسبب أختهما .. وقد يقول ثالث بأن اتساع دائرة العلاقات خارج الأسرة والوطن بسبب التطور في سبل الاتصال ، قد فك القبضة عن التمسك بالعلاقات القريبة داخل الأسرة .. وقد يقول رابع بأن خروج المرأة للعمل قد ساهم في تقطيع الأواصر الأسرية .. وقد يقول خامس بأن إحساس الرجل بقهر المرأة له ، بمساندة المجتمع وقوانينه ، قد غيّر من سلوكه نحوها ونحو أبنائها ..

ليكن كل ذلك أو بعضه أو غيره .. المهم الآن أن تتبنى إحدى المؤسسات السيادية في المجتمع تلك القضية ، وتوليها الاهتمام البحثي الذي يليق بفداحتها وخطورتها .. ويختار لها من الخبراء في كل مجال ، ليصلوا الى إجابة محددة عن السؤال ، الذي سيصبح بعد حين هو نفسه إجابة عن أسئلة لا نعرفها .!!

****

لماذا لا تخلو حياة أي منا من أسرار يحرص ألا يعرفها أحد .؟؟ ولماذا توجد الأسرار أصلاً في حياتنا .؟؟ وبمعنى أوضح : هل ستستعصي علينا الحياة إن هي خلت من الأسرار .؟؟

للإجابة عن هذه الأسئلة التي أصبحت هي وغيرها أحد أهم الموضوعات السيكولوجية في الجامعات الأمريكية الآن .. لا بد أن نتساءل أولاً : ما هو التعريف العلمي للسر أو للأسرار .؟؟

يعرف السر على المستوى الاجتماعي بأنه " أمر يتعلق بموضوع اجتماعي يهم صاحبه ألا يعرف بتفاصيله أحد . خصوصاً أولئك الأشخاص الذين يتعلق بهم هذا السر " .!! كما يعرف على المستوى النفسي بأنه " أمر مخجل أو حساس أو خطير . لا يجرؤ صاحبه على مواجهة الآخرين إن هم علموا به " .!!

وعودة الى تساؤلنا بعد هذا التعريف : هل لا يمكن أن تستقيم حياتنا دون أمور مخجلة أو حساسة أو خطيرة . أو دون أمور هامة لا ينبغي أن يعرفها الآخرون .؟؟

هناك الكثيرون الذين يتباهون بأنهم " ليس لديهم ما يخفونه " .. وبأن كل حياتهم بتفاصيلها هي كتاب مفتوح متاح قراءته للجميع .. فهل هؤلاء - إن صدقوا - لا يمارسون حياتهم بشكل سوي . بينما أصحاب الأسرار فقط هم الذين يسعدون بوجود أسرار في حياتهم .؟؟

وإذا سلمنا جدلاً بأن الحياة لا يمكن أن تستقيم بدون أسرار .. سواء بسبب التفاعلات الاجتماعية المفروضة . أو بسبب التنافسات والتشاحنات .. أو التعويض النفسي عن طريق الكيد في الخفاء للأصدقاء والأعداء على حد سواء .. فإن التساؤل التالي يفرض نفسه : ولماذا يعجز الفرد عن كتمان سره في نفسه . ويأبى إلا أن يطلع بعض من يختارهم عليه

هو ليعرفونه .؟؟ ولماذا يشكو من الآخر عندما يفشي لغيره ذلك السر الذي استأمناه عليه فلم يستطع أن يحتفظ به لنفسه .. أو كما يقولون : كيف تلوم من أفشى سرك الذي لم تستطع أنت أن تحفظه في نفسك .؟؟

الحقيقة أن دراسات سيكولوجية الأسرار تضع في اعتبارها – رغم أهمية كل تلك التساؤلات السابقة – أن أهم العوامل المؤثرة في فهم سيكولوجية السر وما يترتب على إفشائه ، هو : من هذا الذي ستفشي له سرك .؟؟

بالطبع هناك من يسيئون اختيار الشخص الذي يودعونه سرهم .. فتكون صدمتهم فيه كبيرة عندما يفشي السر .. رغم أن كل الدلائل كانت تشير الى أنه أول من سيفشي السر ، سواء بسبب طبيعته الشخصية التي يعرفونها عنه ، أو بسبب عدم عمق العلاقة بينهم وبينه مما لا يسمح بالحرص على عدم إفشاء السر ، أو لأسباب أخرى غير هذه وتلك .. لكن القائمة التي قدمتها الدراسات ، رتبت أولوية هؤلاء الذين نختارهم لإيداعهم أسرارنا ، وضعت لنا على رأس تلك القائمة الزوجة ، كأول من يفشى لها الزوج السر .. ثم يأتي بعدها أقرب الأصدقاء .. ثم يأتي أحد الأخوة أو الأخوات .. وقد يتبدل هذا الترتيب حسب نوع السر ، أو حيثية من يتعلق بهم السر (مثلاً .. السر الذي يتعلق بالزوجة تكون الزوجة آخر من يعلم به) ، وأيضاً حسب أهميته وحسب قدر ما يفعله في النفس من توتر (مثلاً .. يكون أول من نلاقيه بعد حدث ما هو أول من سنودعه إياه ، حتى لو كانت العلاقة بيننا بعيدة نوعاً ما) .!!

ولأننا في الغالب نسيء اختيار من نودعه سرنا ، فإن كل المترتبات عليه تكون في غير صالحنا ، وقد أشارت الدراسات المعنية ، الى أن المرأة سواء أكانت زوجة أو أخت أو صديقة ، هي آخر من ينبغي أن نودعها سرنا .. لأسباب تتعلق بطبيعة المرأة النفسية التي لا مجال هنا للخوض فيها .!!

كما أشارت الى أن الأصدقاء المخلصين ليسوا بالضرورة حافظين للسر .. حيث لا ينبغي أن نفترض أن إخلاصهم يمكن أن يكون مبرراً لحفظهم السر .. فهناك أصدقاء مخلصون كثيرون يفشون السر الذي تستأمنهم عليه ، وعندما تعاتبهم يبررون ذلك بأنه كان من فرط حرصهم على مصلحتك ، وهم أبداً لم يقصدوا خيانة عهدك كما تظن .!!

هل علينا بعد استعراض كل نتائج تلك الدراسات أن ننصح بألا تكون هناك أسرار في حياتنا . مع أن الكثيرين لا يرون الحياة تستقيم دون أسرار .. أم علينا أن ننصح بألا نفشي أسرارنا لأحد رغم أنه قد ثبت أننا لا نستطيع تحمل عبء السر بمفردنا ، وأن للسر الذي نعرفه ولا يعرفه الآخرون إغراء لا نستطيع مقاومته دون أن يشاركنا أحد فيه .. وأنه حتى أولئك الذين لا يجدون من يستأمنوه على سرهم . يعمدون الى طبيب نفسي يستأجرونه " صديقاً مؤقتاً بالأجر " ليودعوه أسرارهم . وهم على يقين بأنه لن يفشيها لاعتبارات مهنية ..؟؟ أم أن علينا أن ننصح بأن نسأل من سنودعه سرنا أولاً . عن مدى إمكانية حفظه للسر (ثبت أن هناك صنف من الناس صادق في الإفصاح عن طبيعته الشخصية . فيرجوك ألا تحكي له سرك لأنه يعرف أنه لن يستطيع صونه .. بينما هناك من سيقسم لك أن يحفظ سرك ، بينما هو يدبر أن يفشيه لأول من يقابله) .!!

هكذا إذن .. ليس أمامنا إلا أن ننصحك بألا تصدق من يقول لك العبارة الشهيرة : " سرك في بير " .. فهو دائماً بئر مملوء بالماء سيذوب السر في مائه ليأخذ منه كل قادم ليملأ ولو جرة .. وستكون فضيحة سرك بعدد رشفات الماء التي سيشربها كل من أتى الى هذا البئر .!!

أما زوجتك .. فلا ننصحك أن تودعها سرك .. لأنها هيأت بئرها من فرط طيبتها ، ليكون " سبيلاً " للعطاشى يشرب منه كل عابر سبيل .. ولو على سبيل الصدقة .!!

****

مسكينة تلك المرأة التي يبتليها الله برجل من النوع " الشطرنجي " .!!

إنه نوع سيء من الرجال يتميز – من التميز لا من الامتياز – بأنه رجل لا يطاق .. رجل لا يطيقه أحد ممن يعرفونه أكثر من دقائق معدودة ، ثم بعدها يفر منه فرار السليم من الأجرب .. لا يطيقه أصدقاؤه – إن كان له أصدقاء وهذا أمر نادر – ولا يطيقه حتى أبناؤه .!! وبكل أسف ، فإن هذه المرأة المسكينة التي كتب عليها أن تكون زوجته وصاحبته وخليلته ورفيقته في كل وقت وحين .. هي الإنسان الوحيد الذي يجد نفسه مضطراً أن يتحمل صفاته المقيتة تلك .!!

لا بد أنكم في شوق لمعرفة مواصفات وسمات هذا النوع من الرجال .. ولابد أن كل زوجة تتنمر الآن لمعرفة ما إذا كانت من هؤلاء المسكينات المبتليات بذلك الرجل " الشطرنجي " ، كي تتنهد وتقول لنفسها بصوت مسموع : ها قد أنصفني رأي أحدهم أخيراً .!!

النساء يعانين في كثير من الأحوال من الزوج من النوع الصامت ، الذي لا يتحدث إلا لماماً ، ولا يضحك إلا في المناسبات ، ولا يتدخل في أمور بيته إلا بعد خراب مالطة .. وهؤلاء النسوة عليهم أن يحمدن الله تعالى على هذا الابتلاء ، خصوصاً إذا عرفن " مزايا " الزوج الشطرنجي الذي سنحكي لكم عنه الآن ..

إنه يا أخواتي نوع من الرجال ، لا يتوقف لسانه عن الحركة في فمه .. كثير الكلام في كل أمر ، لا يمدح لكل ما هو جميل ولا بتعليق على مالا يروقه ، بل بانتقاد كل وضع ، والتدخل لتصحيح أماكن وأوضاع كل شيء تطاله

عيناه في بيته ، أو في بيت أصدقائه ، أو حتى وهو يركب مواصلة عامة .!!
رجل لا يتوقف برهة عن إبداء الملاحظات في كل شيء حوله ، لينتقده ويفسد سعادة صاحبه به .. فكل الأشياء في هذا العالم مرتبة على النحو الخاطئ ، ولا يعرف الوضع الصحيح لكل أمر ولكل شيء إلا هو وحده .. ولهذا فهو دائماً كثير النصح وكثير الامتعاض وكثير الرفض .!!

الرجل " الشطرنجي " هو الذي يقول لزوجته مثلاً بمجرد أن يدخل الى بيته من عمله ويجلس الى أقرب كرسي : لماذا حكيتِ لفلانة عن موضوع كيت ، قبل أن تذكري لها موضوع كذا ؟ أما كان ينبغي عليكي أن تفهمي أن موضع هذا الحديث خطأ ، وأن توقيته خطأ أيضاً .؟! ثم ينظر نحو إناء موضوع في مكان ما من الغرفة ويقول : لماذا وضعتي هذا الإناء هنا ؟ ألم أقل مراراً أن من الأفضل أن تضعيه هنا ؟ فإذا ما انصاعت امرأته لمشورته ، وصنعت ما أشار عليها به من تغيير لموضع ما انتقد موضعه ، فإنه يأتيها في اليوم التالي ليقول لها بعد أن ينظر الى الإناء نظرة المهندس المعماري : لماذا بدلت مكان هذا وقد كان هنا وليس هنا .؟ فإذا ما تسرعت وقالت له بأنك قد أشرت بذلك بالأمس ، هب من مكانه مذعوراً وراح يتهمها بالنسيان والشيخوخة المبكرة : أنت لا تسمعين جيداً ما أقول ، ولو أنك كنت واعية ومدركة وأنا أحادثك ، وتمنحين قول زوجك ما يستحق من انتباه لما فهمت مشورتي على هذا النحو الخطأ .!! أما إذا كان يجمع - لسوء حظها - بين الشطرنجية والشجاعة فإنه سرعان ما يقول لها : نعم أنا قلت لك ضعيه هنا بالفعل ، ولكن ليس على هذا الوضع الساذج الذي وضعتيه عليه .. لقد كان ينبغي أن يكون هكذا ، ثم يكمل : ولو افترضنا أنك وضعتيه فعلاً على النحو الصحيح .. فكيف يستقيم وضعه والشيء الذي الى جواره موضوع بطريقة غبية ، وكان ينبغي أن يوضع هكذا .!!

كل ذلك والمرأة / زوجته – يا حسرتاه على زوجته – تنظر إليه بدهشة ، وتتخوف من الرد عليه . وتؤثر السلامة وتتقبل الاتهام .. ثم تعده بتعديل هذه الأوضاع الخطأ في أقرب فرصه .!!

فإذا ارتدت أمامه جونلة أو قميصاً أبيض مثلاً مع بنطلون كحلي . فإنه سيقول لها بامتعاض : لو فعلتِ العكس لكان أفضل .! وإذا صاحبها لتشتري فستاناً أعجبها فهو – كما سيشير عليها – رائع جداً . لولا أن خطوطه عرضية .. ولو كانت طولية لكان أروع .!! وتقسم المرأة في نفسها أنه لو كان وجدها طولية . لقال العكس تماماً .!!

إنه رجل يدلي بآرائه كما لو أنه يجلس الى رقعة شطرنج .. ينقل هذا . ويبدل مكان هذا . ويعيد هذا .. وينتقل الى الأمام بهذا .. مع فارق هام هو أن لاعب لشطرنج ينقل القطعة من مكانها بعد تفكير عميق .. ثم إنه ينقلها ليحقق بها هدفاً محدداً .. أما صاحبنا . فهو ينقل ويشير بالنقل وينصح بالتغيير في عجالة وكيفما اتفق ومع أول نظرة . كما أن التنقلات التي يشير بها ليس لها هدف أو غرض معقول .!!

الأصدقاء يقولون عنه بأنه يتدخل – عندما يضيّفوه – فيما لا يعنيه من أمر تنظيم بيتهم . أو ملابس أولادهم . أو ترتيب مائدة طعامهم .. والمتعاملون معه – إذا كان موظفاً – يشكون من إصراره على أن يكون له رأي في كل ما يقدم إليه من أوراق . حتى لو قدمت على النحو الصحيح .. والزوجات – وللمرة الثانية ألف حسرة على الزوجات – لا يملكن أن يقلن له بأن يتوقف عن العبث الكلامي وحب الظهور النصائحي والتدخل بما لا يفيد فيما لا يعنيه .. هن لا يفعلن سوى أنهن يقلن عنه تلك القولة الشهيرة : زوجي هذا لا يعجبه العجب .. ولا الصيام في ... .!!

أنا شخصياً أعرف زوجاً من هذا النوع ، لا يرحم أحداً من شطرنجيته حتى نفسه .. فقد صاحبته منذ شهور إلى الحلاق ، وجلس ينتظر دوره بعد دوري .. لكنه سرعان ما قفز الى جانب الحلاق ، وبدأ يشير عليه – همساً حتى لا أسمعه – بأن شعري من النوع الذي لا يصلح معه إلا القص بطريقة مخالفة تماماً لما يفعل .. ويبدو أنه كان على وشك أن يتناول المقص من يد الحلاق " ليفهمه " ما الذي عليه أن يفعل في شعري .. لولا ستر الله .!! فلما مرت حلاقتي بسلام دون انصياع الحلاق لآرائه السديدة ، وقام الى دوره وجلست أنا أرقبه .. لم تمر حلاقته بسلام .. فقد انتظر حتى فرغ الحلاق من قص أحد جانبي رأسه ، ثم إذا به يشير عليه أن يتبع الطريقة الفلانية في حلاقة الجانب الآخر .. ولما قال له الحلاق إن هذا يعني عدم اتساق الجانبين ، أشار عليه أن يعود بعد ذلك ليفعل الفعل ذاته في الجانب الآخر .!! وكانت المحصلة ، أنه قام من عند الحلاق برأس شوهاء .. والغريب أنه ظل طوال الطريق يمدح لي ما أشار به على الحلاق ، ويبدي سعادته بتلك الحلاقة ، مقارنة بحلاقتي بالطبع .!!

أعرف صديقاً آخر من نفس النوع .. عزمني في بيته على سحور خفيف أقسم بأغلظ الأيمان أن أشاركه فيه .. أما أنا فأقسم لكم أنني ما تذوقت الطعام في بيته تلك الليلة ولا استمتعت به .. فكلما هممت بوضع قطعة من الكنافة في فمي ، أشار عليّ بلسانه ويديه أن أبدأ بقطعة من القطايف ، فهذا أفضل .. وما كدت ألبي نصيحته وأشرع في التهام قطعة القطايف التي أشار بها ، إلا وباغتني بصوت أجش جعل يدي تتجمد عند حافة شفتي ، مشيراً علي أنني يجب أن أسبقها بشربة حليب ، حيث ذلك يجعل لطعمها مذاقاً خاصاً .. ففعلت على مضض ، ومددت يدي بكوب اللبن نحو فمي ، فإذا به يتناول الكوب فجأة قائلاً : تأخذ شربة واحدة لا نصف الكوب ، فهذا غير صحي على الإطلاق .!! ثم واصل هكذا الى أن جعلني أكره اللحظة

التي وافقته فيها أن أشاركه سحوره " الثقيل " هذا .!! لكنني اتجهت بوجهي نحو زوجته التي كانت تجلس معنا . وسألتها عن تلك الوصفة التي ينصح بها . هل جربتها .؟؟ فصمتت وكأن على رأسها عش طير تحته بيض.. فنظر هو إليها مشجعاً فيما يبدو على الكذب . ثم سألها : ألم تتناوليه معي بالأمس وكان طيباً ؟؟ فصمتت . ثم تحت إلحاحه .. ذكرته بأنها قد تركت له السحور بالأمس . ضيقاً من إصراره على أن يطعمها تلك الوصفة .!!

نسيت أن أقول لكم . كيف تنقلت بين ثلاثة مقاعد أشار عليّ بها تباعاً قبل الجلوس الى الطعام : فهذا أفضل لأنه الى جوار النافذة . وقبل أن أستقر عليه أشار أن الإضاءة في هذا المكان ضعيفة . وأنني حبذا لو جلست هنا . ثم وقبل أن تلامس مقعدتي حنو الكرسي فزع من مكانه قائلاً : لا هذا ولا ذاك .. هنا أفضل .. لأنك ستكون قريباً من المائدة . حتى تستطيع أن تأكل بعينيك . كما يفعل الوجهاء . قبل أن تأكل بفمك .!!

ويا زوجات الشطرنجيين .. كان الله في عونكن .. وليت أهل القانون يضيفون مادة في قانون الخلع . تبيح للمرأة أن تخلع زوجها إذا ثبت لعدالة المحكمة أنه من النوع الشطرنجي هذا .. فالحياة مع مثل هذا النوع من الرجال .. بالتأكيد لا تطاق .!!

****

" منذ أفاق زوجي من قيلولته ظهيرة ذلك اليوم . وجدران المنزل لم تتوقف لحظة عن الإهتزاز على وقع صوته الذى ارتفعت عقيرته بالزجرة والهدير مسجلة درجة متقدمة على مقياس ريختر . الذى يحمله أبناؤه فى مكان ما فى اللاشعور .. وأمامه وقفت زوجته جامدة منعقدة اللسان . تنقل عينيها بين ملامحه المخيفة والتى يخيل إليها الآن إنها لم تعرف صاحبها يوماً ما - وملامح وليديها المنزويين فى الركن القلق من الغرفة . مندثرين برعب قاتل .!!

ارتدى ملابسه على عجل . وصفق الباب خلفه بعد أن هدد بالثبور وعظائم الأمور .. وظلت هى محملقة فى الباب المغلق وراءه . إلى أن أفاقتها لسعة دمعتها الملتهبة - غيظاً - عندما سقطت على ظهر يديها المتعلقة بعنقها . لتمنع غصة تكاد تخنقها .!!

استدارت - متعثرة فى خطاها - نحو مكان التليفون . وضغطت أزراره بأرقام من سطح ذاكرتها . وقبل أن يرد الطرف الآخر . طلبت من أبنها وأبنتها فى هدوء مفتعل أن يدخلا غرفتهما .!! دلف الاثنان إلى الممر المؤدى إلى غرفتهما . ثم تثاقلت خطواتهما عن عمد ليتناهى لمسامعهما صوتها يستجير بجدتهما . أن تأتي على عجل . لتضع نهاية لما هى فيه من عذاب .. فقد تغير حال زوجها تماماً . ولم يعد منذ فترة ليست بالقليلة . يعجبه شكلها أو سلوكها أو بيتها . وصارت لحظات تواجده فى المنزل - المعدودة - لا يملؤها إلا بم انضم إلى قاموسه حديثاً . من مفردات سوقية وشتائم تستحى من نظرات ابنيها المستفسرة عن معناها .!!

حملتهما خطواتهما على عجل إلى غرفتهما قبل أن تنتبه أمهما الى حالة التنصت التي هما عليها .! أغلقا الباب وجلسا متقابلين . الولد ذو الثمانى سنوات والبنت التى أطفأت شمعتها السادسة منذ أيام .. يلفهما صمت متوتر . قطعته البنت بنحيب متقطع تتخلله عبارات متشنجة . تتساءل عن أسباب ذلك التغير الذى طرأ على أبيها . وعن البكاء المستمر لأمها . وعن مدى احتمالية طلاقهما - مثلما شاهدا فى تمثيلية تلفزيونية - . ومع من سيعيشان عندئذ .!! والولد يقاطعها - بنبرة العارف - بأنها الآن أصغر من أن تفهم . وأن الأمر يتعلق بامرأة أخرى سيتزوجها . وأنه لابد أن يتدخل لأنه رجل البيت .!! انتزعت أخته ضحكة من بين دموعها العالقة فى عينيها . وراقبت يديه وهى تمتدان إلى أحد دفاتره لتأخذ من الوسط ورقتين .

عندها نظرت إليه نظرة تنم عن تلاقى الفكرة فى عقليهما الصغيرين . فانطلقت يداها هى الأخرى داخل حقيبتها ، تفتش عن قلمها الرصاص الصغير . وخطا رسالة إلى الأب .. وطوياها وجلسا ينتظران عودته . مغالبين النعاس بإرادة يفتقدانها فى الأغلب أيام الامتحانات .!!

عندما أدار الأب المفتاح فى الباب .. فوجئ بهما يجلسان على أقرب المقاعد للباب . فتح فمه لينهرهما – كعادته فى الأيام الأخيرة – ولكن هذه المرة على سهرهما حتى هذا الوقت المتأخر . قبل أن يلمح اليد المرتعشة لصغيرته ، تمتد إليه بوريقة مطوية .. استمر فمه مفتوحاً . ولكن من فرط الدهشة ، والتهمت عيناها سطورها :

" والدنا الغالى / إحنا خايفين منك يا بابا . عشان أنت بتزعق كتير ومش بتحب ماما . وهاتطلقها وتتجوز وحدة تانية . وإحنا بنحبك إنت وماما . وعايزين نعيش معاكم انتوا الاثنين . فإذا كنت مش بتحبنا وعاوز تتطلق ماما وتتركنا .. لو سمحت " رجعنا بطن ماما تانى " .. علشان ..

لم يكمل القراءة . وأطرق ساهماً إلى الأرض . ثم تهاوى إلى أول مقعد غارقاً فى عرقه وخجله .!! تفكر طويلاً قبل أن يفتح زراعيه ليندفعا نحوه بكل فرحة ويحتضناه .. وقاما ثلاثتهم بخطى مترددة نحو مخدع الزوجة التى كانت محلقة فى سقف الغرفة تتابع تراقص أشعة المصباح المنكسرة عبر دموعها . اقترب منها وبيديه صغيريه .. طبع قبلة ندم على جبينها الدافئ . قبل أن يقفز الصغيران بقبلتيهما إلى كل خد من خديها . وانطلقا جميعهم فى ضحك كالبكاء أو بكاء بدموع الفرح والندم .. وأشياء أخرى قرأها فى عينيها وقرأتها فى عينيه .. أما عيون صغيريهما . فلم ينجح أحدهما فى ترجمة أبجديتهما البليغة .!!

****

تحلقت الأم وأطفالها حول مائدة إفطار اليوم الأخير من رمضان . المائدة التى مضى عليها الشهر الكريم - إلا أياماً معدودة - كسيرة الجناح مائلة الحال . خالية من أشهى أطباقها . بسبب غياب صاحب الكرسى المنتصب عند رأس المائدة يشكو خلوه من صاحبه ..

اختلست الأم نظرة عاتبة نحو الصورة الساكنة - بلا روح - فوق الحائط المقابل . حيث يبدو صاحبها شامخاً يشع من عينيه بريق انطفأ وما عاد .. ثم ارتد بصرها - وهو حسير - إلى المقعد الشاغر عن يمينها . وانسالت دمعة لفظتها عيناها - تمرداً على لحظة الضعف التى أصابتها - فأدركتها قبل أن يلمحها أطفالها . بيدها المرمرية البيضاء من غير سوء . ثم التفتت نحوهم قائلة : كل عام وأنتم طيبون وبخير يا أبنائي ..

انبرى أكبر أبنائها كعادته فى التسرع قبل التفكير . وقال لها : وأنت بخير يا أبى .!! تلجلج وتلعثم وارتبك . واستحت الكلمات على شفتيه . ثم استجمع بقية جرأته المتسرعة وأردف : عفواً أقصد وأنت بخير يا أمى .. ثم نظر لأخويه اللذين كانا شاخصين ببصريهما نحوه يرصدان رد فعله على زلة لسانه الهوجاء . فزجرهما بعينيه . متوعداً إياهما بكلمات صامتة قالتها عيونه المتنمرة . وقطعتها الأم بكلمات مرتعشة اجتهدت أن تبدو واثقة :

" أبوكم يا أبنائي رجل أعمال . له شركات ومؤسسات عديدة . وهو دائماً مشغول بأعماله ويضطر للسفر كثيراً كى يتابع هذه الأعمال وينهى ارتباطاته .. وبالتأكيد هو يعمل كل هذا من أجلكم ومن أجل مستقبلكم .. وأنا لا أقصر معكم يا أولادي .. فقد أحضرت لكم بالأمس الملابس الجديدة للعيد . وأعددت لكم اليوم أكلات العيد المحببة . وسأخرج بصحبتكم صباح الغد إلى الحدائق . حيث تقضون يوماً سعيداً بين لعبكم المفضلة .. وفى المساء سنزور بعض أقاربنا . وستلعبون مع أبنائهم . وسيكون عيداً

سعيداً عليكم إن شاء الله .. فقولوا لى : لو أن أباكم كان حاضراً هذا العيد معكم . ماذا كان سيفعل أكثر من ذلك .؟!

بفعل ضربة تحثه على الكلام تلقاها من أسفل المائدة من أحد أخويه ، انفكت عقدة لسان أصغر الأبناء . صاحب اللثغة التى تجعل لكلامه مذاقاً خاصاً . وقال : " يا أمى ربنا يطول عمرك . ولكن فى غياب أبينا . بنبقى زي الأيتام . وبدون أبى لا طعم " للملابث الجديدة " ، ولا للنزهة .. وحرام كل يوم يمر علينا أبونا دايماً " مثافر " .!!

التقط الابن الأوسط خيط الحديث وأكمل : " ثم أن البنوك والمؤسسات والشركات كلها لا تعمل فى أيام العيد يا أمى . فمع من ينهى أبى أعماله ويتابع أشغاله .!؟ لقد قال لى خالى أن أبى قد سافر مع بعض أصدقائه لقضاء عطلة العيد فى بلد لا أذكر أسمه . وليس عدلاً أن يستمتع أبى بالعيد مع أصحابه . ويتركنا نحن لتعاسة الإحساس المرير بغيابه .

احتارت الأم بماذا تجيب على هؤلاء الأبناء . الذين خلعت عليهم الطلاقة ثوبها فجأة .. ماذا تقول لهم .. ألا يكفيها ما هى فيه من إحساس قاتل بالوحدة وعذابات غياب الأنيس الجليس .؟ أكان الأمر ينقصكم يا أبنائي لتنثروا على الجرح البارد ملحكم الأجاج .!؟

ماذا أقول لهم .؟ أأقول أن معكم كل الحق فيما تقولون .. وأنني امرأة مطلقة دون طلاق .؟؟ وأن أباكم قد خلع رداء المسئولية منذ زمن .. وأننى أحاول لملمة ما بعثره غياب الراعى .؟؟ أأقول لهم أنهم حقاً كالأيتام الذين يفتقدون دفء الأبوة فى شتاء طفولتهم الغضة .؟؟ أيحتاج هؤلاء الأطفال الآن إلى المال الذى يغيب أباهم . أم يحتاجون أكثر لأبيهم الذى غيّبه المال .؟ أأقول بأننى أكثر يتماً منهم بغيابه . وأكثر انكساراً من رجل فقد وطنه . فأنا وطن فقد رجله .!! ما أتعس وطن بلا رجل .. وما أخوف قطيع بلا راعى .!!

قامت بخطى باكية نحو جهاز التلفزيون تديره . علّ بسمة تنتزعهم من دوامة الكآبة التى احتوت جميعهم .. وفى آذانها رنت أبيات شعر حفظتها وقت أن كانت نهمة للقراءة . ولم تكن تدرى أنها ستنعى بها حالها وحال أولادها يوماً ما :

ليس اليتيم من انتهى أبواه .. من هم الحياة وخلفاه ذليلا

إن اليتيم هو الذى تلقى له .. أم تخلت أو أباً مشغولا

ثم همست لنفسها : " عيد .. بأية حال عدت يا عيد .؟ وهل للعيد رونق بدونك يا أبا أولادى .؟ هلا أتيت لتروى زرعك . وتتعهد نبتاتك .؟ أم سيأتى العيد المقبل . ومازال فى النفس حاجات إليك لا تجد إلا صداها .. ومازالت صورتك فى مكانها على الحائط . تأبى أن تنزل من عليائها البغيض إلى أرضنا العطشى .!!!

****

أدار مفتاح التشغيل في جهاز الكاسيت القابع الى جوار سريره .. بعد أن دفن فيه شريط تسجيل وجده الى جواره . عليه عبارة .. " الى زوجي وأبي وصديقي " .. وانسالت العبارات الحادة :

* تمنيتك أباً قبل أن أتمناك زوجاً .. تبكى خطاى وترتعد دموعى لو امتدت يداك لتغتال صورة الأب التى رسمتها لك فى طفولتى .. يتراءى لى إنك ما دخلت قلبى إلا من باب الأبوة ..

* قبل زواجى منك . خوّفنى كثيرون من فارق السن بيننا لكنى لم أستمع إليهم .. هل تدرى لماذا ؟ لأننى كنت مستغرقة فى سماع صوتك الحانى ينادينى : تعالى بنيتى .. لا تغضبى طفلتى .!!

* رأيت فيك - ومازلت - المتكأ الصلب الحانى الذى أريح عليه رأسى لتذرف دمعاتها لحظة الضعف الطفولية .. هل تصدق أننى أغضب كثيراً ، إذا لم تزد قطع الشيكولاتة فى جيبك عن عدد أبنائك .. بقطعة .!!

* احتملت آلام الولادة - مراراً - انتظاراً لقبلة السلامة تطبعها على جبينى ، قبل أن ترسمها على خد وليدك الجديد .. فأنا لا أغفر لك أبداً أى محاولة لتجريدى من طفولتى التى لا استلذها إلا فى ظل نضجك .!!

* دائماً - وبفرحة طفولية - أهتف عند رؤية سيارتك مقبلة فى أول الطريق : " بابا جه يا ولاد " .. هتافاً يزغرد به قلبى ، فهو لى أنا قبلهم .. بل إنني أغار من إبنتنا إذا أعجبتك تسريحة شعرها ، ولم تلتف إلى خصلتى النائمة على جبينى تنتظر عينك لتوقظها .!!

* أراوغ مشكلاتى - الصغير منها والكبير - حتى تأتى أنت ، فتفتتها بعبارتك الواثقة الشهيرة " ماتشيليش هم " .!!

* لا أنام عميقاً .. إلا عندما أشعر أن صوتك حولنا يحتوينا .. عندها فقط أتدثر بالأمان حتى النخاع وأروح في نوم لذيذ .!!

إلى هنا .. توقف الوجه الأول من الشريط ، وامتدت يداه الزوج المرتعشتان لكى تقلبه على الوجه الآخر ، وتدفقت العبارات تصافح آذنيه .. أو تصفعها ..

* لا أقبل إلا أن تعاملنى ككيان مستقل " غير محتل " .. وأرفض اعتبارى مجرد شيء .. " تابع لك " .!!

* اشتاط غضباً ، عندما تشيد أمامى - ولو بغير عمد - برجاحة عقل امرأة أخرى .. أو بقوة شخصيتها .. أو بشيء آخر أعجبك فيها .!!

* أكره اتهامك القاسى أننى أثقل كاهلك بمشكلاتنا بسيطة ، التي كان يجب أن أتعامل معها بمفردى .. وأضيق بتهكمك دائماً بأن وقتك مستنفد فى أداء ما كان بوسعى أن أؤديه بمفردى .. كي تتفرغ للتميز فى عملك .!!

* أضيق بمحاولة إنفرادك بالنجاح الذى يتحقق لك فى عملك .. وكأنك تحاول أن تتجاهل وجودى ، ودورى المؤثر في نجاحك ، بل وتصر على إنكاره .!!

* أكره كل محاولة منك للقول بأنني غير قادرة على التوفيق بين بيتى وأعباءه ، وعملى وطموحاته .. وتجاهلك لإعجاب كل معارفنا بقدراتي المتميزة في هذا الصدد .. خصوصاً أهلك .!!

* أتأذى من رغبتك الدائمة ألا تشركنى فى أمورك الخاصة ، بحجة إنك أنضج منى وأقدر على التعامل معها .. وأننى لا أملك الخبرة بها .. فهذا شيء أمقته فيك .!!

عند هذا الحد .. أوقف الشريط قبل أن ينتهي .. وأعاد إشعال سيجارته التى كانت قد انطفأت ، ثم فكر طويلاً .. طويلاً قبل أن يضغط على أزرار التسجيل ويبدأ حديثه ..

* زوجتي العزيزة : استمعت - بقلبى وعقلى - لكل عباراتك الحانية .. وكل الأخرى الحامية ، وتعجبت كثيراً لمحاولتك تصوير علاقتنا على أنها علاقة تصارع وليست علاقة تكامل ..

*نحن يا عزيزتى يكمل كل منا الآخر .. فإذا كنت أنا القوة ، فأنت الحنان .. وإذا كنت أنا العقل فأنت القلب ، وإذا كنت أنا النار فأنت الماء .!!

* أسعد كثيراً عندما أشعر باحتياجك لى .. وأتفنن في بذل الجهد لكى أحقق لك كل ما تتوقعيه منى .. ومالا تتوقعينه منى .. كزوج وكأب وكصديق .!!

* لماذا تفهمين رغبتى فى أن ترفعى عن كاهلى بعض المشكلات البسيطة وتمارسى حلها بمفردك . على إنه نوع من الانتقاد المرفوض . والاتهام بالتقصير ؟ إنها يا زوجتى العزيزة رغبة . أتمنى أن تحققيها لى مثلما أحقق لك رغباتك .

* لماذا تفهمين إطرائي لرجاحة عقل امرأة أخرى أمامك . على أنه أمر يدعو للغيرة ؟ إنها أمنية أن تنقلى عن الأخريات أحسن ما فيهن .. ولو أنه كان إعجاباً - يا عزيزتى - ما ذكرته أمامك . إن ذكره أمامك يعنى الصدق المطلق فى أمنيتى .

* نجاحك فى عملك وبيتك يشجعنى . لأنه يعنى نجاحى أيضاً . إن كلانا ذائب فى الآخر .. فلماذا تضعينى فى موقف الخصم الذى ينتظر الفشل بتشف . وينظر إلى النجاح بتسفيه .؟

* زوجتي العزيزة : أتمناك متوازنة .. فلا تطلبى مرة أن تكونى طفلة مدللة . ثم تطلبه أخرى أن تكونى مستقلة . الأجمل يا عزيزتى أن تكونى باحثة طوال الوقت عن " استقلالك فى كنف وليّك " .. استقلالاً لا يجعلك وحيدة بعيداً عنى . وتبعية لا تفقدك شخصيتك المتميزة . مزيج رائع محبب يتطلب منك أن توازنى بين مطلبيك . لتفوزى بالحسنيين .. وأنا معهما .

****

لو أنك تجرأت مرة . وسألت كل من يقابلك من الرجال عن سر تعاسته تلك المرتسمة على وجهه . ومن هذا الذي يقف وراءها .. لقال لك نصف عدد من ستسألهم على الأقل بلا تردد . بأنها امرأته ولا أحد غيرها .. زوجته أو حبيبته .. ولتريث ربعهم قبل أن يلف ويدور في الحديث لينتهي أيضاً الى أنها امرأته لكنه لا يدري .. ولصمت الربع الأخير - خوفاً أو مكابرة - دون أن يفصح لك أنها أيضاً .. امرأته .!!

أنصار المرأة والمعجبون بها والمخدوعون فيها . سوف لا يعجبهم هذا الكلام .. وسيعارضون بشدة .. وهذا في نظري بسبب أن الغباء هو أحد أهم أسباب تعاستهم الى جانب المرأة .!!

حاول عزيزي الرجل أن تمسك بورقة وقلم . وتحسب في ثلاثمائة وست وستون يوماً في العام : كم يوماً قضيه سعيداً مع امرأتك .. وما هو الثمن " الفادح " الذي دفعته لقاء تلك الأيام السعيدة .؟؟

منطقي جداً أن يكون عدد هذه الأيام السعيدة هو رقم متواضع تخجل من ذكره .. ومنطقي أكثر ألا تتذكر يوماً سعيداً واحداً قضيته معها . رغم فداحة ما تدفعه .!! الأقدمون حسبوها جيداً ونبهونا الى أن ما يقضيه الرجل من أيام عمره الطويل مع امرأته في عسل ودون تكدير . هو شهر واحد فقط .. شهر واحد طوال عمره . هو ما قالوا لنا عنه بأنه " شهر العسل " .!! شهر واحد .. وليت البعض يكمله .!!

ولماذا نذهب بعيداً ؟ تعالوا معنا الى مستشفى الأمراض العقلية في أي بلد عربي أو أجنبي .. لنحصي معاً كم عدد الرجال المقيمون فيه بسبب نسائهم .!؟ وسوف يقول لنا ثلاثة أرباع المقيمين (الربع الباقي أخرس لا يتكلم لأنها قطعت لسانه) . أنهم قد جاءوا الى هنا هروباً من عقل زوجاتهم الراجح .. وعقلانيتهن .!!

وكل من حاول أن يتعرف الى أسباب الاكتئاب الذي يعاني منه معظم الرجال في العالم شرقه وغربه .. اكتشف دون غرابة . أن المرأة هي السبب الأصيل في اكتئاب الرجل .!!

وأنت عندما تستمع الى أم كلثوم في واحدة من أغانيها . وترى الى جوارك أحدهم يضع يده على خده وهو يستمع .. فتتساءل عما يسيطر على عقله في تلك اللحظة التي يهيم فيها مع معاني الأغنية : هل هو الوطن .. هل هي الصحة .. هل هو المال .. أبداً .. ولا واحدة من هؤلاء .. إنها المرأة ولا أحد غيرها

.. المرأة التي أحبها فهجرته .. أو أرضاها فأغضبته .. أو أسعدته يوماً ثم عاقبته على تلك السعادة ، فقررت أن تنكد عليه الأيام التالية .. !!!

لقد تصورت كثيراً أن يكون عالمنا عالم بلا نساء ، واكتشفت أنه سيكون أفضل كثيراً بالنسبة للرجال دو استثناء .. إلا إذا كنا ممن يتلذذون بالألم والسهد واللوعة .. والتعاسة .!!

وحتى يكتمل المنظر ، فإننا نضيف .. أنه حتى لو كان هذا العالم الذي نقترحه بلا نساء ، عالم أتعس وليس أفضل .. فإن السر في تعاسته ستكون هي المرأة أيضاً .. حيث سرها " الباتع " الذي يعمل عمله وهي حاضرة وهي غائبة .!! فالمرأة بحق هي سر تعاسة الرجل ، وهي الى جواره .. وسر تعاسته ، وهي بعيدة عنه .!!

والى كل من يعارضنا في هذا القول ويتباهى بسعادته مع المرأة .. ويتهمنا نحن بأننا " معقدون نفسياً .. وإن " فيه واحدة في حياتنا كرّهتنا في النساء جميعاً وفي العيشة واللي عايشينها " .. تعالوا نسأله : وأنت .. ما هو سر سعادتك بامرأتك .؟؟ سوف يكابر كثيراً ويحكي قليلاً .. ويدلل ويتلجلج ويتلعثم ويدافع ويستثني .. ثم إذا به فجأة ينفجر في نوبة بكاء مرير أو في نوبة ضحك هستيري .. ليكتشف معنا في تلك اللحظة أنه كان مخدوعاً كبيراً في إحساسه الزائف بالسعادة مع المرأة .!!

فالرجال نوعان : إما أذكياء وإما أغبياء . الأذكياء تعساء لأنهم مدركون لفداحة الثمن الذي يدفعونه لقاء اقتناص لحظات متعة مع المرأة .. وتعساء لأنهم لا يمررون تصرفات المرأة دون تحليل عقلي ينتهي في الغالب الى أنها إما حريصة على تملك الرجل باسم الحب ، أو لئيمة لا تمتلك ما يغري الرجل بالبقاء الى جوارها فتكيد له بلؤمها ، أو غبية لا تعرف قدر رجلها وتنقص من شأنه لصالح شأنها ، أو تعاني من عقدة أبوية تجعلها تخشى غدره فتدفع عمرها معه ثمناً للدفاع عن لحظة غدر قد لا تجيء .!!

أما النوع الثاني من الرجال وهم الأغبياء . فهم تعساء بغبائهم .. وتعساء بتوهم حب المرأة لهم .. وتعساء بتصديق أن ما هم فيه من سعادة هو بسبب المرأة ..!!

أما المرأة .. فهي مخلوق تعيس حزين كئيب خائف قلق متوتر .. لأسباب بعضها بيولوجي . وبعضها اجتماعي . وبعضها نفسي .. ويستحيل أن تجتمع كل تلك الصفات في كائن . ويكون قادراً على منح السعادة لأحد ..!! إنها تنتظر من يسعدها ويخرجها من تعاستها .. وإذا حدث وفعلها الرجل وأسعدها . فهي لا تصدقه .. وإن صدقته فهي لا تصدق نفسها .. وإن صدقته وصدقت نفسها . فهي لا تأمن بنات جنسها المتآمرات دوماً على رجلها لخطفه منها عندما تحين الفرصة .. خصوصاً في ظل " هبله " و " حيوانيته " و " عينه الزايغة " التي تعرفها جيداً ..!!

أقسم أنه لا توجد امرأة تحب رجلاً على الإطلاق .. لكنني أؤمن أن المرأة تحب " حب الرجل لها " ..!! وأتحدى أن تحب امرأة رجلاً . دون أن يكون ذلك في مقابل حبه لها . بل وتفانيه في هذا الحب . بل وتجديد عهد هذا الحب كل لحظة .. وإلا فلا حب ولا يحزنون .. ومن لا يصدق عليه أن يبلغ امرأته التي تهيم به حباً الآن أنه لم يعد يحبها .. ويبلغنا بفحوى التقرير الطبي الذي سيستخرجه من المستشفى التي سينقل إليها فوراً " بعد ما ياخذ " الطريحة " اللازمة ..!!

ومثلما قالوا " يا ميت ندامه على اللي حب ولا طالشي " .. ليتهم يقولون " ويا مليون ندامه على اللي حب وطال " .. فهم بالتأكيد الفئة .. الأكثر تعاسة ..!!

****

الفصل الخامس

بدونك أفضل

بالطبع أنا بالذات . من دونك أنت بالذات .. أفضل .!! وهذا ليس معناه أنك لا تصلح لإمرأة أخرى غيري .. بل ربما تكون بالنسبة لغيري فرصة عظيمة لا تتكرر .. لكنك بالنسبة لي كنت كارثة حمقاء الخُطا . أجمل ما فيها نهايتها الرائعة التي خلصتني منك . ومن عيشتي معك ومعاشرتي لك .!!

الآن فقط أستطيع أن أستقبل أمي في منزلي . دون تلميحات سخيفة منك أنها ضيف غير مرغوب فيه .!!

الآن فقط أستطيع أن أهرع إلى بيت أخي لأعود ابنه المريض . دون أن تلاحقني تليفوناتك تستعجلني وتنغص علي زيارتي .!!

الآن فقط أستطيع أن أنام ملء جفوني . دون أن توقظني على أنغام التسفيه والتحقير والحط من الشأن لمجرد أنني تعبت فنمت .!!

الآن فقط أستطيع أن أطبخ وقتما أشاء . وأتناول أي طعام وقتما أشاء . دون أن يذكرني أحد أنه ما تزوجني إلا لأدبر له أمر طعامه . طالما أنه يدفع ثمن هذا الطعام .!!

الآن فقط أستطيع أن أشعر بآدميتي وإنسانيتي .. مقابل سنوات من الحيوانية قضيتها بصحبتك وفي معيتك .!!

لم أكن أتصور يوماً أن انتقاداتي لبعض تصرفات أبي عندما كنت وأنا صغيرة أرى غضبه على بعض الأمور مع أمي . هي الجنة بعينها مقارنة بما رأيته من جحيم تصرفاتك معي في بيتك ..

لم أكن أتصور وأنا أنصح بعض صديقاتي اللاتي تزوجن قبلي . أن يتروين مع أزواجهن . وأن العيب دائماً في المرأة التي يشكو زوجها من شيء ما في بيتها .. إلى أن تزوجتك واكتشفت أن المرأة كائن مظلوم عندما يكتب له قدره أن يتزوج رجلاً أنانياً حاقداً بخيلاً موسوساً مثلك .!!

أنا الآن من دونك أفضل .. وكلما امتد بي الوقت بدونك كلما أصبحت أفضل وأفضل .. ذلك أنني الآن في فترة النقاهة من المرض الذي ألم بي بسبب فيروسك غير القابل للشفاء . لأنهم لم يخترعوا له حتى الآن مضاداً حيوياً إن صح أن للفيروسات مضادات .. وعما قريب ينتهي الأمر كله . وأنسى تماماً تلك الفترة التي امتدت سبع سنوات معك . عشت فيها مجرد كائن يأكل ويشرب وينام ويخدم الآخرين .. لأعود كائناً أكثر احتراماً يعيش لنفسه قبل أن يتفانى في خدمة الآخرين .. الذين لا يستحقون .!!

أنا الآن من دونك أفضل .. وكدت أن أصبح على قناعة أنني من دون أي رجل أفضل .. ويبقى أنت تسأل نفسك أنت الآن : هل أنت الآن من دوني ..أفضل .؟؟

****

بالفعل .. تبدو الحاجة الآن ملحة لتحسين صورة المرأة العربية .. بعد كل هذا التشويه الذي حدث للصورة النسائية . خلال الخمسين عاماً الماضية التي لم يمر يوم منها . إلا وركب فيه أحد الهواة موجة الكتابة عن تحرير المرأة من " استعمار " الرجل المحتل . ولم يمض أسبوع إلا واعتلى فيه أحد المحترفين صهوة جواد الحديث " الممل " عن حتمية مساواة المرأة بالرجل .!!

لقد انطلقت من يومها الموجة تلو الموجة عبر الزخم الإعلامي . لترتفع فوق كل الموجات المضادة .. وانفلت الجواد من حينها يعدو ويعدو ليسبق كل الأحصنة . حتى الأصائل منها .. ومن يومها .. لم يعد هناك موضوع أثير في الكتابة أو الحديث إلا عن حقوق المرأة دون واجباتها .. ولم يعد يعلو صوت على صوت معركة المرأة . في سبيل نيل استقلالها عن الرجل .!!

هذا التفوق الكتابي والإعلامي . جعل بعض الرجال البسطاء ينبهرون في أول الأمر بهذا النوع من " التحضر " الثقافي .. ربما من باب أنه موضوع جديد

- مثل دخول التلفزيون إلى البيوت وظهور التليفون المحمول - فاستقطبت الحكاية مريدين ومؤيدين منهم . فحملوا لواء دعمها .. سواء بالقبول الصامت . أو بالمشاركة الجاهلة .!!

واستمر الحال على هذا المنوال . إلى أن اكتشف بسطاء الناس - وقليل من أذكيائهم - أن الأمر قد استفحل وزاد عن حده .. وأنهم قد خدعوا في القصة .. وأنهم قد استدرجوا من حيث لا يدرون إلى " شق الثعبان " .. فعاد المؤيدون والمريدون من منتصف الطريق . يعلنون أنهم ليسوا أبداً مع هذا الشطط ولا ينبغي لهم .. وتوقف المشاركون منهم عن المساهمة بالكلمة والرأي . وعادوا يبحثون من جديد عن قضية أخرى يتحمسون لها . لعلهم يحققون فيها السبق كما كان لغيرهم في قصة تحرير المرأة .!!

هنا فقط انكشفت العورة وتعرت القضية .. فقد وجد النساء أنفسهن - وهم صاحبات الرمة - بمفردهن في الميدان . دون حشود أو عتاد كما كان الحال من قبل .. اللهم إلا من تلك القلة الانتهازية الرجال التي بقيت في الساحة تنتظر ثمن دعمها للقضية . ووفرة من النساء الحيزبونات اللواتي بلغن من العمر أرذله ولا ناقة لهن في القض .. فلم تجد النساء أمامها من طريق إلا أن تنطلق بحماس نحو إكمال ما بدأه لهن الرجال .. على الأقل حفظاً لماء الوجه .. وربما خوفاً من اتهامهن بأنهن غير معنيات بالأمر ولا يستحققن ما نادى به الرجال لهن .!!

هنا حدث التشويه بعينه .. نعم حدث التشويه والمسخ عندما تكلمت المرأة عن قضيتها دون تاريخ في الكلام . أو جغرافيا .. حدث عندما ناقشت دون سابق قدرة على النقاش .. حدث عندما حاولت أن تستدل على صدق قضيتها دون امتلاكها لأدوات الاستدلال .. هنا ظهر الجهل وانكشف المستور المتواضع . الذي كان يختبئ تحت عباءة اللباقة والبلاغة التي امتلك

ناصيتها الرجال الرواد الذين بدأوا لها مسلسل الدفاع عن القضية .. قبل أن ينسحبوا منها ويتركوها لصاحباتها .!!

والآن بلغت الحكاية الذروة .. وأصبحت الصورة الواضحة هي وقوف النساء بمفردهن في الساحة . يحاولن الحفاظ " الساذج " على المكاسب التي استلبها لهن الرجال من حقوق أبناء جلدتهم .. وفي خلفية الصورة يبدو هؤلاء الرجال وهم ينسحبون من ساحة المعركة .. بل ويبدو واضحاً توجه بعضهم للوقوف في صفوف المعسكر المقابل . هجوماً على القضية .!!

وفي كل يوم يمر .. يظهر للجميع أن المرأة ليست جديرة بكل هذا الاستقلال الذي هلل الكثيرون من أجله .. وأن قليل من الاستقلال للمرأة مع كثير من " التبعية للرجل " . يمكن أن يصلح شأنها وشأن مجتمعها . ربما أكثر من هذا الانفلات المسمى زوراً وبهتاناً بالاستقلال .!!

في كل يوم يمر .. يبدو للكثيرين . كيف أن ما نال المرأة من تشويه بسبب تصديها بنفسها للقضية . هو أكبر بكثير مما تحقق لها من جراء تصدي الرجال لها .. هذا إن كان هناك شيء قد تحقق .!!

والسؤال الملح الآن : من هو الذي بمقدوره أن يتصدى لإزالة هذا التشويه وإعادة الصورة إلى ما كانت عليه من بريق .؟!

هل هي المرأة .؟؟ أم هو الرجل الذي ورطها وصنع هذا بها . عندما زين لها بعض الضلال على أنه كل الحق .؟؟

أنا لا أظن إلا أن المرأة وحدها هي التي تستطيع ذلك .. وبالتأكيد فإن البعض ينتظر الآن أن أقول له : وماذا ستفعل المرأة كي تنجز تلك المهمة .؟؟ لكنني سوف أخيب انتظارهم . وأقول لهم بأنه ليس عليها أن تفعل شيئاً .!! إن ما عليها الآن هو فقط ألا تفعل .!! فلم يبق شيء لم تفعله المرأة .. ولم يبق الآن إلا أن تتوقف عن كل هذا الذي فعلته .. وأن تترك الرجل يفعل

لها ما يستطيعه من أجلها .. ومن أجل نفسه . ومن أجل أبنائه . ومن أجل مجتمعه .!! ليس عليها إلا أن تتركه يجاهد من جديد في سبيل إعادة البريق إلى الصورة النسائية وإزالة التشويه عنها .. مدعوماً بإحساسه الآمن أن خطوطه الخلفية محمية . وأن عمقه الإستراتيجي مطمئن .!!

فهل تفكر المرأة بالفعل في تحسين تلك الصورة . وتقرر أن تتوقف عما تفعله الآن .. وتترك الرجل يفعل لها ما لم تستطع أن تفعله لنفسها هي .؟؟ أم أن المكابرة والعناد سوف يجعلانها تقضي على البقية الباقية من صورتها .. المشوهة .؟!

****

عندما تتمعن في القول المأثور الذي تناقلناه عبر مئات السنين : (ثلاث لا أمان لهم : الدهر ولو صفا لك .. والحاكم ولو قرب منك .. والمرأة ولو طالت عشرتها) .. تجد أن الأمرين الأولين منطقيين وعقلانيين .. فالقرب من الحاكم هو نقمة مثلما يمكن أن يكون نعمة . وكل ما ستقوله في حضرته أو غيبته محسوب عليك . وقد تضيع رقبتك في رأي أو عبارة قد لا تقصدها . ذلك أن الحاكم مهموم بإحكام قبضته على شمل حكمه أكثر من همه بقريبك . وهو لن يمنحك ما يفك تلك القبضة حتى لا يطمع فيه الآخرون .. فلا أمن إذن ولا أمان .!!

والدهر كما قالوا عنه " يوم لك ويوم عليك " .. وكما ورد في الذكر . أن الله سبحانه في شأن تصريفه للدهر (كل يوم هو في شأن) . وشأنه كما يقول المتصوفة أنه في كل يوم " يرفع أقواماً ويخفض آخرين " .. فلا أمن إذن ولا أمان .!!

أما المرأة .. فكيف لا يكون لك معها أمان رغم طول العشرة .؟؟ وهل من الممكن أن تغدر بك المرأة بعد عشرة عشرين أو ثلاثين عاماً .؟ وهل هذا يحدث

- لو صدق - لفطرة مغروزة في أصل تكوينها .؟ أم هو مرتبط بظهور نقيصة منك حيالها .؟ أو هو مرتبط بـ " الخوف المرضي " من أن تستبدلها بامرأة أخرى .؟؟

عندي حكايتان .. إحداهما قديمة تراثية ، والأخرى حدثت بالأمس فقط .. وسوف أبدأ لكم بالقديمة ..

" يروى أن رجلاً كان يعمل راعياً للغنم .. كان يمر كل صباح على أحد القبور في طريق رعيه ، فيجد امرأة جميلة تجلس أمام هذا القبر تبكي وتنتحب وتولول .. وقد تبين له من بين ولولتها قولها : (آه يا زوجي يا حبيبي.. يا من تركتني للدنيا الطامعة اللئيمة ورحلت .. والله لا أنساك حتى تلتقي روحانا يوم الموقف العظيم) .. ثم تواصل بكاءها حتى غروب الشمس .. ثم تلملم شملها ، وتقوم إلى صفيحة ماء بجوارها فترش ماءها على القبر قائلة : اللهم اغسله بالماء والثلج والبرد واجعل قبره برداً وسلاماً .. وتغادر القبر بعد وصلة بكاء ختامية قصيرة ، لتعاود زيارتها صبيحة الغد.!!

استمرت المرأة على حالها هذا عاماً أو يزيد ، والراعي المسن يراها كل يوم ، ويتعجب من ذلك الإخلاص النادر من امرأة في هذا الزمان .. إلى أن حدث أن رآها ذات صباح - دون بكاء هذه المرة - وهي ترفع جلبابها وتهوّي به على تراب القبر (أي تحرك الجلباب كالمروحة على التراب وكأنها تجففه).. فأخذه الفضول واقترب منها وسألها : في كل يوم منذ عام أراك تبكين صاحب القبر من الصباح وحتى الغروب .. والآن أراك تفعلين ما تفعلين ، فما الذي حدث يا مصونة .؟؟ نظرت إليه المرأة وصمتت قليلاً ، ثم قالت له : لقد كنت قد عاهدت زوجي يا شيخ ألا أتزوج من بعده ، إلا إذا جف ماء قبره .. وقد ظللت على عهدي معه أرش الماء على تراب القبر حتى لا يجف ، إلى أن جاءني بالأمس رجلاً كريماً وسيماً يطلب يدي ، فوعدته أن أبلغه رأيي اليوم .. وقد

وجدت في نفسي ميلاً للزواج منه . وأيقنت من عدم استطاعتي أن أبقى بلا رجل .. فجئت اليوم أستعجل جفاف ماء القبر. حتى يتسنى لي الزواج دون أن أكون قد حنثت في قسمي مع زوجي .. الغالي .!! فغادرها الرجل . وهو يضرب كفاً بكف .. ويردد المقولة الشهيرة " ... والمرأة ولو طالت عشرتها " .!!

أما القصة التي حدثت بالأمس . فقد سمعتها عبر الهاتف عندما اتصل بي صديق يسألني عن أمر ما .. ولكن قبل أن أطلعكم على فحوى السؤال . أقول لكم أنه كان متزوجاً من امرأة جميلة وطيبة . وله منها ابن يبلغ ست سنوات .. وقد دب بينهما الخلاف فجأة ذات يوم . فتوسطنا أنا ومجموعة من الأصدقاء لنقرب بين وجهتي النظر .. لكننا وجدنا بعد معرفة سر الخلاف أن المسافة أبعد من التقريب . فتركنا الأمر .. وبعد فترة استدعانا الزوج لنحضر تصفية ما بينهما من أمور بعد أن حدث الطلاق وأصبح بائناً بعد انتهاء فترة العدة .. ووجدنا أن مطالب المرأة عادلة ومنطقية . بينما كانت مطالبه هو متعسفة وجائرة .. هي تقول بأنها لن تتزوج . وبالتالي فهي تريد شقة الزوجية لتعيش فيها هي وابنها .. مع نفقة الطفل وإيجار الشقة شهرياً ورسوم مدرسته الخاصة وتكاليف الدروس الخصوصية وتكاليف اشتراكه في النادي وتكاليف هدايا المناسبات الدينية والاجتماعية التي تمر به كأي طفل لا تريد له أن يشعر بالحرمان .. بينما هو يقول بأنه سيتزوج قبل مرور شهر . وأنه يريد ليعيش معه . ويريد منها أن تخلي له الشقة ليعيش فيها .. وقد بذلنا جهداً خارقاً لإقناعه بأحقيتها في الشقة وبأحقيتها في ابنها طالما أنه سيتزوج .. وقد قبل الرجل على مضض برأينا . وإن كان قد تشدد في قيمة مبلغ الإنفاق والنفقة .. وقبلت هي صاغرة وشاكرة !!

بقيت بعد هذا الانفصال أكثر من شهرين أتلقى مكالماتها في كل وقت . لتسألني عن أحوال الولد : لقد فعلت معه كذا وكذا اليوم . فهل هذا خطأ

تربوي أم سلوك أمومي صحيح .؟؟ لقد ذهبت به إلى حفل عيد ميلاد صديقة لي ففعل كذا وكذا . فهل ما فعله صحيح أم لا .؟؟ لقد طلب مني اليوم كذا وكذا . فهل ألبي مطلبه أم أرجئ الأمر .؟؟ وهكذا ظلت تستفسرني . حتى حسبت أن تلك المرأة سوف يصيبها بعض الجنون عما قريب من فرط تعلقها بابنها واهتمامها بكل أمر من أموره .. وكأنها لا شأن لها في الحياة يلهيها عنه . رغم أنه تعمل في وظيفة محترمة لها أعباؤها .!! لكنني كنت أبدي للحق إعجاباً خافياً . بحرصها وإخلاصها لابنها وتجاهلها لذاتها .. رغم شبابها وجمالها الظاهرين .!!

بالأمس فقط . جاءني صوت زوجها عبر الهاتف . وكان قد انقطع عن مهاتفتي طيلة الفترة السابقة .. ربما لاعتقاده أنني كنت من المنحازين لامرأته ولم أنصره عليها يوم حدث الخلاف والطلاق .!! سألني وكان سؤاله محدداً ودون سلام أو كلام : لو سمحت يا دكتور .. هل أقول له أن أمه قد تزوجت . أم أؤجل هذا إلى وقت لاحق يكون فيه أكبر سناً وأكثر إدراكاً .؟؟ ألجمتني المفاجأة .. لكنني تماسكت وسألته : وهل هي تزوجت بالفعل .؟؟ أجابني بابتسامة أحسستها في نبرة صوته دون أن أراها : نعم يا دكتور .. منذ أسبوع اتصلت بي وطلبت مني الحضور كي أتسلم شقتي وابني . لأنها قررت الزواج من رجل تقدم لها واشترط عليها ألا يكون بصحبتها أبناء .. والولد الآن عندي منذ أسبوع . بينما زفت هي إلى عريسها بالأمس فقط .. فهل أخبر الولد أم لا .؟؟

وبدون أية تعليقات .. هل للنساء أمان .. أم أنهن كما قالوا " لا أمان لهن .. ولو طالت عشرتهن " .؟؟

****

مادام لم يعد بمقدورنا أن نرد المصائب عن رؤوسنا .. ومادامت المصائب لا تريد أن تستحي وتتراجع عن غيها الذي تمارسه علينا منذ زمن ليس بالقليل .. ومادمنا عاجزين عن مقاومتها ، أو الرد بقوة – أو حتى بضعف – على من يرسلونها علينا .. فليس أقل من أن نمارس حقنا " الشرعي " في تقنين الإصابات التي لحقت بنا وتوصيف علاجاتنا منها .. إلى أن نتمكن ذات يوم من التعامل مع تلك المصائب – ومن يرسلونها – عند المنبع ، وليس عند المصب ..!!

آخر تلك المصائب التي داهمت رؤوسنا نحن معشر الرجال ، هو قانون " الخلع " الذي استحدث في قانون الأحوال الشخصية بمصر ، والذي أحدث جلبة لا أول لها .. ويبدو أنه لن يكون لها آخر .. القانون / المصيبة الذي أضافه الشارع في التعديل الجديد ، وجعله حقاً شرعياً اجتماعياً للمرأة .. مثلما " كان " للرجل حق الطلاق يوماً ..!!

وكما قلنا .. فإننا ما دمنا لا نملك رد هذا القانون المجحف .. ربما بسبب ارتفاع المد النسائي في كثير من البلدان العربية بأقلام وأفكار الرجال المخدوعين .. وربما بسبب ضعف الخطاب الرجالي في مواجهة المرأة ، أو موالاته للمرأة وقضاياها الساذجة تحت مسمى التحضر الزائف .. فإننا نملك على الأقل مناقشة الأوضاع المترتبة على هذا القانون ، إلى أن يأذن الله بانقشاع الغمة وإلغاء هذا القانون المصيبة ، أو على الأقل تقنينه بحيث لا يطبق إلا على الحالات الحرجة التي تستحقه ، والتي يكون فيها آخر العلاج " الكي " ، لا على كل الحالات التي تطلبه دون تمييز ، كما هو حادث الآن في المحاكم وبشكل مثير ومستفز وغير مسبوق ..!!

البند الأخطر في هذه المناقشة التي نملكها ، هو بند " الرجعية في الخلع " .. مثلما الرجعية في الطلاق ..؟؟

فنحن نعرف أن الرجل الذي يطلق امرأته ، له حق أن يراجعها أثناء فترة العدة إن هو ندم أو شعر بخطئه في طلاقها أو كان في ثورة غضب .. وله في طلاقها مرتان ثم طلقة بائنة بعد ذلك .. فماذا عن خلع المرأة للرجل .؟ هل لها فيه رجعة ، إن هي ندمت أو شعرت بالخطأ والتسرع .؟ وهل الرجعة هذه تكون في فترة محددة يمكن أن نطلق عليها " فترة العدة " للرجل .؟؟

إن المشكلة الخطيرة التي أظهرتها قضايا الخلع التي حكمت بها المحاكم مؤخراً ، هي أن بعض النساء بعد أن امتلكت حريتها وخلعت نفسها من زوجها - استناداً لنص القانون - اكتشفت بعدها مباشرة أنها اختارت الطريق الخطأ .. وأنها إلى حد كبير " نادمة " ، وأنها تريد أن ترجع عن قرارها .. ولكن أين السبيل .!!

فإذا كانت المرأة تتصور أن خلاصها من الرجل الذي تشعر بالضيق من عشرته ، سيكون نهاية لكل آلامها وبداية لسعادة جديدة منفردة أو مع رجل آخر .. فإنه عندما يتحقق لها ذلك ، ربما تكتشف أن ما كانت تتصوره هو أمر بعيد المنال .. وأن حياتها بلا رجل هي الجحيم بعينه .. وأن فرص اقترانها برجل آخر أفضل من زوجها ، هي فرص تكاد تكون معدومة .. حتى من باب أنها امرأة لها " سابقة أولى " في خلع الأزواج .. وعندها ، لابد أنها ستندم ، وستتمنى لو عاد الأمر إلى ما كان عليه .!!

فإذا كان القانون المسمى بقانون الخلع يبتغي بحق مصلحة المرأة .. فلماذا لا تضاف إليه فقرة ملحقة به ، تجيز أن تراجع المرأة زوجها في فترة محددة يمكن تسميتها " عدة الزوج المخلوع " .!؟

أنا أعتقد أن عدة المرأة التي تخلع زوجها لا بد أنها قائمة .. ويستحيل أن تتزوج من غير الزوج إلا إذا انتهت عدتها ، حتى تتيقن من عدم وجود حمل من " خليعها " .. فلماذا لا تكون للزوج المخلوع عدة مماثلة .؟؟

هذا القانون – شأنه شأن كل قانون – له ضحاياه .. ومن الإنصاف بالطبع أن نبذل الجهد لتقليل عدد هؤلاء الضحايا . بدلاً من بذل الجهد بعد ذلك في منعهم من الانحراف ، أو علاجهم من آلامهم النفسية المتوقعة .!!

****

قال لي صديقي المحامي : " لم أكن أعرف أنه يمكن أن يكون هناك امرأة متزوجة " مطلقة " .. كنت لا أعرف إلا نوعاً واحداً من الطلاق .. الطلاق الذي يعني الانفصال التام بين الزوجين في المكان بعد إقراره على يد مأذون .. لكن .. أن أكتشف أن هناك طلاقاً يمكن أن يحدث بين زوجين دون انفصال بينهما ، وكأنه لا يزال زواجاً معلناً أمام الناس . فهذا ما لم أكن أعرفه حتى جاءتني تلك المرأة " الجميلة جداً " بصحبة إمام المسجد القريب من مكتبي ، لتستفتيني في مدى " قانونية " ما هي عليه من حال ، بعد أن استراحت إلى " شرعيته " بفتوى مولانا أمام المسجد .!! لقد تزوجته وهي تعرف من تربيتها في بيت والديها المعنى الحقيقي للزواج .. فقد نشأت في أسرة يعرف كل أفرادها أمور دينهم وحقوق العباد عليهم .. وتعرف نساؤها كيف للمرأة أن تقدس الحياة الزوجية مهما كان من أمر الزوج معها .. هكذا علمهن بقوله أبوهم ، وهكذا لقنتهن بسلوكها أمهن .!!

عاشت مع زوجها واهبة نفسها لحياتها الزوجية فقط .. بذلت جهدها في أن تحول تلك الحياة إلى جنة يرتع فيها آدمها مع حوائه ، التي قصرت أنوثتها على جدران مسكن الزوجية عندما يكون زوجها بداخلها .. فأصبحت حياة زوجها – بشهادته – كلها سعادة ورفاهية ونعيم .. حتى أن الناس من حوله كانت تحسده على كل شيء في بيته .. من أول جمالها ، وحتى نظافة دواسة الأقدام على باب منزلها .!! استمر ذلك النعيم مدة تزيد على عشر سنوات .. ثم فجأة قوبل كل ذلك الإخلاص وتلك السعادة العارمة

التى صنعتها لزوجها بخيانة قاسية منه .. نعم خيانة تهتز لها أكثر القلوب قسوة .. فقد اكتشفت ذات صباح غير جميل أن عيون الزوج الخائن قد تفتحت على ابنة الجيران التي كان يساعدها في دروس كلية الهندسة التي تخرج منها من زمن غير بعيد .!! نسى فجأة أن له ابنة في عمرها تنتظر الزواج .. ونسي أن له زوجة من الوفيات المخلصات بشهادة الجميع . و تتمتع بكل صفات المرأة الجميلة والزوجة المحترمة . بشهادة أمه التي لا يعجبها العجب .!!

جاءت لتقول لي أمام الشيخ الإمام . أنها لم تفعل بعد اكتشافها لعلاقة زوجها بتلك الفتاة . سوى أنها قررت أن تسحب من تحت قدميه تلك السعادة العارمة التي هيأتها له منذ زواجهما .. وأنها أغرقت نفسها عمداً وعن وعي في هم مقيم .!!

رفضت وساطة كل من جاء من أهله - بعد أن انتشر الخبر - يحاول تصبيرها على خيانته التي قالوا أنه لن يلبث أن يكتشف أنها نزوة تنطفئ جذوتها بعد حين ويعود إلى زوجته المخلصة الوفية .. وعاندت كل من جاء من صديقاتها ينصحنها أن تطلب الطلاق ثأراً لكرامتها التي أراقها تحت قدمي تلك الفتاة اللعوب . التي انتزعته من جنة بيته السعيد إلى نار شبابها المتقد .!! رفضت وعاندت . ولم تفعل شيئاً سوى أنها قالت له بعد عدة أيام وبهدوء شديد : بقدر ذلك الحب والعطاء والوفاء والجمال الذي منحته لك .. ومن أجل ابنتي فقط وليس من أجل أحد غيرها . أنا لن أطلب منك الطلاق .. ورغم صغر سني وجمالى وحسن خلقى . فأنا لن أترك بيتي لأنتظر من يخطب ود جمالي وخلقي وأرد به على إهانتك .. فقط سوف أعيش في بيتك زوجة أمام الناس . لكن أبداً لن أعاشرك أو أصبح لك زوجة يوما ما إلى أن يأذن الله بانتهاء أجلي أو أجلك .!! ورغم أنك تعلم أن كرامتى فوق كل

شيء .. فأيضاً لن أطلب الطلاق .. لن أطلب يا أبا ابنتي منك شيئاً سوى أن تتجنب إلقاء السلام عليّ إن لاقيتني في حجرة أو صالة أو مطبخ .. فأنا – وليسامحني الله – لن أرد عليك السلام .. حتى لو انتظرني عند الله عذاب شديد .!!

لم أكن أعرف بماذا أفتاها مولانا عن شرعية ما اختارته .. لكنني أكبرتها وأكبرت رجاحة عقلها ، وطمأنتها أنها في مأمن قانوني من أي مخالفة .. إلا إذا قاضاها هو في ساحات المحاكم ، متهماً إياها بالنشوز وعدم تمكينه من الحصول على حقوقه الزوجية .. وساعتها سيكون لكل حادث حديث .!!

بعد أن انتهى صديقي المحامي من حكايته ، وبخته كثيراً على أن وافقها على ما تفعله .. وعلى أنه لم يقل لها بأن الوفاء لا يكون إلا لمن يستحق .. وأن الخنوع في المواقف التي تحدد مصائرنا هو قناعة من نوع حقير .. وبقاؤها في منزلها إما أن يكون بعد تسامحها وغفرانها وعفا الله عما سلف على ألا يعود لمثل ذلك ، وإلا فالطلاق ما شرع إلا لمثل هذا .. ياصديقي .!!

****

" تزوجنا بعد تخرجي من الجامعة واستلامي العمل في إحدى الوزارات مباشرة .. وكان هو يملك وقتها مكتباً صغيراً يمارس فيه عملاً حراً ، فضله على الوظيفة الحكومية ، التي قال عنها أنها تربطه بدخل متواضع وبرؤساء عمل يأمرون وينهون .. وهو يفضل أن يكون رئيس نفسه ، ورئيس كل من حوله لأنه أفضلهم على الإطلاق من وجهة نظره .!! سارت بنا الحياة لتكشف لي رويداً رويداً عن تفاصيل شخصيته المغرورة ، وعن صلفه وتعاليه على كل من حوله .. وخلال السنوات الثلاث الأولى من زواجنا رزقنا الله بدرتين .. ابنة وابن .. بذلت في سبيل تربيتهما كل جهد ، ذلك أن زوجي سامحه الله كان يذهب إلى مكتبه الخاص ساعتين في اليوم أو أكثر قليلاً

خلال تواجدي في عملي . ليعود مع موعد عودتي يتناول معنا طعام الغداء . ثم يجلس بقية ساعات النهار في صالة المنزل أمام التلفزيون .. يحمل بيده الريموت كنترول . يغير ويبدل قنوات التلفزيون بيد . وبالأخرى يشير ليغير حياتنا ومعيشتنا كل ثانية .!! لقد أتاح له تفرغه . أن يجد وقتاً طويلاً يراقبنا فيه . ويتصيد لنا أنا وولداي كل الأمور . الصغيرة منها قبل الكبيرة .. ويصنع من كل تافه شيئاً كبيراً ومعقداً ومشكلة عويصة تتطلب مشورته العبقرية. كي يجد لها حلاً .. حتى أصبحت حياتنا جحيماً لا يطاق . وصرنا نتمنى أن يأتيه خبر حادث لقريب أو مرض لصديق ليغادر البيت سويعات قليلة نلتقط فيها أنفاسنا . بعيداً عن كاميرات مراقبته التي تحول دون أن نتصرف لحظة في بيتنا على راحتنا .!! لقد أصبح كل سلوكنا موضع انتقاده وسخريته وتعليقاته السخيفة . وأنا رغم غلياني وضيقي كنت أحاول أن أتجنب مواجهته . فأتغاضى عن الردود الجاهزة لتفنيد انتقاداته المتسلطة .. تعليقات على ملابسي وألوانها وموديلاتها .. ألوان شعري التي أحب تغييرها من آن لآخر كنوع من إضفاء جديد على حياتنا الرتيبة والذي لا تنفك خصلاته إلا في بيته . حيث أنني محجبة . وأحظى بإعجاب كل من يراني .. إعجاب بذوقي في اختيار ملابسي . وباحتشامي في موديلاتها . وبوقاري في الحديث مع الآخرين غرباء أو أقرباء .. وأيضاً هو يعمد – في فترة استراحته من انتقادي – إلى انتقاد أبنائي وأصدقائهم وملابسهم ونظافتهم وشعرهم . حتى ألوان ملايات غرفهم .. إلى أن انطوى ابني في غرفته على نفسه أغلب الوقت . والتصقت ابنتي بي طوال الوقت . محتمية من نظراته التي صارت تجلدها بقسوتها .!! أما عن العلاقة الزوجية بيننا فحدث بكل الحرج .. فالأستاذ المحترم لم يكتف بانتقاد مظهري . بل خطا خطوة أكبر نحو انتقاد بيولوجيتي . فاتهمني كثيراً بالبرود الجنسي . وبعدم الرغبة فيه .. وذلك لمجرد أنني امرأة تعشق الرومانسية . ومفتونة بكل ما هو

حالم وعاطفي ومعنوي . بينما هو على العكس تماماً . لا يعنيه إلا الشيء العملي .. ولا شأن له بانفعالي بالجمال .. جمال القمر مثلاً وجمال الموسيقى المنسابة بصحبة صوت أم كلثوم وعبد الوهاب .. جمال الشخص في ملبسه وأناقته وتناسق جسده واتساق حديثه ورائحة عطره .!!

الطامة الكبرى .. أنني صحوت ذات يوم على عجز زوجي الجنسي .. وبذلت كزوجة محترمة كل المحاولات التي ينبغي أن تبذل في مثل هذه الحالات حتى لا أشعره بهذا الشعور المؤلم .. وظللت معه على عهدي . بل أكثر من ذي قبل . فكثفت من اهتمامي بمتطلباته . ومن عنايتي ربما المبالغ فيها برجولته .. وظللت على عهدي من تجاهل سخريته وانتقاداته . التي ازدادت بدرجة كبيرة بعد حدوث هذا الأمر .. بل واستمحت له بعض العذر .. إلا أنني أعترف أن ضيقي المكتوم منه ومن سخريته السخيفة قد ازداد أيضاً . ومعها ازدادت عصبيتي والخرف مزاجي بشده مع كل زيادة مقصودة منه لإثبات ذاته في العلاقة الخاصة بيننا . والتي كانت تنتهي - رغم محاولاتي المخلصة - بالفشل الذريع .. مما جعله يتحول إلى وحش كاسر مهزوم من داخله . فبدأ يتطاول عليّ بالضرب لأتفه الأسباب .. وبدأ يصرح بعد قليل تلميح . بأنني السبب الرئيسي لما أصبح عليه من حال لا يسر عدواً ولا حبيباً بسبب برودي الذي يدعيه .. بل واشتط في اتهاماته . فطعنني في شرفي عندما أعلن أنه يشك إلى درجة اليقين أن رجلاً آخر في حياتي هو الذي جعلني على هذا النحو من البرود تجاهه . وجعلني أكثر اهتماماً بعملي وملابسي وشكلي من أجله .. فوصلنا عند هذه النقطة إلى قرب نهاية المطاف . وبدأت أتحاشى الوجود في الصالة . طالما أنه متربع على أريكتها أمام التلفزيون .. وأتجنب التواجد في غرفته . إلا إذا مضى على وقت دخوله إليها ما يؤكد أنه استغرق في النوم أو كاد .. وظلت بقية أمور حياتنا تسير

بشكل طبيعي حرصاً على الأبناء ، حيث لا يتم التحادث بيننا إلا في الأمر الهام وبشكل رسمي جداً .!!

عندما خرجت من غرفتي ذات مساء على صوت صرخات ابني الأكبر ، تستغيث بمن يدفع عنه لطمات وركلات أبيه .. اندفعت نحوه ، وحاولت أن أمنعه من الاستمرار في تلك الهمجية .. فإذا به يلتفت ناحيتي ويكيل لي الضربات والشتائم ، ويمسكني من شعري ويلقيني على الأرض .. حتى أنني وللمرة الأولى وجدت نفسي أتبول على نفسي خوفاً ورعباً .. ولأول مرة أجد نفسي أنتفض من فوق " بللي " وأدفعه بعيداً عني وعن ابني بكل قوة ، وأصرخ في وجهه صرخة ظلت مكتومة في قلبي طوال عشرين عاماً : طلقني .!!

حزمت حقائبي وغادرت بيته بصحبة ابنتي ، وتركته يحاول إقناع ابني الذي لا تزال آثار لطماته فوق وجهه أن يثنيني عن قراري .. لكن إحساسي وأنا في الأربعين من العمر أنني قد تبولت على نفسي رعباً من شريك الحياة وأب أبنائي الذي يفترض أنه بالنسبة لي أكثر الناس أماناً ، سد أذني وعقلي عن أية محاولة للتراجع عن القرار .!!

وأنا الآن في بيت أهلي أنتظر الطلاق .. الذي لا يعدو أن يكون مجرد تحصيل حاصل ، أو إقرار واقع .. وان كانت ورقة الطلاق الرسمية لم تصلني بعد .. وربما تكون دقات جرس الباب التي أسمعها الآن تحمل خبر وصولها ، لتنتهي تلك المأساة السخيفة التي تحملتها طوال عشرين عاماً .. ولست نادمة .!!

****

صديقي كثير الشكوى من امرأته منذ أول يوم تزوجها فيه .. فهو لم يترك أحداً من أصدقاء أسرته إلا وحكى له ما يعانيه من امرأته .. وكم توسط الأصدقاء والأهل بينهما لإنهاء مرات الخصام ، التي كان يتعمد أن

يختمها بقسم غليظ أن تغادر بيته إلى بيت أبيها . فلا تعود قبل مرور شهر على الأقل في كل مرة .. رغم المعاناة الفظيعة التى كان يتكبدها مع أبنائه فى الاستذكار والإطعام وبقية حاجات الحياة .. حتى أن الجزء الأكبر من عبئهم . كان يقع على كاهل أسرة من الأسر الصديقة المتعاطفة مع حال الأبناء .. ممن يرون أنه لا ذنب للأبناء فيما يحدث بين والديهم .!!

فى كل مرة . كان صديقي يوسط أحداً للصلح بينهما . وكان يصر على أن يوصي الوسيط أن يبلغها أنه قد قرر الزواج من غيرها .. وأن عليها أن تعود في أقرب فرصة . حتى لا تفاجأ بأنه قد تزوج عليها فى شقتها وأتي بعروسه ربما إلى ذات السرير الذى كانت تنام هى فيه .!! وكم قلنا له نحن الأصدقاء أن هذا الكلام من شأنه أن ينزع من قلبها أية ذرة من الحب أو الأمان معه .. وربما يدفعها إلى ارتكاب حماقة بالتأكيد هو في غنى عن تبعاتها .. لكنه كان يعقب على قولنا . بأنه جاد غاية الجدية فيما يقول .. وأنها حتى لو عادت إلى بيتها فإنه سوف يتزوج عليها .. إن أجلاً أو عجلاً .!!

ماتت امرأته – يرحمها الله – بداء الكبد منذ شهور .. وبكاها أبناؤها . وبكيناها معهم بدموع حمراء قانية .. حسرة على شبابها . وعلى أيامها التعيسة التى لم تر منها أو فيها سعادة .. وتهامسنا خلف النعش وفى ليلة العزاء بكلام كثير .. مجمله أنها قد أراحت بموتها واستراحت .. وأنه لابد قد سعد كثيراً بما حدث .. وقد خلا له الجو ليتوقف عن الشكوى . ويأتى إلى بيته بمن يريد من النساء .!! فلما ذهبت إليه منذ أيام استطلع أحواله .. هالتني نوبة البكاء المريرة التى قابلني بها .. وراعني وهو يأخذني من يدي ليشير لى إلى كل ركن من أركان شقته : هنا كانت تجلس رحمها الله .. وهنا كانت تحادثني رحمها الله .. وهنا كانت تشاهد التليفزيون رحمها الله ..

ووراء كل عبارة منها كان يبكي ويتشنج بكاء يقطع نياط القلوب .. وكأنها قد ماتت بالأمس فقط .!!

لكنني لم أخجل من أن أواجهه بما كنا نهمس به خلف جنازتها وفى ليلة العزاء .. حيث لم أعتد النفاق أو المجاملة أو الخذلان عن المواجهة .. قلت له دون مواربة : أليست هذه التي كنت تشكو من سوء عشرتها لطوب الأرض .؟ أليست هذه هى التى قضت نصف عمر زواجها منك فى بيت أبيها غاضبة ؟ ألم تكن هذه هي التى أقسمت ألف مرة أن تتزوج من .. .. ..

قاطعني بوضع يده على فمي وهو يقول : حرام عليك يا رجل .. ألا يكفيك ما أنا فيه .. فأنا لم أعرف بحاجتها إلا بعدما غابت .. وليتها تعود فأعيش خادماً لتراب قدميها .. ولو أننى تزوجت من ألف امرأة بعدها ما عوضنني كلهن ساعة واحدة من ساعاتي معها .. إنها أول حظي وأم أبنائي وكاتمة سرى وصائنة عرضي .. لم أجرب منها تطاولاً قط رغم كثرة تطاولي عليها .. ولم أجرب منها تقصيراً قط وما أكثر ما قصرت أنا معها .. فمن أين أتى بمثلها تلك الشريفة العفيفة الأصيلة المهذبة الغالية الودود الولود .. والله لن أتزوج من بعدها أبداً ، وسأعيش على ذكراها العطرة التى تصافحني في كل ركن من أركان عشنا .. الذى كان سعيداً بها .!!

غادرته .. وعلى لساني قولان يتصارعان ليفوز أحدهما بمصافحة سمعي أولاً .. قول أمي البسيط الطيب : " لما راحت المقبرة .. أصبح فى فمها سكرّه" .. والثاني هو قول الشاعر الذى خبر الحياة .. والموت أيضاً :

ربما يومٍ بكيت منه // فلما مر .. بكيت عليه

****

اعتدت أيام كنت عازباً ، أن أحكي مع أمي كثيراً عن النساء ، وعن محاسنهن ومكائدهن .. وكان مبرري لديها وقتها أنني بحاجة ماسة إلى أن

أعرف منها شيئاً غير قليل عنهن .. قبل أن أختار واحدة منهن للزواج عن جهل . فأبتلى باختيارى الجاهل .!! ثم .. وبعد أن تزوجت بعامين تقريباً . عدت إلى عادتي القديمة ورحت أهرع إليها بين الحين والآخر . كي أجادلها في بعض ما سمعت منها عن المرأة ولم أجده في زوجتي .. وفي بعض ما وجدته ولم أسمعه منها من قبل .!!

وقد علق في ذاكرتي الكثير من قولها .. غير أن أهم ما أذكره عنها رحمها الله . قولها لي في معرض التحذير : " إن للمرأة جبروت من نوع خاص . يختلف عن الجبروت الذي يدعيه الرجل كماً وكيفاً .. إنه نوع من الجبروت لا يمكنها فقط أن ترتكب جريمة قتل بشعة .. بل ويمنحها أيضاً القدرة على البكاء بحرقة على ذلك القتيل الذي اغتالته بجبروتها .. إلى أن ييأس الناس من محاولات إسكاتها " .!!

كان هناك مثالاً لا تمل أمي تحكيه – ولا أزال أذكره حتى الآن من هول فصاحته .. فقد كانت تقول لي تدليلاً على جبروت المرأة : " ألا ترى المرأة في مطبخها وهي تذبح البصل بالسكين . وتقطعه إرباً إرباً لا تكاد تأخذها به شفقة أو رحمة . ومع ذلك فإن دموعها لا تتوقف أثناء ذلك " حزناً " على ضحيتها المسكينة . التي كلما ذرفت عليها دموعاً أكثر كلما أعملت السكين في أحشائها أكثر .. في حركات عصبية .. وكأنها ترغب في المزيد من الانتقام " .!!

هذا المثال عن القدرة الجبروتية للمرأة . لا يزال يطاردني حتى الآن في حياتي الزوجية .. خصوصاً كلما بكت امرأتي من جراء إهانة وجهتها لها أو فعل ارتكبته معها .. حيث أشعر عندما أراها تبكي . أنها تخفي خلف ظهرها سكيناً حادة .. وأنها تنتظر فقط فرصة سانحة تتملكني فيها .. لتعمل سكينها في جسدي تقطيعاً .. وهي تبكي بالطبع .!!

وقد تيقنت بعد أن أصبحت القراءة في التراث النسائي هوايتي ، أن الرجال قد أبلوا بلاء حسناً في كتاباتهم عن جبروت النساء منذ مطلع شمس العلاقة بينهما .. غير أن جهدهم هذا - وبلسان النساء أنفسهن - لم يميط اللثام عن أكثر من قيراط من أربع وعشرين قيراطاً من جبروت المرأة .. وأن النساء يتعمدن ألا يكاشفن الرجال بهذا ، حتى يظلوا على سذاجتهم في تصورهم أنهم قد خبروا المرأة وعرفوا جبروتها .. فيطمئنون أنهم بمنأى أن يطالهم ذلك الجبروت ، طالما أنهم عرفوه .!!

أين إذن يغيب جبروت المرأة عندما تداهمها مصيبة الطلاق .؟؟ وهل هناك نساء " مسكينات " لا يملكن جبروتاً مثل كل النساء .؟؟ وهل يمكن لجبروت بعض الرجال في بعض الحالات أن يغلب جبروت النساء .؟؟

عندما نستعرض معظم حالات الطلاق التي نعرفها ، يمكن أن نكتشف - مع التسليم بجبروت المرأة - أن ذلك الجبروت لا يعمل إلا عندما تكون المرأة جميلة .. أما عندما تكون غير ذلك ، فهو معطل عاجز فاقد القدرة على النطق أو الحركة .!! باختصار فإنه ليس للمرأة غير الجميلة جبروت ولا يحزنون .. والجمال الذي نعنيه هنا بالطبع ليس الجمال كما يدركه الرجل .. بل نحن نقصد الجمال كما تعتقد فيه المرأة وتثق به .. فكم من امرأة نصف جميلة تتصرف بثقة على أنها أجمل الجميلات .. إلى أن يصل ذلك الشعور إلى الرجل ، فيتهم عيناه بالعمى عن رؤية ذلك الجمال الذي تثق فيه صاحبته .. وكم من امرأة جميلة تتصرف بعدم ثقة كما لو كانت قبيحة لا تملك من أدوات الجمال شيئاً ، فيصل ذلك الإحساس إلى رجلها فينصرف عنها إلى امرأة أخرى تقنعه بجمالها ربما قبل أن يراه .. وأظن أن هذا هو جبروت المرأة الحقيقي .!!

انها لعبة " حافة الهاوية " التي يمكن للمرأة أن تمارسها مع الرجل ، حتى يتراجع قبل الحافة بقليل .. لأنها فقط صمدت إلى ما بعد تراجعه بثوان معدودة .. ساعتها فقط ينتصر جبروتها .. بسبب ثقتها في قدراتها لا بسبب حبها لرجلها أو كراهيتها له .!!

ولا أعتقد أن امرأة تدعي أن لها جبروت ، يمكن أن يسعدها أن زوجها لا ينظر إلى امرأة غيرها " احتراماً لعشرتها أو إشفاقاً على إحساسها " .. فالذي يسعد المرأة حقيقة ، هو قناعتها أن رجلها لا ينظر إلى غيرها لأنه قنع أنها تكفيه تماماً عن غيرها ، وأنه لا يمكن أن يجد في غيرها ما يجده فيها .. فإذا استطاعت المرأة أن تحقق ذلك الهدف ، وتمكنت من غسل مخ الرجل ودبغ رغباته بألوان جبروتها ، تكون قد حصلت على شهادة الامتياز في فن الجبروت .. وهي الشهادة التي تمنح صاحبتها حصانة كاملة ضد الانفصال أو الطلاق .. حتى لو بلغت من العمر أرذله .!!

هل المرأة تتخاذل منذ بداية علاقتها بزوجها ، عن إعمال جبروتها الجمالي ، مكتفية بالذكاء الذي تدعيه ، إلى أن ينفض عنها وينصرف إلى غيرها .؟؟ ولماذا لا تحاول المرأة إقناع نفسها بجمالها وقدراتها ، قبل أن تبذل أي جهد في إقناع رجلها بذلك .؟؟ ولماذا لا تتعلم من تجارب الآخرين والأخريات أن الرجل لا يقنع من المرأة إلا بما تحقنه به تحت جلده في هدوء .. لا بالذي تخرق به أذنه عبر ميكرفون وفي وجود شهود .؟؟ أنا شخصياً لم أسمع - على وفرة ما سمعت - أن رجلاً قرر طلاق امرأته لأنها لا تقول له أنه تحبه .. ولم أر على كثرة ما رأيت رجلاً قرر طلاق امرأته لأنها لا تنتظر عودته في المساء بقلق وتوتر ولهفة .. فكل من طلقوا أو فكروا في طلاق نسائهم ، هم أزواج بلغوا حد القناعة أن المرأة قد أعطت لهم كل ما لديها ، وأنها كشفت لهم عن كل ما عندها ، وأنها لم يعد لديها شيء جديد تمنحه له .. باختصار .. لا يفكر الرجل في

الطلاق إلا عندما تنسى المرأة أن لها " جبروت جمالي " ينبغي أن تمارسه مع الرجل وعليه .!!

و" فلاش باك " من فضلك عزيزتي المطلقة .. لتعيدي اكتشاف أخطائك التي أودت إلى الطلاق .. والتي أظن أن أكبرها هو نسيانك لجبروت المرأة التي حكت لي أمي عنه قبل سنوات ، وحكته كل النساء غيرها .. ونسيته معظم النساء .. ربما حتى أمي .!!

****

لست أدرى لماذا لم تسع المرأة فى بلادنا حتى الآن إلى تكوين حزب نسائي .. رغم الجدل والرغى والصداع المزمن الذى يسببنه لنا - وللنساء أيضاً - عن قضاياهن ، التى تصلح لتكوين أكثر من عشرة أحزاب .؟؟ لماذا رغم أن كل الشروط المتطلبة لمثل هذا الحزب متوفرة ، وبشكل قد لا يكون متوفراً لأى حزب آخر فى العالم .!؟

إن عوامل ظهور ونجاح أى حزب فى العالم لا تخرج عن ثلاثة عوامل : برنامج واضح ومحدد لا يتداخل مع برامج أحزاب قائمة بالفعل .. وحد أدنى من الشعبية أو التأييد للحزب .. وعدد من المؤسسين لا يقل عن ثلاثين مواطنا لم يسبق لأحدهم أن صدر ضده أحكام مخلة بالشرف ، أو طاعنة فى الأهلية .!!

فيما يتعلق ببرنامج " حزب النساء " الذي نقترحه ، فإن مفردات هذا البرنامج واضحة المعالم تماماً : "حرية المرأة .. استقلال المرأة عن الرجل ..تحقيق المساواة بالرجل .. انتزاع حقوق المرأة المهضومة .. منافسة الرجل فى كل المجالات .. تعليم المرأة وحصولها على أعلى الشهادات .. تمثيل المرأة فى كل المصالح والمؤسسات والوزارات واللجان والجمعيات .!! "

أما الشعبية المطلوبة لمثل هذا الحزب . فتحققها النسبة الفعلية لعدد النساء فى أى مجتمع .. وهى تصل إلى نصف هذا المجتمع إذا لم تزد فى بلادنا .. وهذه نسبة لا تتحقق لحزب أبداً . إلا فى المجتمعات الديكتاتورية .!!

أما المؤسسون – عفواً المؤسسات – للحزب .. واللائي يجب ألا يقل عددهن عن ثلاثين عضواً .. فأعتقد أن حماة حقوق المرأة في بلادنا من الكاتبات والصحافيات والفنانات والمحاميات . ممن يصدعن رؤوسنا كل يوم عن حقوق المرأة وحريتها . هن أكبر عدداً بكثير من ذلك الرقم المتواضع .. وأعتقد أيضاً أن صحائف أحوالهن الجنائية خالية من أية جرائم يعاقب عليها القانون .!! ماذا يبقى إذن كى نسمع عن قيام حزب للنساء فى بلادنا .؟!

أنا أقول لكم لماذا لا تستطيع النساء تكوين مثل هذا الحزب فى بلادنا . أو فى غيرها .. ولن يستطعن أبداً .!!

أولاً : فإن المرأة .. وإن كانت تصلح لبعض المواقع القيادية التى يعمل فيها تحت إمرتها الرجال ..فإنها لا تصلح مطلقاً لأن تقود النساء فى أى موقع .. والنساء جميعهن يعلمن ذلك تمام العلم .. ذلك أن المرأة لا تعدو أن تكون إلا واحدة من اثنتين :جميلة أو قبيحة .. وبالطبع فإن النساء – القبيحات – لا يمكن أن يجتمعن على المرأة الجميلة أو ينصعن لقولها .. وكذلك فإن الجميلات منهن لا يرضين بقيادة المرأة القبيحة لهن أبداً . وعلى من لا يقنع بهذا الرأى أن يستدعى من ذاكرته تجمعات النسوة فى أى مكان .. ويستعرض همساتهن حول الجميلة والمتصابية .. ويتخيل مصمصة شفاههن عندما يلتقين بامرأة جميلة تحاول أن تملى رأيها أو تفرض وجهة نظرها عليهن .. ويتذكر أيضاً فى هذا الصدد حركة "ضم الشفتين ثم تحريكهما جهة اليمين واليسار" .. تلك الحركة النسائية العربية المعروفة التى تعبر فى أوضح صورة عن الاستهجان النسائى للنساء .!! وعليه فإن

قيادة المرأة للمرأة في ذلك الحزب المزعوم . هو أمر محكوم عليه بالفشل الذريع .!!

ثانياً : إن الأغلبية العظمى من النساء - للسبب السابق ولأسباب فطرية أيضاً - سوف ينضممن إلى حزب الرجال المنافس لحزب النساء .. وسيطلعن حزبهن على الاستراتيجيات الناجحة للتعامل مع نساء الحزب المنافس .. فتكون نهاية حزب النساء ، من النساء أنفسهن .!!

ثالثاً : أنه وبسبب إحجام النساء - ماعدا النساء المؤسسات للحزب وبعض المغرر بهن من النسوة - عن الانخراط في صفوف حزب النساء .. ستضطر قيادات الحزب إلى فتح باب العضوية أمام الرجال ، حتى لا يغلق الحزب أبوابه .. وما أكثر الرجال الذين سيسارعون إلى الانضمام إلى حزب النساء بمجرد الإعلان عن فتح باب العضوية .. لأسباب أعتقد أنها أوضح من أن أذكرها .!!

رابعاً : إن المرأة لا يمكن أن تنجح في العمل السياسي أو العمل العام ، ما لم يساندها الرجل بكل قدراته وفكره .. وعندها يجب ألا تنسب نجاحها "الوهمي" هذا إلى نفسها .. بل إلى ذلك الرجل الذى لولاه ما كان لها أن تعمل أو تنجح .!!

خامساً : إن نجاح الرجل في أي عمل حزبي ، ينطلق من ثقته بأن هناك من يقوم بالدور في بيته على الوجه الأكمل ، وهذا هو ما تقوم به المرأة .. أما في حالة حزب النساء ، فلابد أن تثق المرأة " الحزبية " بأن هناك من سيقوم بالدور الأكمل في بيتها نيابة عنها .. ولا أعتقد أن الرجل مهيأ - بيولوجياً أو نفسياً - للقيام بدور المرأة في البيت .. وعلى المرأة " الحزبية " الناجحة أن تقوم بكلا الدورين معاً ، حتى لا تسمح للأحزاب الأخرى بالنيل منها وعرض صورتها كامرأة فاشلة في بيتها على قطاع الجمهور المؤيد لها ولحزبها ..

وهذا يحتاج إلى قدرات شمشون ، وبهلوانية طرزان .. وهى لا تملك إلا دموع " دليلة " ، وضعف "شيتا " .!!

وقد يتبرع أحد الرجال المتحمسين ، فيضيف سبباً آخر لفشل النساء في تكوين حزب خاص بهن .. كما قد تتطوع إحدى النساء الرافضات بتفنيد أحد الأسباب السابقة .. لكننا على ثقة أن الجميع - متحمس ورافض - مدرك تماماً أن المرأة " مستطيعة بغيرها " ، كما قال طه حسين منذ زمن وهو يصف نفسه كأعمى .. وأن اليوم الذى ستعلن فيه المرأة أنها " مستطيعة بنفسها " هو يوم نهايتها .!! فالذى نادى بتحرير المرأة – سامحه الله – هو رجل .. والذى ساند خطواتها الأولى على هذا الدرب هو رجل .. والذى أفسح لها المجال بجانبه هو رجل .. وللأسف فإن الذى عانى من كل ذلك .. هو الرجل أيضاً .!!

فلتعترف المرأة بأنها تظلم نفسها عندما تحاول الاستقلال عن تبعية الرجل .. والتحرر من احتلاله .. فالذى تستطيعه فى ظل تبعيتها له واحتلاله لها ، أكبر بكثير مما تستطيعه بمفردها .!! أذكر أن إحدى السيدات رشحت نفسها فى إحدى الدوائر الانتخابية بمصر أمام مرشح رجل .. وكان أحد الطلاب يقوم بدراسة للماجستير عن التسلط والخضوع .. وأجرى استبياناً لكل من الرجال والنساء فى تلك الدوائر عن تأييدهم لأحد المرشحين ، وعلاقة ذلك بتسلطهم أو خضوعهم .. وكانت النتيجة الغريبة أن معظم النساء " المتسلطات " أجابوا برغبتهن فى تأييد المرشح الرجل ضد بنت جنسهن ، وتراوحت الأسباب وتعددت .. لكن القاسم المشترك بين تلك الأسباب " أنها امرأة .. والست ست برضه ".!! (بمناسبة كلمة ست التى تطلق على المرأة فى مصر ..فإن إله الشر عند الفراعنة اسمه "ست ") !

فلتتحالف النساء - إن كن حقاً جادات - لتكوين حزب مختلف .. اسمه حزب الرجال .. على أن تخصص لجنة فيه أو شعبة نسميها شعبة النساء .. لمناقشة موضوعات الموضة والتجميل والطبخ والعناية بالأطفال الرضع وأشغال التريكو والكانافاه .. وأعتقد انه لا مانع لدى الحزب من مناقشة بعض الكتابات النسائية فى هذه الشعبة . على سبيل الهواية .!!

****

هل نحن حقاً سعداء .؟! نعم بالتأكيد ..فعندما لا يجد المرء وقتاً للتعاسة .. فهو بالتأكيد سعيد .!!

وما هي التعاسة إذن لكي نعرف أننا ليس لدينا وقت لها .. أو لتقل لنا ما هي السعادة . حتى نعرف أننا سعداء .؟!

السعادة هى عالم متباين من الاستمتاع .. يختلف من فرد " سعيد " إلى آخر .. تماماً كدور الملاهي التي تزخر بأنواع الألعاب فيها . غير أن من يجد في لعبة قطار الموت مثلاً متعة لا تدانيها متعة . قد يرى غيره أنها لعبة مرعبة من يجد متعة في ركوبها ليس إلا مجنوناً أخرق .!!

السعادة عالم متنوع من اللذة .. تماماً تماماً كالألوان التي نعرفها .. والتى يعشق أحدنا فيها اللون الأزرق بينما يرى فيه آخر تشاؤماً واكتئاباً لا ضرورة له .. وقد تلتهب مشاعر أحدنا برؤية اللون الأحمر المفعم بالإثارة من وجهة نظره .. بينما يرى آخر أنه لون الدم المقزز الذى لا يعشقه إلا سفاك أو مصاص دماء .!!

غير أننا يجب أن نسلم بأن الاستمتاع بمعاقرة شكل من أشكال السعادة . أو لون من ألوانها .. يقف وراءه شكل أو آخر من أشكال الحرمان .!! فلابد أن وراء كل لون من ألوان السعادة التي يشتهيها أحدنا خبرة سابقة من الحرمان من هذا اللون . أو خبرة حالية من افتقاده .. بحيث لو استمر تقديم هذا اللون

للشخص نفسه لفترة طويلة .. فقد يتحول من سعيد به إلى شقى ملول منه .!! وعندما تسأل رجلاً عن الشيء الذى يسعده فى امرأته مثلاً .. فسوف يختار لك منها ما هى مفتقدة له .. ليقول لك بأنها زوجة رائعة وأم حنون لأبنائها وامرأة تعرف حقوق زوجها و .. و .. لولا أنها ....!! وبإمكانك أن تضع بعد لولا هذه أى سلوك أو تصرف لا تفعله هى معه .. ليختم لك حديثه بأنه سيكون من " أسعد " الناس لو عاد يوماً فوجدها تفعل هذا الذى لا تفعله له أو معه .!!

وعندما تسأل امرأة عما يسعدها فى حياتها مع زوجها .. فستقول لك فى البداية كلاماً جميلاً عن خلقه وسلوكه وحبه لها وحنانه مع أولاده .. ثم تستدرك بأن كل ذلك رائع لولا أن ......!!

كيف لم يخطر ببال أحدنا أن يفكر فى هذا الأمر .. وهو أننا لا نتصور سعادتنا إلا بما – وفيما – ليس موجوداً بحوزتنا .. وكأننا مسلطون على أنفسنا .؟؟ كيف لا نجد سعادتنا فى " كل " ما بين أيدينا .. ولا نجده إلا فيما نفتقده .!؟

لو جرب أحدنا أن يمتلك ما يفتقده ، الذى يعتقد أنه سيكون مصدر سعادته .. لربما تغير رأيه تماماً .!! فصاحب المال لا يرى أنه مصدر للسعادة مطلقاً .. بينما من لا يملك المال سوف يتهم صاحب المال بالسذاجة أو الغباء .. ذلك أنه يرى – صادقاً – أن كل السعادة هي فى امتلاك المال وحسب .!! ويمكنك أن تقول مثل ذلك عن كل ما هو سبب للسعادة من وجهة نظر الآخرين .. عن الصحة مثلاً وعن الأبناء وعن المناصب ..فمن يملكها يزهد فيها ويقول لك ولنا إنها مصدر شقائه .. ومن لا يملكها يرى أن الدنيا ستضحك له لو أن بعضها أصبح فى متناول يده .. إلى أن يحدث ذلك

بالفعل .. فيخرج علينا بأفكاره " المعدلة " عن السعادة .. التى ليست فيما كان يعتقد أنها فيه .!!

كان لى جار يعيش هو وزوجته فى خدمة أسرة ثرية ..يقضيان ليلتهما بعد كل النهار فى فرح "مصطنع" وهما يطويان سرائرهما على رغبة كامنة بأن يكون لهما بعض ما لصاحب الأسرة الثرية من نعيم وترف ..حتى يخرجا من دائرة الفقر التى ما فتئا يشبعانها سباً ولعناً ..وهى ما انفكت تحكم حصارها حكم رقبيتهما إلى أن جاءهما صاحب الدار ذات يوم ..يبثهما حزنه وشقائه من هموم إدارة أمواله ومطالب أبنائه - وأمهم - التى لا تنتهى ..ويفضى إليهما بسر أنه يغبطهما على حياتهما البسيطة التى يعيشانها ..وهما يستمعان له تارة ..ويمصمصان شفاههما تارة أخرى وهما ينظران إلى بعضهما بعضاً وكأنه يهزى بكلام مخبول ..إلى أن تشجعت زوجة جارنا وقالت له إن ما يقوله غير معقول بالمرة ..وأنهما لو يمتلكان بعضاً مما عنده لكانا أسعد الناس ..ثم أكمل زوجها حديثها قائلاً له إن ما يراه من سعادتهما الوهمية هو على غرار "قد يرقص الطير مذبوحاً من الألم "..أو هو من نوع "إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون إلى أن يأذن الله" ..فسمعها الرجل فاغرا فاه دهشة مما يسمع ..ولم يملك إلا أن اقترح عليهما أن يمنحهما بعض ما له ليتاجر به فى أية سلعة ريفية كبيع الدجاج أو البيض أو صناعة الجبن ..على أن يزورهما بعد فترة ليرى كيف تغير حالهما إلى حال السعادة التى يتطلعان إليها ..!! فلما عادهما بعد المهلة التى أعطاها لهما ..هاله ما سمع من أول الشارع المؤدى إلى منزلهما المتواضع ..فقد ترامى إلى سمعه أصوات عراك وخيبب وصراخ .. فلما دخل إلى المنزل واستعلم منهم عن الأمر ..عرف أن الخلاف قد دب بينهما بسبب إصرار كل واحد منهما - حتى الأبناء - على الاستئثار بما كسبه لنفسه فقط .. وقد تحول البيت الهادئ السعيد من وجهة نظر صاحب المال ..والذى كان

يقتسم أصحابه اللقمة بين أفواههم ..إلى ساحة للتطاحن على اللقمة ذاتها ..وبعدما كانوا يمنون النفس بسعادة أبدية فى رحاب المال ..أصبحوا يتمنون اليوم الذى تزول عنهم تلك "النعمة" ..فصمت الرجل طويلاً ثم قال لهم :"إذن اقترح عليكما أن تعيدا على مالى وتعودا إلى ما كنتما عليه من سعادة قبل أن يزوركما رجل الهم والغم هذا ".. فقامت المرأة إلى كيس النقود وأفرغته بين يديه ..ثم نظرت إلى زوجها وأبنائها فوجدتهم ينظرون إلى بعضهم بعضا ..ثم راحوا جميعاً فى نوبة ضحك هسترية ..وقام الرجل ليغادرهم وهو يقلب كفيه على أولئك الجهلاء الذين يفسدون على أنفسهم ما بين أيديهم من سعادة انتظار لوهم قادم ..هو الشقاء لو كانوا يعلمون..!!

* ما السعادة إذن ..؟؟ السعادة شعور داخلى يصرف ..لا يشترط حدوث متغيرات خارجية كى ينمو ويتنامى ..شعور يحسه من يسعد بما هو فيه وما هو عليه ..يحسه من يستمتع بلحظته الراهنة حتى لو كانت دون ما يطمح إليه ..!!

السعادة أن تؤمن بمبدأ أن "النهاردة أحسن ألف مرة من بكره" .. وأن من السفه أن تردد مع القائلين أن " بكره أحسن من النهاردة "..!!! وهذا بالطبع لا يعنى التوقف عن السعى إلى غد أفضل ..لكنك – والى أن يأتى غدك – عليك أن تسعد بيومك ولا تدع لحظة تمر منه دون أن تنقب فيها عن السعادة ..فربما جاء غدك على غير ما تتوقع ..!!

السعادة فى الدنيا لا شاملة ولا كاملة .. وإذا لم تكن مصدقاً ..فأسأل "أسعد" ..الناس يخبرك بتلك الحقيقة ..!!

****

الفصل السادس

المجتمع والمطلقة

لماذا لا تتفرغ المرأة المطلقة للتصدي لمجتمعها الذي حكم علها عرفياً بـ " النفي الإجتماعي " .. بدلاً من تشتيت جهودها في معاداة ذلك الرجل الذي طلقها .؟؟ لماذا لا تطالب بحقها من مجتمعها الظالم ، بدلاً من ذلك التفنن في الحصول من طليقها على أكبر استفادة مادية ، وتركه غير قادر حتى على البدء من جديد .. سواء بنفسه أو مع غيرها .؟!

إن قضية النفي الاجتماعي الذي تتعرض له المرأة المطلقة في مجتمعنا الذكوري المتخلف ، هي في رأيي أهم وأخطر من كل تلك الدعاوى التافهة التي تضيع المرأة وقتها في حضور اجتماعاتها وإدارة ندواتها .. فالتحرر الحقيقي للمرأة ليس من الرجل ، بل من نظرة مجتمعها لها ككيان أنثوي قابل للشبهة ومحل للظن السيئ .. فتلك النظرة هي التي تفرض عليها نفياً اجتماعياً إجبارياً ، يحول بينها وبين المشاركة في أنشطة مجتمعها ، وبينها وبين إقالة نفسها من عثرتها ومحاولة البدء من جديد .. دون نقيصة تكسر إحساسها بأنوثتها أمام ذلك الرجل الذي طلقها ، بينما لم يقرر المجتمع ذاته أن هذا الطلاق قد كسر له إحساسه برجولته .!!

صحيح أن المرأة المطلقة لا تملك إلا أن تنطوي على أحزانها وتبتلع رغباتها الموؤدة وتغلق بابها على نفسها وأبنائها وتعمد إلى إعادة حساباتها لتعرف كيف تنجو في الأيام القادمة من شماتة من ينتظرون فشلها في تربية أبنائها ليتهمونها أنها ليست شيئاً يذكر دون الرجل .. وكيف تنجو بسمعتها من أن تلوكها الألسنة وهي مطلقة جميلة دون رجل .. ناهيك عن التفكير في مدى صحة قرارها بالزواج من آخر ، أو عدم الزواج والاكتفاء بأبنائها .!! كل هذا العبء إذا ما أضيف إليه حالة " النفي الاجتماعي " التي يمارسها المجتمع على المرأة المطلقة .. وحتمية أن تتفرغ المرأة " المحررة " للدفاع

عن تلك القضية ما وسعها الدفاع ، لوضح لنا حجم وفداحة المرأة المطلقة في مجتمعاتنا ..!!

لقد قلنا بأن العرف الاجتماعي " الذكوري " ينبغي أن يتزاح من طريق المرأة المطلقة .. وأن الإعلام ينبغي أن يساندها في تلك القضية ، ويقدم لها كل العون في سبيل تغيير توجه المجتمع نحوها . وإذا كنا قد أجبرنا المجتمع على أن ينظر إلى الفتاة على أنها كيان مستقل له كل الحق في الخروج للعلم والتعلم في المدرسة والجامعة ، دون أن تشتمل نظرته لها على اتهام ضمني أو شبهة مظنة في سلوكها .. فإن كل دعاوى حرية المرأة وتحررها واستقلاليتها لم تنجح في تغيير نظرته نحو المرأة المطلقة .. فقد ظلت نظرة محل شبهة ، ومحل ظن سيء .. سواء رجالية أو نسائية ، وظلت العيون تتابعها في غدوتها ورواحها ، يحركها الطمع في النيل منها وكأنها متاع بلا صاحب .. ناهيك عن أن هذا التوجه السيئ قد فرض على أولي أمرها – الأب أو الأخوة – شكلاً من أشكال التعسف في التعامل معها ومع سلوكياتها داخل أو خارج بيت الأسرة .. على الأقل ليدرأوا عن أنفسهم نظرات البعض غير المحترمة التي لا ترعى الله في مطلقتهم المهزومة ..!!

ولا أظن إلا أنه على عاتق كل منبر إعلامي تقع مهمة تقديم مادة إعلامية جيدة يخاطب بها ذلك المجتمع القاسي – عبر من يفهم في كيفية تغيير سلوك الأفراد من نفسانيين واجتماعيين ورجال دين – ليغيروا من توجه هذا المجتمع نحو المطلقات من نسائه .. وتعليمه كيف يتعامل معها على أنها امرأة كاملة الأهلية ، كالفتاة التي لم تتزوج بعد تماماً .. وأن يضعها رجاله ضمن قوائم اختياراتهم عندما يفكرون في الزواج ، بغض النظر عن تجربتها السابقة الفاشلة .. فليس الفشل حكماً بالموت على صاحبته .. وإقناعهم بأن تحضرهم الذي يدعونه نحو المرأة بوجه عام ، أحرى به أن يدفعهم إلى

تغيير توجههم نحو المطلقة .. تلك المرأة التي ظلموها مرتين ، مرة عندما أغروا رجلها بالانحراف بعيداً عنها عندما ناصروا خروج المرأة للعمل بسبب ومن دون سبب فأغرته إحداهن .. ومرة أخرى عندما تركوها بمفردها تواجه مصير اليتيم على مائدة اللئام .!! وإذا كنا قانعين بأن المرأة المطلقة ليست يتيمة .. فينبغي أن نقنع بأننا أيضاً لسنا رجالاً " لئاماً " .!!

****

المطلقة – ودون أية تحفظات – هي أنثى " مشروخة " على المستوى النفسي ، وهي امرأة " مهزومة " على المستوى الاجتماعي .. وهي عندما تضيق بذلك الشرخ ، يمكن أن تنفلت بلا هوادة نحو المرض النفسي بكل درجاته .. من عند التوتر والقلق إلى حد الفصام والجنون .. وهي عندما تضيق بتلك الهزيمة ، فإنها تنفلت نحو السفور الاجتماعي أو نحو الانحراف ، أو في أضعف الأحوال نحو الانطواء .!!

وليست مهمة المجتمع أبداً أن ينصف المطلقة من الرجل الذي طلقها .. ذلك أن الرجل قد مارس بطلاقها حقاً شرعياً أصيلاً له ، وإن كان مكروهاً .. إلا أنه يظل حلالاً وحقاً لا يملك أحد أن يمنعه عنه إن هو أراده ، طالما أن بيده وحده عقدة النكاح .. وأيضاً لأن طلاقها منه لابد أنه أنصفها منه إن كانت مظلومة .. ولا بد أنه عاقبها إن كانت ظالمة .. ونظن أن هذا كاف جداً .!!

لكن مهمة المجتمع يمكن أن تنحصر في محاولة مساعدتها على اجتياز محنتها " النفسية الاجتماعية " ، بالشكل الذي ترتضيه هي لنفسها دون إجبار أو إكراه .. ومحاولة تبصيرها بأبعاد الدور " الأبوي الأمومي " الذي تزمع القيام به حيال أبنائها .!!

المجتمع الذي يبتغي أن تنخفض به نسبة الطلاق ، ويحرص على عدم وصول الأمر بين أفراده إلى حد الانفصال والى تشرد الأبناء ، بإمكانه أن

يتدخل تشريعياً .. ليس بأن يمنع قانوناً ألا يطلق الرجل امرأته ، فهذا ليس منطقياً .. ولكن أن يتدخل رسمياً ، فيشترط التأكد من أهلية الراغبين في الزواج ، ومدى قدرتهم على إقامة دعائم أسرة تستعصي على الهدم بسهولة . لقد شرعت السماء أن كل من بلغ مبلغ البلوغ يحق له الزواج .. لكن المجتمع الحديث تدخل واشترط سناً معيناً للزواج ، حتى لو دخل راغب الزواج إلى البلوغ قبل تلك السن (١٨ عاماً في معظم البلدان الإسلامية) .. فما الذي يمنع أن يتدخل المجتمع مرة أخرى بشرط جديد .. هو أن يجتاز كل راغب في الزواج - رجلاً كان أو فتاة - " دورة للتأهيل الزواجي " ، تقوم بها مؤسسات رسمية معتمدة .. وتمنح من يجتازها شهادة تأهل يقدمها إلى المأذون كشرط أساسي لعقد قرانه .!!

لقد ثبت أن معظم حالات الطلاق تقع في السنوات الخمس الأولى من حياة الزوجين .. ويرجعها الباحثون إلى قلة الدراية لدى الزوجين ، وممارسة التعسف من كليهما أو أحدهما ، وعدم تقبل التغير النفسي الذي يصاحب حالة التواجد تحت سقف واحد مع شخص آخر قادم من بيئة مغايرة ومن ثقافة قد تكون مغايرة .!! إن الذكورة ليست أبداً دليلاً على القدرة على إقامة أسرة .. كما أن " الباءة " لا تعني القدرة على الإنفاق وحسب ، بل تعني أيضاً القدرة النفسية على إرجاء الرغبات والتخلي عن الأنانية وإنكار الذات والقدرة على ممارسة الأبوة .. كما أن اكتمال النضج الجسدي لدى الفتاة لا يعني صلابة القدرة على تحمل تلبية مطالب رجل ، والتصدي للأغيار التي تتعاقب على الأسرة الصغيرة من مصاعب مادية في أول الحياة ، ومتاعب حمل ، وضيق من مسؤولية رضاعة أبناء قد تحول دون ممارسة الطفلية الأنثوية على الوجه الذي يتطابق مع أحلام البنات وشطحات المراهقة قريبة العهد .!!

وعندما تتولى هيئة ما مسؤولية تأهيل الراغبين في الزواج في دورات متخصصة في مناحي الحياة ، والتوقعات المستقبلية ، والعلاقة مع الآخر ، والتخفف من تطرف الاستجابات الذي يتميز به الشباب قبل الزواج وتحويله إلى اعتدالية الاستجابة ، وتعلم أن الخطأ والصواب فيما دون أمور الدين هو أمر نسبي ووجهات نظر تحتمل الاختلاف والاتفاق .. عندما يحدث ذلك ، فسوف يكون الأمر على نحو أكثر أماناً مما هو عليه الآن .. ويمكن أن تقل حالات الطلاق إلى حد كبير .. خصوصاً تلك التي تحدث في السنوات الأولى من الزواج ولأسباب واهية .

أليست هناك دورات للكمبيوتر واللغة والإنترنت وغيرها ، يلتحق بها الأفراد بهدف النجاح في العمل .. فكيف بالزواج ، وهو أهم كثيراً ، وأبديته تعطيه الأولوية على أي عمل مهما بلغت أهميته .!!

كما أن دور الإعلام بكافة فصائله في تهيئة الساحة الاجتماعية لزواجات أكثر صموداً أمام غول الطلاق والانفصال ، لا يقل أهمية ..

فالصحف السيارة قد اعتادت – أو لنقل عودتها أرقام التوزيع – أن القارئ يبدو أنه يميل إلى أن " يقرأ النميمة كبديل عن فعلها " .. حيث تكفيه بعد القراءة مصمصة الشفاة أو الحوقلة فيما يكتب وفيمن يكتبون ، للتكفير عن إحساسه بالذنب حيال ما قرأ من أسرار زوجية كان لا ينبغي دينياً إشاعتها بين الناس ، وما قرأ عن تلك الكيفيات المريبة التي يمكن أن تخرج بها المرأة خارج أسوار الزوجية ، وتلك الكيفيات المقابلة التي يمكن أن يسلكها الزوج لتسلق تلك الأسوار !!

هذا الإعلام الذي يصفه البعض بالصحافة الصفراء أو صحافة الفضائح ، ينبغي أن يتخلى عن هذا الدور المغري مادياً والمثير جماهيرياً ، لصالح دور أكثر إخلاصاً لمجتمعه الذي سمح بظهور مطبوعته وساعده في

تروجها وأنفق من مال شعبه لتنتفخ جيوب أصحاب الصحيفة .. دور لا تكون فيه التفاصيل الزوجية هي الغاية في ذاتها ، وهي جرعة إشباع النميمة لدى المرضى من القراء .. بل تكون جرعة وقائية تطلع المترصدين على نواصي التجربة على المعاناة التي يعانيها المطلق أو المطلقة بعد اتخاذه قراره الأهوج بالطلاق .. جرعة وقائية تبصر أصحاب الشأن بتلك السلبيات العديدة التي يعاقرها كل من يفكر تفكيراً أهوج في فصم عرى الكيان الأسري في لحظة غضب أو ساعة انفعال ، دون تفكير في التبعات والمعاناة التي ستترتب على طلاق امرأته وتشرد أولاده .. وبوهيميته التي سيعود إليها وهو مطلق ، بعد أن كان قد كتب الله عليه الاستقرار ..!!

الإعلام المحترم ينبغي أن يكون مرآة صادقة للمجتمع ، لا يحقر ظاهرة ويضعها في حجم أقل من حجمها ، ولا يضخم أخرى بحثاً عن مجرد الرواج والانتشار .. ولا يصنع ظاهرة عامة من استثناء .. ولا يتجاهل قضايا تنغص حياة الناس لصالح عناوين مثيرة تعلو موضوعات وضيعة .. كل ذلك في إطار وقائي يمنع تقليد القارئ للحالة التي يقرأ عنها ، ويحول دون شعور البعض براحة البال وعدم تأنيب الضمير لأنهم قرأوا في صحيفتهم أن حالتهم التي هم عليها ليست فريدة ، بل هناك ما هو أفظع منها ..!!

الإعلام المحترم يقول للناس كيف تمنع جريمة ، وكيف تكون بمنأى عن ارتكاب جريمة .. لا كيف ترتكب جريمة وكيف تصبح مجرماً ..!!

والدور الوقائي الذي يقع على عاتق المجتمع لتقليل حالات الطلاق فيه هو صدقة ، لا يمكن أن تصل إلى مستحقيها إلا عبر وسيلة إعلامية تروج للطهارة وتنشر الفضيلة وتزدري الحقارة وتستر الخطيئة وتشير على استحياء إلى السوءة .. فكبيرة مستترة ربما تكون عند الله خير من صغيرة معلنة .. ومثالب الطلاق ومصائب المطلقين هي الأولى بالإعلان عنها ، لا

بلاوى المتزوجين وتفاهات المتزوجات ..فإذا ما تكامل دور تلك الهيئة المزمع قيامها بإعداد دورات تدريبية للمقبلين على الزواج ، مع دور الإعلام الواعي المحترم الهادف إلى تبصير الجميع بمساوئ ما بعد الطلاق وكيفية إدارة شؤون البيوت دون مشكلات أو خلافات تؤدي إلى النهاية البغيضة .. يكون المجتمع قد حقق أول أدواره نحو ظاهرة الطلاق وهو الدور الوقائي ..

****

أما دور المجتمع العلاجي حيال ظاهرة الطلاق ، فينقسم إلى دورين كبيرين ، حسب رغبة المطلقة في المرور بخبرة الزواج مرة أخرى : الدور العلاجي بإيجاد فرص " علاقات زوجية جديدة " لمن يرغبن في الزواج .. والدور العلاجي بإيجاد فرص " اثبات وتحقيق ذات " بديلة لمن يرفضن الزواج .!!

فكثيراً ما نسمع عن امرأة طلقت وهي في ريعان شبابها ونضارة جمالها لسبب أو لآخر .. ولأنها كذلك ، فإن خطابها غالباً ما يكونون كثر .. وطالبو يدها في الحلال لا يتوقفون عن طرق بيت وليها .. لكنها لا تجيبهم – من وراء حجاب – إلا بقولها " أنا جربت نصيبي خلاص " .. أو إن كانت قد أنجبت من زوجها الأول " أنا اتجوزت ولادي " .!!

وفي المقابل فإننا كثيراً ما نسمع عن أخريات لا يفعلن مثل ذلك .. بل هن يجاهرن أهلهن وصديقاتهن ، أنهن ينتظرن فرصة جديدة للزواج يعوضن بها " ميل البخت " الذي حدث في الزواج الأول .. ويرددن القول المأثور " قالوا الحرة عملت إيه .. قالوا اتجوزت " .!!

وبالطبع .. فليس لتلك التي ترفض الزواج مرة أخرى بعد طلاقها أن تتباهى على غيرها بعفة أو فضيلة .. كما أنه ليس على من تريد زواجاً من رجل آخر بعد طلاقها تثريب أو شائنة .. فالطبائع لابد تختلف .. والصفات الإنسانية تتباين .. والمرأة التي تحتمل الوحدة طوال عمرها دون رجل ، ليست

أبداً كمن يمكن أن تبلغ حد الجنون إن احتوتها جدران أربع دون أنيس يحادثها .. والمرأة التي تستطيع الصبر على مطالبها الإنسانية الطبيعية ليست أبداً كمن تدعو مثل دعاء المرأة التي سمعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جنح الليل : لولا الإله الذي تخشى عواقبه / لحرك من هذا السرير جوانبه . !!

كما أن خبرة الزواج الأول دائماً ما تمثل للمرأة النموذج الذي سيكون عليه الزواج الثاني " أليسوا جميعاً رجال " .؟ .. فإن كانت خبرة سيئة ومنفرة رفضت المرأة تكرارها .. وإن كانت خبرة رائعة ولولا العناد أو الغيرة ما طلقت ، فإنها ستنتظر تكرارها مع آخر ليست فيه تلك العيوب القليلة التي كانت في زوجها الأول ..

الخلاصة أننا أمام نوعين من المطلقات .. نوع يرغب في الزواج وهذا حقه .. ونوع آخر يرفض الزواج وهذا اختياره ..

ماذا يمكن أن يقدم المجتمع لتلك المطلقة التي تبتغي زوجاً تستر به عرضها وتسد معه حاجتها وتريح رأسها على صدره الآمن .؟؟ هذا هو التساؤل الذي يجب على المجتمع أن يقدم له إجابة واضحة المعالم .. في ظل ظروف وتقاليد وسمات مجتمع عربي إسلامي . يمكن بلورة نظرته للمرأة المطلقة فيما يأتي :

* المرأة المطلقة هي امرأة لا ينبغي أن يتزوجها إلا رجل مطلق أو أرمل .. أي رجل بلغ من العمر ما يبتعد به عن الشباب قليلاً أو كثيراً .. أو رجل به عيب أوصله إلى طلاق امرأته الأولى .. أما أن يتزوج شاب – لم يسبق له الزواج – من امرأة مطلقة . فهذا ما يعتبره مجتمعنا نوعاً من الظلم البين لهذا الشاب الذي " لم يدخل دنيا من قبل " .!!

* المرأة المطلقة هي كائن محدود الحركة والتصرف بقيود أقسى كثيراً من تلك القيود التي يفرضها الأهل في العادة على الفتاة .. فبعد أن كانت

خاضعة لسلطة الأب وهي فتاة ، ولسلطة الزوج وهي زوجة أصبحت – بعد طلاقها – خاضعة لسلطة الأخوة والأعمام والأخوال وأبناء العم وأبناء الخال وبقية الأهل ثم الأصدقاء والجيران ، وربما كل المجتمع الضيق الذي تعيش وسطه .. وعليه فإن فرصة تعرفها إلى رجل آخر بغية الزواج منه تكاد تكون معدومة .!!

* دائماً ما يرفض كثير من الآباء والأخوة أن تتزوج أبنتهم المطلقة من رجل آخر .. بل وينوبون عنها في إعلان رفضهم لمجرد مناقشة هذا الأمر مع أحد .. فأختهم كما يقولون قد " شافت نصيبها والسلام " .. وبالتالي فإن جزءاً كبيراً من ذلك الباب الذي يمكن أن يدخل منه زوج جديد لتلك المرأة المطلقة ، موصد بعنجهية الآباء ، واستنطاع الأخوة .!!

* دور المطلقة في بيت أبيها بعد مغادرتها بيت زوجها إلى غير رجعة ، هو دور سخيف وغبي .. لا يتعدى دور الخادمة أو المشرفة على شؤون البيت المنزلية .. خصوصاً إذا كانت غير عاملة .. والطامة الكبرى لو كانت عودتها إلى بيت أحد إخوتها بعد وفاة أبيها .. حيث وجودها مع زوجة أخيها – صاحبة البيت – التي اعتادت ألا تقبل إحدى أخواته " زائرة " ، فما بالها لو كانت مقيمة .!!

* اذا كان المجتمع برجاله قد تعود الطمع في الفتاة البكر ، واعتاد محاولة النيل منها دون الزواج .. مع كل الحذر الذي تبديه الفتاة للمحافظة على نفسها .. فإن هذا المجتمع يكون أكثر طمعاً في المرأة المطلقة .. متصوراً أن الأمر يمكن أن يكون أسهل .. وأنها يمكن أن تستجيب إلى محاولاتهم ، وكأنها انثى من الدرجة الثانية .. وفي هذا ما فيه من قهر للمرأة التي تبتغي زوجاً على سنة الله ورسوله ، في ظل هذه النظرة المشبوهة .!!

أتصور أن تلك الملامح يمكن أن تكفي لتوضيح تلك الحالة الاجتماعية والنفسية التي تعايشها المطلقة في مجتمعها .. لنتصور إلى أي مدى ينبغي أن يتعاظم ذلك الدور، الذي على المجتمع أن يقوم به حيالها. وحيال رغبتها في الزواج من جديد .. محاولين ما أمكن الابتعاد عن المثاليات التي لا ترقى إلى مستوى التطبيق الواقعي .. وفي الوقت ذاته نحاول اللجوء إلى بعض الحلول غير التقليدية .. رغم أننا نعرف تماماً أن القضية وأبعادها، تقليدية إلى حد كبير .!!

فعندما ترغب المرأة المطلقة في الزواج .. فإن أمامها أكثر من وسيلة لتحقيق ذلك .. منها أن تلجأ إلى المزيد من التجمل واستعراض المحاسن وتكثيف الظهور في المناسبات العائلية والاجتماعية للفت نظر الرجال الراغبين في الزواج .!! أو تلجأ – إن كانت أقل جرأة – إلى إبلاغ رسالة عن طريق المعارف والصديقات إلى كل من يهمه الأمر، مضمونها أنها تنوي الإقتران بعد حين لكنها تنتظر ظهور الرجل المناسب .. أو تقوم هي بنفسها بإبلاغ تلك الرسالة أثناء تفاعلها اليومي مع الرجال، من زملاء عمل وأهل وأصدقاء .. وهذه الوسيلة الأخيرة قد يشوبها بعض الأخطاء، أو بعض الخروج عن التقاليد ..

والحقيقة أن المرأة المطلقة في كل تلك الأحوال التي تلجأ إليها، تعاني اعتصاراً في داخلها مرارة وحسرة .. ربما على اضطرارها إلى ممارسة هذا النوع من " الدلالة " على شخصها من أجل الفوز برجل يسلك معها وبها الطريق الشرعي .. ومما يعمق تلك الحسرة والمرارة اضطرارها – هي أو من يتكفل بإبلاغ رسالتها – إلى استعراض بعض ميزاتها ومواصفاتها، والعروج في حديثها على أسباب طلاقها من زوجها الأول، وربما اللجوء إلى فضح عيوبه بعضها أو كلها – صدقاً أو اختلاقاً – حتى يطمئن السامع إلى أن مصير

ارتباطه بها لن يكون تجربة فاشلة تضاف إلى سابقتها .. ومرجع تلك المرارة والحسرة أن هذا كله ليس من طبع المرأة التي اعتادت أن تحفظ سر الرجل حتى لو طلقها .. والتي اعتادت أن تتلقى عروض الزواج فلا تفعل سوى أن تعلن على الجميع رغبتها في إرجاء رأيها فيها . بحجة حاجتها إلى التفكير العميق كي تنتقي أفضلها .. وربما ترفض كل تلك العروض انتظاراً لفرصة أفضل .. فإذا بها تضطر إلى التخلي عن طبيعتها هذه . وتلجأ إلى عرض نفسها في سوق الزواج منتظرة هي رأي الآخرين .. ولابد أنها بسبب هذا الاضطرار . ستلعن في كل لحظة الظروف والرجال والمجتمع الذي لا يريد أن يرحمها كمطلقة . ولا يريد أن يكتفي بما عرفه الجميع عن " فشلها " في التجربة الأولى .. حتى لو كانت هي " المجني عليها " وليست " الجانية " .!!

من هذا المنظور التحليلي . يمكن للمجتمع السوي أن يمد يده نحو المطلقة وهي إحدى بناته .. لينتشلها من أزمتها . ويوفر لها فرصة كريمة لمعاودة المحاولة . وإثبات أن فشلها كان حدثاً عارضاً في حياتها وليس أصلاً في سلوكها وعجزاً في قدراتها ..

* ففي الدول التي نشأت فيها صناديق للزواج .. يمكنها أن تنشئ شعبة فرعية داخل هذا الصندوق تسمى " شعبة المطلقات " .. يكون الدعم المادي فيها . أعلى من الدعم الذي يقدم للراغبين في الزواج من فتيات .. وبعض تلك الصناديق في دولة مثل دولة الإمارات العربية . رفعت دعمها للراغبين في الزواج من فتيات فوق سن الثلاثين . عنه للراغبين في الزواج من فتيات أصغر سناً .. فلماذا لا يكون التعامل مع الراغبين في الزواج من مطلقات منطلقاً من المبدأ ذاته . الذي يحكم توجهات مثل هذه الصناديق .

* المجلات الاجتماعية المتخصصة في شؤون الطلاق . يمكنها أن تنشئ باباً جديداً يخصص لتوفيق رأسين في الحلال .. إحداهما يكون " رأس مطلقة

" من يرغبن في الزواج .. على أن تكون بياناتهم أكثر سرية وتخضع لضوابط أكثر صرامة مما يحدث في الأبواب المماثلة في المجلات العامة ، حتى لا نتسبب في أي قدر من الإساءة النفسية لتلك المطلقة الشريفة ، التي اختارت طريق الزواج بديلاً لطرق معوجة أخرى ، قد لا يرضاها دين أو خلق .. أو تخالف تقاليد وأعراف .!!

* لا حرج على الإطلاق في تكوين هيئة أو جمعية أو نادي للمطلقات تحت أي اسم يختاره أولو الأمر (وإن كنت أفضل اسم المطلقات دون أية محاولة خائبة للتجمل أو إخفاء صفة الطلاق عن عضواتها) ، ولتكن ديوانية للمطلقات .. يتكون هيكلها من الخبراء النفسيين والاجتماعيين .. وتنحصر أهدافها النفسية في بذل الجهد نحو تفجير ما بداخل المطلقة من مكبوت قد تكون تركته خبرتها الزواجية الفاشلة .. قبل أن ينخر داخلها ويغادرها بعد حين أطلال امرأة .. إضافة إلى علاج إحساسها بالقهر من تحميلها مغبة فشل هي بالتأكيد لا تعترف أنه كان بسببها ، بل تصر على أنه بسبب أن حظها العاثر قد أوقعها مع رجل لم يقدرها حق قدرها ، فأفقدها احترامها له ولنفسها ، أو مع رجل انصرف عنها إلى امرأة غيرها فأفقدها ثقتها بنفسها .!! بينما تكون أهدافها المباشرة التي ينبغي أن تكون معلنة ولا حاجة إلى إخفائها .. أن تجمع في مكان واحد كل المعلومات المتاحة عن المطلقة التي تبتغي الإقتران بزوج ، يكون زمانه قد تنكر له مثلما تنكر لها ، سواء بالطلاق أو بالترمل .. فيختارها ليكملان مشوار حياتهما معاً ويضمدان معاً جراحهما ، فتصالح به أيامها ويسامح بها زمانه .. وهذه الهيئة أو النادي أو الجمعية ينبغي أن تنال دعماً مجتمعياً مادياً وإعلامياً يمكنها من أداء دورها المقترح هذا ، على الوجه الراقي والمحترم الذي لا يجرح مشاعر ولا يؤذي إحساساً .!!

* يمكن إفراد مساحة في المجلات المتخصصة في شؤون المطلقات لعرض قصص الزواج الناجح . الذي كانت بطلته مطلقة اختارها رجل عاقل فنجح اختياره . وأثبتت له أن ما تستطيعه المطلقة ربما هو أكثر مما تستطيعه غيرها . وأكدت له أن فشلها السابق كان عرضاً في حياتها لأنها في الأصل امرأة ناجحة وزوجة رائعة .. فربما أسهم هذا في تغيير فكرة البعض عن قدرة المطلقة على التخلص من آثار تجربتها . وتحويل إخفاقها إلى نجاح .. وأنها إن كانت لم تستطع في تجربتها . فلأنها ضنت بما تستطيع على من كان يملك أمرها .. لأنه لم يثبت أحقيته في الأخذ منها . وأنها عندما التقت الرجل الذي يستحق . انفلتت نحو العطاء دون حدود .!!

****

بعد أن أوضحنا ما يمكن للمجتمع – أي مجتمع – أن يقدمه للمطلقة التي تبتغي تكرار تجربة الزواج مرة أخرى .. وحاولنا الابتعاد ما أمكن عن الحلول المثالية التي ربما لا ترقى إلى مستوى التطبيق الواقعي . وقدمنا بعض الحلول غير التقليدية .. سنتناول الدور المجتمعي حيال الفئة الأخرى من المطلقات . التي تشمل المطلقة التي اكتفت بتجربتها الأولى ولا تبتغي تكرارها ..

ورغم أن معظم الحالات التي ترفض فيها المطلقة أن تكرر خبرة الزواج مرة أخرى . هو رفض قد يحكمه إلى حد بعيد إحساس أو يقين منها أنها لا تمتلك المقومات التي تغري زوجاً بالتقدم لها . ولذا فهي تطرح تعففها عن الزواج وإعراضها عنه . كسلوك بديل – أو كما يقول فرويد كميكانيزم تبرير أو حيلة العنب الحصرم (والمثال المتداول في هذا الصدد . هو مثال الثعلب الذي لم يستطع الوصول إلى عنقود العنب المرتفع . بعد أن بذل كل الجهد فانصرف عنه . وقال لكل من شاهده يغادر الكرم دون العنقود : لقد

اكتشفت أنه عنب حصرم مر، لا حاجة لي به) .. وهي بهذا تتحاشى بالطبع أن تضع نفسها موضع الراغبة التي لا تجد راغباً، فيصيبها ما يصيبها من إهانة للذات .!!

كما قد يحكم رفضها أيضاً، بعض التقاليد الاجتماعية والعائلية التي اعتادت جهلاً أن تصم المطلقة التي تبغي الزواج بأنها امرأة تبحث عن رغباتها الجسدية فقط .. وهذه إهانة للمرأة في بعض المجتمعات لا تعدلها إهانة ..

ناهيك عن أن يحكم هذا الرفض، بعض خبرات الزواج الأول التي قد تكون منفرة وغير محببة وكئيبة بالنسبة للمرأة، ولا تدعو لتكرارها مهما كانت نصائح الآخرين، ومهما كانت وفرة إمكاناتها التي يمكن أن تجتذب الأزواج .!!

ونحن لا نتجاهل أن المرأة المطلقة التي تبتغي الزواج، هي امرأة تثق في أن لديها من القدرات ما يجعلها مرغوبة من الراغبين في الزواج إذا ما طرحت رغبتها على مجتمعها، ولديها منظومة عائلية أو مجتمعية لا ترى غضاضة في أن تحاول المرأة إصلاح فكرتها عن نفسها كامرأة وفكرة المحيطين عنها كزوجة استناداً إلى فشل خبرتها الأولى، إضافة إلى أن خبرة زواجها الأولى لم تكن منفرة أو سيئة .!! أقول بأنه مع عدم تجاهلنا لكل ذلك، فإننا لا يمكننا أن ننكر أيضاً أن المرأة التي لا تريد الزواج، هي امرأة لديها مبرراتها القوية التي تقنع بها .. ولديها تقييمها الشخصي لحالتها الخاصة جداً .. ولذلك فإن ما تنتهي إليه من قرار عدم الزواج، ينبغي أن يقابل بذات الأهمية التي تقابل بها رغبة المطلقة التي تنوي الزواج .. فكلاهما قد اختار .. وعلى المجتمع أن يحترم اختياريهما ..

ولعل ما يرجح كفة المطلقة التي ترفض الزواج في مجتمعاتنا العربية، هو في الغالب وجود أبناء لديها، ترى هي كأمٍ أن عليها أن تضحي برغباتها

في سبيلهم ، حتى وهي تدرك امتلاكها للقدرات التي يمكن أن تجعل زواجها الثاني ناجحاً ، وتعرف حاجتها للزواج وضرورته ربما الملحة لها .. لكنها اختارت ألا يتحكم رجل آخر لا تعرف طباعه في أبنائها وفلذات أكبادها ، الذين تطمح أن تحقق لهم وبهم بعض أهدافها في الحياة ..

كما أن ما قد يرجح رفض المرأة المطلقة للزواج .. هو " بعض الوفاء " للزوج السابق .. ولا عجب .. فبعضهن تحاول أن تثبت أنه خسر كثيراً بطلاقها ، وهاهي لا تطيق رجلاً آخر رغم حريتها .!! وبعضهن تحاول أن تفسد عليه ما قد يكون من سوء ظنه واتهامه لها أنها اختارت الطلاق كي ترتبط برجل غيره ، فإذا بها تحاول أن تثبت له بعد طلاقها خيبة ظنه ، وتؤكد له أنها تفرغت لأبنائها وحدهم .. وربما يكون لدى بعضهن رغبة في عودة زوجها إليها مرة أخرى ، لأنها إما تحبه ، أو لأنها تريد لأبنائها أن يكونوا بين أبويهم معاً لا مع أحدهما .!!

أياً ما كان الأمر .. فالسؤال العادل والمنطقي هو : ماذا يستطيع المجتمع أن يقدمه لإمرأة لديها كل المواصفات التي ترجح كفة أية علاقة زواجية ، لكنها ترفض الزواج ولديها مبرراتها ، أو تفتقد لتلك المقومات ولديها أسباباً أخرى للرفض : هل يقف مكتوف الأيدي أمام رغبتها المشروعة .. أم يعينها على تنفيذ قرارها الصعب ، ويهيئ لها من الظروف ما يساهم في نجاحها ، كمواطنة لها كل الحقوق المشروعة في الحياة الكريمة .. بالطريقة التي تختارها .؟؟

من هذا المنظور نحن نرى أن على المجتمع السوي كي يضطلع بدوره المنوط به حيال المطلقة التي لا ترغب في الزواج ، أن يقوم بعدد من الأدوار يمكننا أن نبلورها فيما يلي :

* إعداد دورات تربوية خاصة تمكن من يجتازها من النساء المطلقات ، من أداء مهام تربوية ناجحة حيال الأبناء يقوم فيها بدوري الأم والأب معاً .. دون تداخل أو جور أو افتعال أو عدم اقتناع أو معاناة نفسية .!!

* تكوين رابطة مشهرة للمطلقات (دون خجل) تخضع لكل إجراءات الإعلان والإشهار .. ولها مجلس إدارة منتخب ونادي وأنشطة رياضية واجتماعية ولجان أنشطة تنظم مسابقات للأبناء ورحلات ومعارض وحفلات .. أي أن تكون رابطة ذات أنشطة مكثفة ومتواصلة تملأ حياة المطلقات وأبنائهن وبناتهن ..

* الموافقة – بقانون – على نقل المطلقات العاملات – عندما يرغبن – إلى وظائف من نوع خاص .. وظائف تتميز بإمكانية الترقي في وقت قصير ، وبجماهيرية الموقع ، وبتحقيقه للإشباع الوظيفي والاجتماعي لصاحبه .. وذلك بدلاً من البقاء في الوظائف المخزنية أو الإدارية العتيقة ، التي ربما تبعث على الضيق والكآبة لدى أصحابها .. وربما تؤدي إلى تفاقم حالة المطلقة النفسية ..

* إنشاء مجلة اجتماعية مستقلة للمطلقات ، تهتم بشؤونهن وشؤون أبنائهن : مشكلاتهن النفسية ، معوقات التقدم الدراسي لأبنائهن ، أبعاد ومتاعب الدور المزدوج الذي تقوم به المرأة حيال أبنائها ، مشكلاتها القانونية مع مطلقها وأهله في شأن الميراث وسن الحضانة وضم الأبناء ، الاستشارات التربوية ، المساعدات الإنسانية لتيسير الحصول على ما تحتاجه من معلومات وتسهيلات تتعلق بالسلع الاستهلاكية والمعمرة ، أسماء دور الحضانة الأكثر تميزاً وعناوينها وطرق الاتصال بها ، أرقام هواتف خاصة لتدبير إجراءات أكثر أمناً لها ولأبنائها في مسكنها أو في الشارع .... إلى غير تلك الأبواب التي تستطيع المجلة أن تغطيها بكفاءة .!!

* توجيه بعض برامج الانتساب الموجه الجامعية نحو المطلقات في منازلهن ، عبر قناة تليفزيونية تعليمية متخصصة .. مع امتحانات شهرية وفصلية ونصف سنوية وسنوية بالمراسلة .. وبالطبع إمكانية الاستشارات الدراسية والأكاديمية عبر الهاتف مع أشخاص متفرغين لهذا الغرض ..

وبعد كل هذا .. نتصور الآن أن باستطاعتنا أن نتفهم إلى أي مدى كان تقصيرنا في حق بناتنا المطلقات .. سواء المظلومات منهن أو الجائرات .. سواء الراغبات في الزواج مرة أخرى أو الرافضات .. سواء من طلقن رغماً عنهن أو من اخترن الطلاق بمحض إرادتهن .. فكلهن بناتنا اللواتي أوقعهن حظهن العاثر في تجربة زوجية خائبة .. أياً من كان السبب في تلك الخيبة .. وليس على المجتمع الذي يدعي العدل ، إلا كفكفة دمعة المحزون ، في نفس الوقت الذي يقتص فيه من الظالم .. لكننا بكل أسف اكتشفنا أننا جندنا كل طاقاتنا (من شرطة ونيابة وقضاء وغيره) للقصاص من الجاني .. ونسينا تماماً حق المجني عليه حتى في كفكفة دمعه ..!!

استعرضنا كيف يقي المجتمع بيوته من غول الطلاق قبل أن يحدث .. وكيف يعالج حالات الطلاق بعد حدوثها .. سواء لدى تلك التي ترغب ، أو التي لا ترغب في الزواج مرة أخرى ..!!

****

ماذا ..؟؟ لماذا ..؟؟ كيف ..؟؟

أسئلة ثلاثة .. نشير إلى أنها مفتاح الفلاح في أى عمل يقدم عليه فرد من بني الإنسان .. بحيث إذا ترك واحداً منها لم يشمله باهتمامه ، ولم يجهد نفسه فى البحث له عن إجابة قبل أن يبدأ العمل .. فإنه سيفشل لا محالة فيما هو مقدم عليه ..!!

ماذا تريد .؟؟ لماذا أنت تريد هذا بالذات .؟؟كيف تحصل عليه وتحقق به ما سعيت من أجله .؟؟

فى كثير من أمور الحياة .. نجد أن آفة البعض أنهم لا يعرفون ماذا يريدون .. " وليتنا نتذكر ما يقوله الناصح لمثل هؤلاء .. فهو يقول له : أنت مشكلتك إنك مش عارف أنت عايز إيه .!! " .. فيكون أول قصيدتهم كفراً .. ولا يملكون أمام هذا الجهل العمدى إلا أن يضربوا في الأرض على غير هدى .. إلى أن تنتهى بهم الحياة دون أن يحقق الواحد منهم شيئاً ذا أهمية يتركه ذكرى من بعده لمن يأتى بعده .!!

لكن وفي أمر الزواج والاقتران بامرأة .. فالرجال - كل الرجال - يعرفون الإجابة على هذا السؤال الأول في منظومة الأسئلة الثلاثة .. يعرفون بالتأكيد ماذا يريدون .!! فالرجل يعرف بمجرد بلوغه مبلغ الرجال أنه يريد امرأة .. حتى أولئك الذين لا يعرفون فى كثير من أمور حياتهم ماذا يريدون .. فهم يعرفون في هذا الموضوع بالذات أنهم يريدون امرأة .!! وبالتالى فإن الإجابة على السؤال الأول في منظومة أسئلة النجاح .. هي إجابة معلومة للجميع .. بل يبدو أنها إجابة فطرية لا يملك أحد أن يجهلها أو يتجاهلها .!! وعليه فإننا نسارع إلى السؤال الثانى في المنظومة .. والذى هو لب الموضوع .. والذى تترتب على الجهل به كل المشكلات التى قتلنا ونقتل أنفسنا بحثاً عن أسبابها وحلولها ، منذ أن بدأ الله الخلق .. والى أن يرث - سبحانه - الأرض ومن عليها وما عليها : لماذا يريد الرجل الزواج بامرأة .؟!

إن الاستعانة بهرم الحاجات الإنسانية للعالم ابراهام ماسلو .. قد تمكننا من استنتاج إجابة عامة لمثل ذلك السؤال .. فذلك الهرم يشمل ستة مستويات .. هي من عند القاعدة : الحاجات البيولوجية ، ثم الحاجة للأمن ، ثم الحاجة للحب والانتماء ، ثم الحاجة لتقدير الذات ، ثم الحاجة لتحقيق الذات ،

وأخيراً الحاجات الجمالية .!! وبناءً عليه .. يمكن القول - كإجابة على السؤال - أن الرجل يريد المرأة زوجة ..لتكون له " أنثى .. ثم طباخة .. ثم سكنا نفسياً .. ثم حبيبة .. ثم مقدرة لدوره .. ثم محققه لرجولته .. ثم امرأة جميلة " .. على هذا الترتيب .!!

فكونها أنثى وطباخة سوف يحقق له الحاجات البيولوجية ..وكونها سكناً نفسياً سوف يحقق له الحاجة للأمن .. وكونها حبيبة سيحقق له الحاجة للحب .. وكونها ستنجب له أبناء ينتمي إليهم وينتمون إليه سيحقق له الحاجة للانتماء .. ثم تقديرها لدوره دون تسفيه أو ادعاء بعدم أهميته سيحقق له الحاجة للتقدير .. ثم مساعدته على النجاح في بيته وعمله سيحقق له الحاجة لتحقيق الذات .. ثم وأخيراً جمالها الذى سيحقق له الحاجات الجمالية العليا .!!

وعودة مرة أخرى إلى هرم ماسلو .. فنجد أنه يقرر عدم إمكانية الانتقال من حاجة إلى أخرى في الترتيب الذى عرضناه ، دون أن تتحقق الحاجة السابقة عليها ، فلا يمكن البحث عن الحب قبل أن تتحقق الحاجات البيولوجية .. كما وان الجماليات لا يمكن أن تسبق الحاجة للانتماء وهكذا .!!

وعليه فإن ترتيب ..أنثى ..طباخة..حبيبة..الخ ..لا يمكن انتهاكه أو القفز عليه إلا في حالات استثنائية جداً .!!

وعلى عادة البشر في ادعاء السمو بالغرائز والتعالى عن البيولوجيات .. فإن الكثير من الرجال يبدأون عند اختيار المرأة من قمة الهرم ..أى يبدأون على عكس ما كان يجب أن يبدأوا به .. فيبحثون أولاً عمن تشبع الحاجات الجمالية لديهم أولا ، فيختارونها جميلة .. ثم عمن يرونها مقدرة لهم ومنبهرة بدورهم آو مالهم أو مظهرهم .. ثم عمن يحبونها " بالمفهوم العاطفى الفج " وتحبهم .. ثم إلى أن ينتهوا معك إلى أن آخر ما يفكرون فيه

هو إشباع الغرائز . بالمفهوم الحيواني الذى يتحدث الناس عنه .. إلا هم بالطبع .!!

وللأسف .. فإنهم وبعدما يتزوجون .. فإنهم يعيدون الهرم إلى سابق وضعه .. فيشكون للرائح والغادى من أنها لا تجيد دور الأنثى .. وأنها لا تفهم شيئاً في مطبخها .. وأنها غير قادرة على احتوائه كسكن آمن .. الخ .!! فإذا ما حدثته عن جمالها الذى اختارها من أجله .. فإنه سيلوى شفتيه امتعاضاً وأسفاً .!!

فإذا ما أتينا إلى التفاصيل الدقيقة لأسباب احتياج الرجل للمرأة .. فإننا سنجد أن هناك خصوصية لكل رجل .. في نوع الأنثى التى يريدها .. ونوع الأمن الذى يحتاجه .. ونوع الحبيبة التى يريدها .. ونوع الانتماء الذى يفتقده .. حتى في حاجاته الجمالية .. فلا يوجد اتفاق عام على المستوى الجمالى المطلوب للمرأة .. شكلاً أو مضموناً الذى يُرضى أو يحوز على إعجاب كل الرجال .!!

فالأنثى المتسلطة قد تعجب البعض .. والبعض الأخر " يفضلونها ضعيفة " .. وبينهما تقوم قائمة من أنواع الإغراءات في المرأة " الأنثى " .. فهذه يغريه منها صوتها الناعس .. وتلك تقتله فيها عيونها الساحرة .. وتلك خمريتها .. وتلك لباقتها .. وتلك جرأتها .. وتلك ذكاؤها .. وتلك نعومتها .. وغير ذلك كثير .!! والطباخة .. قد يعجبه منها أنها تحاكى صنع أمه .. والآخر قد يعجبه فيها مخالفتها لطبيخ طفولته .. والثالث يعشق حرصها في طبيخها على المظهر قبل الجوهر .. والرابع لا يعرف من الإدمان إلا إدمان رائحة ملابسها المضمخة بالبصل والثوم .. وكلهم يجمعون على أن طبيخ المرأة " نفس " .. وهم محقون بالتأكيد . ما لم يقصدوا " علم النفس " الذى تحكى إليكم الآن من فوق أحد مقاعده .!!

والسكن النفسي في المرأة . يتوقف على نوع المخاوف التي تغلغلت في نفس الرجل في طفولته . فاحتاج من المرأة أن تحتويه بأمنها من مخاوفه .. فهذا قد يتمنى لديها أمناً من غدر الزمان .. وهذا قد يبحث عندها عن أمن من قهر الرجال .. وهذا قد يسكن إليها من هوانه على الناس .!!

وقل مثل ذلك عن الحبيبة .. وقل مثله عن مسئولة الانتماء في حياته .. ومثله عن المقدرة لدوره .. إلى أن يصل إلى الجمال الذي يحتاجه الرجل في المرأة .. وساعتها .. حدث عن أنواع الجمال النسائي ولا حرج .. فهذه هي السمراء وتلك هي البيضاء .. ثم الهيفاء والغيداء والجيداء والفرعاء والشهلاء والحوراء والنجلاء والكحلاء والهدباء والملداء والشيماء والملساء .. وسبحان من قسم الأرزاق . فلم يرضى أحد برزقه .. ثم قسم العقول . فأعجب كل واحد بعقله !

فهلا علمت الآن من أين تأتي مشكلات الرجل في علاقته بامرأته .؟! من جهله بالذي يريده فيها .. من إدعائه التسامي عن حاجاته البيولوجية تجملاً وكبراً . وهو في قرارة نفسه " بيولوجي حتى النخاع " .. من اختياره المتسرع لامرأة لا تحقق له حاجاته كما يريدها هو . بل كما يتمنى أن تراها الناس فيها وفيه .. من تحاشي الواقعية في تقييم نفسه وتقدير احتياجاته .. من ظلمه لنفسه . الذي يترتب عليه ظلم " بنت الناس " معه .!!

ولا مفر من كل ذلك – وغيره كثير – إلا بمعرفة الإجابة الدقيقة الواعية على السؤال الثاني المحدد : لماذا يريد هذا الرجل بالذات . أن يتزوج من تلك المرأة بالذات .؟!

إن المعرفة بإجابتيّ السؤالين الأول والثاني " ماذا .. ولماذا .؟ " ..سوف تقود صاحبهما تلقائياً إلى معرفة إجابة السؤال الثالث : " كيف ".!! لذلك ننصح الباحثين عن إجابة لهذا السؤال : " كيف يتزوج الرجل بالمرأة التي يريدها " .؟؟بأن يعيدوا القراءة من جديد ..

****

= كيف حالك ؟؟

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ..

= أراك متبرماً ضيق الصدر ..

- لا أبداً .. فقط مشاغل الحياة .

= هل أنت نادم على طلاقك ؟؟

- ليس بالظبط .. بإمكانك أن تقول أنني تسرعت ..

= في ماذا ..؟؟

- في طلاقها ..!!

= ألم تقل لي أن الحياة بينكما قد أصبحت مستحيلة ..؟؟

- ليس تماماً .. كانت هناك لا تزال فرصة ..!!

= فرصة لأي شيء ..؟؟

- لأن نتجاوز الخلاف ونبقي على كيان الأسرة .

= لقد تغير قولك من النقيض للنقيض ..!!

- لم يتغير .. لكنني أرى الأمر الآن بعين أخرى .

= أية عين ..؟؟

- عين الرجل الذي عليه أن يخوض تجربة جديدة مع امرأة أقل في المواصفات .. ومع هذا فإن عليه حتماً أن ينجح ..!!

= ولماذا أقل مواصفات ؟؟

- ألست رجلاً مطلقاً جاوز الأربعين ..؟؟ أتعتقد أنني سأتزوج بكراً في عمر الزهور ..؟؟

= ولماذا عليك حتماً أن تنجح ..؟؟

- وهل تريد أن يصمني الناس بأنني رجل فاشل في زيجاتي جميعها .. ألا تعتقد أنهم بهذا قد يجدون سبيلاً إلى التشكيك في قدراتي . على اعتبار أن امرأتين لم تقبلا بالعيش معي ..؟؟

= ولماذا لا تعود إلى امرأتك ..؟؟

- كرامتي تمنعني .. وخوفي من أن ترفض يجعلني أتردد ..!!

= ولماذا تعتقد أنها ترفض ..؟؟

- لأنها امرأة عنيدة وأنا قسوت عليها أيام زواجنا . وأظنها لن تقبل تكرار التجربة ..!!

= ولماذا لا تدع مسألة الكرامة جانباً . وتذهب إليها نادماً متوسلاً طالباً الصفح والغفران ..؟؟

- قلت لك أخشى أن ترفض ..!!

= ولماذا لا ترسل من أهلك من يستطلع لك الطريق قبل ذهابك .؟

- فعلتها وأرسلت أختي . فلم تعطها إجابة شافية

= أكانت أقرب في كلامها معها إلى القبول .. أم أقرب إلى الرفض ..؟؟

- لم تفصح لها عن شيء .. ولم تنجح أختي في انتزاع رد واضح محدد

= أظنها تنتظر أن تأتيها أنت .

- أعرف ذلك .. لكني أخشى أن يكون كميناً مدبراً تسترد به كرامتها التي أضعتها بطلاقي لها .. ثم بعد أن أعلن على الناس رغبتي في العودة إليها .. ترفض ..!!

= هل إلى هذا الحد هي تمقتك ؟؟

- نعم .. إلى هذا الحد أمقت أنا نفسي ..!!

= هون عليك يا رجل

= يوماً بصحبتها أستعيده الآن ، يعادل عندي كل السنوات التي تبقت لي في عمري .

- أنت تحبها إذن ..؟؟

- لقد اكتشفت ذلك بعد طلاقي لها .. ولم أكن أشعر به وهي معي ..!!

= وماذا ترى الآن من حل ..؟؟

- أن تذهب إليها أنت وامرأتك وتقنعها بما رأيت مني .. لعلكما تحصلان على موافقتها ..

= وإن أملت علينا شروطاً ..؟؟

- اقبلا كل شروطها دون تحفظ

= ولو طلبت مالاً ..؟؟

- لها مني خمسة أضعاف مهرها الأول

= وإن طلبت أن تكون العصمة في يدها ..؟؟

- إلا هذه .. فلن أقبل ولو كانت آخر النساء ..!!

= إذن أنت تنوي أن تطلقها ثانية ..!!

- أعوذ بالله أن أتركها وأجرب فراقها مرة أخرى

= إذن دع أمر العصمة في يدها

- لا أقبل .. فالمسألة مسألة كرامة رجل

= وكرامتها وهي المرأة ..؟؟

- أتعهد بألا أمسها أو أنال منها

= وهل تظن أنها ستصدقنا .. أقصد ستصدقك ..؟؟

- اقسموا لها وأنتم صادقون

= سنذهب .. ولكني لا أثق في طبعك

- لا .. اطمئن .. فالرجل الذي يجرب شعور المطلق لا يسعى أبداً إلى تكراره ولو سفته امرأته المل ..!!

= إذا كان هذا هو حال المطلق .. فماذا عن حالها وهي المطلقة ..؟؟

- هي أكثر راحة وسعادة الآن بالتأكيد .. فمثلي لا يستريح من يعاشره .!!

= تتحدث عما سبق .. أم عما سيأتي ..؟؟

- القادم في علم الغيب .. إنما الأعمال بالنيات ..!!

= ألم أقل لك إني لا أثق في كلامك

- حتى أنا لا أثق في طبعي .. لكني أرجوك ألا تخذلني واذهب أنت وامرأتك إليها

= سأحاول إن شاء الله .. وربنا يهدي النفوس ..!!

- آمين ..

****

حالة انفصام الشخصية " الشيزوفرانيا " .. هي حالة نفسية تصيب بعض الناس من يطلق عليهم - تطاولا - المرضى النفسين .. رغم أنهم ليسوا إلا أفراداً غير مستطيعي التوافق مع مجتمعهم ، لظروف تخص المجتمع أكثر مما تخصهم .. وهى تعني في صورتها الكلاسيكية أن يتصرف الفرد في ا لمواقف المختلفة بطريقتين مختلفتين ، وكأنه صاحب

شخصيتين " منفصمتين " أو منفصلتين عن بعضهما كلياً أو جزئياً .. غير أن هذه الصور الكلاسيكية قد تتفاقم وتتزايد . إلى حد الدخول في خطر اتخاذ " المريض " اسما مختلفاً غير اسمه الحقيقي دون وعي منه .. وقد يتزوج من امرأة أخرى على أنه لم يسبق له الزواج . برغم أنه متزوج .. كما وأنه قد تتضاءل تلك الحالة إلى حد حدوث الانفصام بدرجة طفيفة وفي مواقف متقاربة ، بحيث لا يلمح التغير في سلوك " المريض " فيها إلا المقربون منه أو المتخصصون في المجال .!!

كان لابد من تلك المقدمة عن انفصام الشخصية – والتي بالغت كثيراً في تبسيطها – حتى يتسنى لنا إدراك الحالة التي صار عليها الكثير من الأزواج والزوجات من انفصام .. وان كان أصحابه في تلك الحالة على وعي تام به.. واقرؤوا معي ما جاءني به زوجان ..اعتقد أنهما أصيبا بحمى الانفصام تلك التي حدثتكم عنها .. ولست أدرى هل إلى علاجهما من سبيل .. أم لا ؟!

جاءاني .. هي وهو .. وجحيم النقاش بينهما مستعر .. حتى كدت أن أعتذر لهما عن عدم استطاعتي سماعهما قبل أن يعودا إلى هدوئهما .. فلما شعرا بجدية تهديدي ، استعادا ثوب الاتزان " المؤقت " .. فأشرت إلى الزوجة كي تبدأ حديثها .. فقالت والغيظ يكاد يفتك بها :

" عمر مشكلتنا التي جئناك بها بدأ مع أول سنوات الزواج .. ولا أعتقد أنها ستنتهي أبداً ..لذا سأحكي لك لا لتحلها ..بل لتشهد على أنني لست متجنية عليه عندما طالبته بالفراق بالتي هي أحسن .. بدلا من لجوئنا إلى المحاكم وتشويه سمعتنا وسمعة أبنائنا ..

"زوجي يا سيدي من ذلك النوع من الرجال الذي يأخذ بلب محادثه .. ويخلب عقول مستمعيه منذ اللحظة الأولى لحديثه .. كما أنه يبهر بحسن هندامه نظر مشاهديه ..فهو يجيد انتقاء ألفاظه و " حروفه" .. حتى

لتحسبه دبلوماسياً أو مذيعاً .. وقد كان هذا الأمر من دواعي ضيقي أول زواجنا ..حيث كانت أناقته وطلاقته ولباقته .. تفتح الباب أمام المعجبات به إلى مطاردته وإثارة "غيرتي" أو قل حفيظتي .. حتى أنني كنت وفي مرات كثيرة أخرج عن وقاري وأتصرف معهن بدون كياسة أو احترام .. لكنني مع الوقت تعودت على ذلك ..و تجاهلته تماما.. بعدما نصحني كثيرون وكثيرات .. بأن أولئك الأخريات لن ينلن منه شيئاً إلا ما تناله المعجبات من "نجمهن المفضل " في السينما أو في التليفزيون .. وطالما أنه في النهاية زوجك أنت .. وليس لأحد أن يشاركك فيه .. فلا تعيري الأمر التفاتا .!! "

إلى هنا يا سيدي ويبدو الأمر عادياً وكأنه ليست هناك مشكلة .. لكن مشكلتي الحقيقية تكمن في أنه في منزلنا .. ومعي ومع أبنائي .. يسلك على شاكلة مختلفة تماما عما يسلك بها ويعرفها عنه الناس خارج المنزل .. بل ويحسدوننا عليها .!! فأما عن حديثه معنا ..فصفاقة ووقاحة وإهانة .. وتطاول باللفظ والفعل .. حتى تمنيت لو أن المعجبات والمعجبين جاءوا إلى منزلنا ليروا بأعينهم كيف يتصرف " الجنتلمان " مع أهل بيته وأقرب مقربيه ! وبرغم فداحة وقع هذا الذي أرويه على نفسي .. وبرغم أن بعضه كفيل بأن يجعلني أنفر منه وأطلب الانفصال وفوراً .. إلا أنه لا يمثل إلا نصف مشكلتي معه .. أما النصف الأخر " المرير " .. فهو يتعلق بمظهره .. ففي الوقت الذي يبهر به الناس خارج منزله .. فهو في بيته على العكس تماما .. حيث يقوم من نومه يوم عطلته ..فلا يغسل وجهه حتى ينتصف النهار .. ولا تعرف فرشاة الأسنان طريقها إلى فمه إلا وهو خارج فقط .. أما العطور التي تفوح منه فيشمها القاصي منه والدانى خارج منزله " فهي خسارة فينا " - على حد تعبيره .. وأما ملابسه .. فقد يبقى نهاراً بكامله وهو يرتدى " بيجامة " عتيقة انتهى عمرها الافتراضى منذ زمن . على وفرة ما لديه من ملابس الخروج .!! لقد ضقت ذرعا سيدي بلفت نظره " على استحياء " لبعض هذا

التقصير . الذي جعلني " أشمئز " منه .. وبلفت نظره " صراحة " .. ومع هذا لم أجد منه أذناً صاغية .. ولم يعد أمامي إلا أمران لا ثالث لهما .. فإما أن أفضح إهماله وأشوه صورته أمام من ينبهر به ويحسدني على ذلك .. أو أن أنفصل عنه لتأخذه واحدة من معجباته فتعاني مثلما أعاني .!! وأنا اخترت الحل الثاني . بعدما أعيتني الحيل لتغيير سلوكه " المنفر " هذا .. فهل أنا على حق في موقفي .. أم أنني أطلب عزيزاً مستحيلاً .؟!

لم أجبها برغم إلحاح نظراتها .. بل أشرت إليه كي يحكي .. وفي ذهني قول رشيد لأحد الخلفاء الراشدين ..عندما جاءه رجل يصرخ وقد وضع يده على إحدى عينيه قائلاً له : " لقد فقأ فلان عيني يا أمير المؤمنين " .. فجزع الحاضرون وقالوا للخليفة بأن من فعل ذلك لا يستحق إلا القصاص ..فقال لهم : " انتظروا حتى يأتينا الآخر فنسمع حجته .. فلعله قد فقئت له كلتا عينيه ".!!

قال لي من دون مقدمات : " أنا لن أنكر بعضاً من هذا الذي حكته لك .. وإن كنت أؤكد أنها بالغت كثيراً فيما حكت .. فلا أنا مهتم إلى حد الإفراط في أناقتي ولباقتي خارج المنزل كما قالت .. ولا أنا مهمل إلى حد التفريط فيهما داخل المنزل .. وبرغم هذا .. سأفترض أن كل قولها صحيحا .. فماذا عنها هي .؟!

" لقد امتنعت كثيراً عن جرح مشاعرها .. لكنها هي التي أرادت ذلك الآن .. فلا بأس إذن .. وخذ عندك يا سيدي " ..

" أنها تفعل نفس ما تشكوه مني تماما منذ تزوجتها .. فهي إذا خرجت إلى عملها .. فالملابس الفخمة .. والبارفانات الباريسية التي أدفع فيها قدراً لا بأس به من دخلي .. والمكياج الصارخ .. وتصفيف الشعر على أحدث " التقليعات " .. وإذا حادثت زملاءها أو زميلاتها .. أو أجابت على التليفون ..

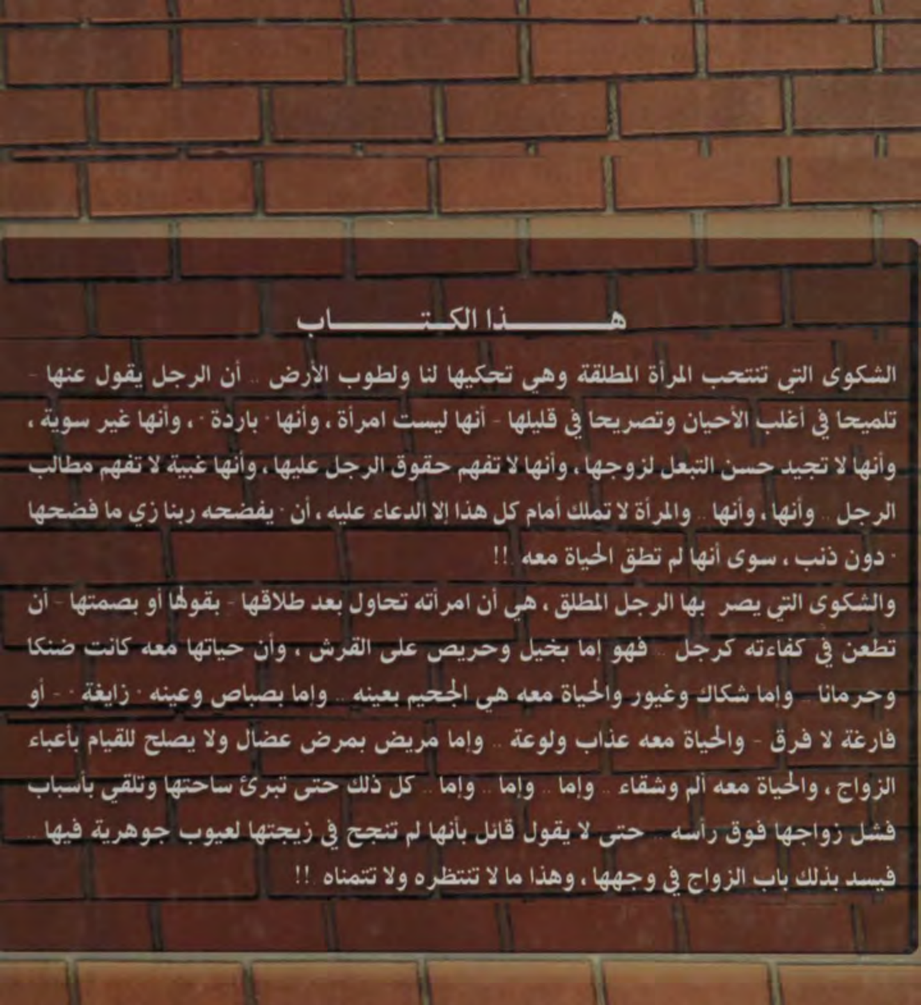
فهي الودود الرقيقة التي تمارس دوراً رائعاً من الهدوء والكياسة ..حيث الابتسامة بحساب والضحكة بحساب .. ووتيرة الصوت لا تعلو إلا فوق الهمس بقليل .. فإذا ما عادت إلى منزلها .. ومعنا .. فالإهمال التام في الملابس والمكياج هو من نصيبنا .. فشعرها - طوال الوقت - أسير حمامات الزيت وخلطات " الأعشاب " التي تحفظ له لمعانه وبريقه عند الخروج .. وحبيس " الروليات " أو البكر الذي يجعله عندما تهم بالخروج في " الفورمة " التي تريدها .. ووجهها في أغلب الأحيان سجين قناعات " ماسكات " الزبادي وترانشات الخيار والجزر .. وكل أنواع الخضروات .!!

أما عن حديثها معي .. فحدث ولا حرج .. فالتشويح بيديها يسبق دوماً كلماتها التي لا تنتقيها ..فهي دوماً" زهقانة " من الشغل .. وليتك تراها وهي تتحدث بروعة في الهاتف مع إحدى صديقاتها .. ويتصادف أن أشير إليها لأمر ما .. فإذا بها تضع كفها على السماعة وتشنف مسامعي بموشح من الألفاظ السوقية .. وهي تنظر شذراً بعينيها وكأنها شيطان .. ثم إذا بها تعود إلى مكالمتها الرقيقة .. وإلى وتيرة صوتها " الملائكي " .. وكأنها شخصية أخرى غير تلك التي كانت تحادثني منذ لحظات .!! فمن إذن أحق بالشكوى يا سيدي : الزوج الذي لم يكون الجمال أبداً سجية من سجاياه .. ولم تكن " الرقة " أبداً سمة من سماته .. أم الزوجة التي وجب عليها أنه إذا نظر إليها سرته .. والتي إذا افتقدت لجمالها أمام زوجها ، حق له أن يتزوج من أخرى .؟؟

لم أزد بعد أن استجمعت شتاتي الذي بعثرته فضائحهما .. على أن قلت لهما : " كلاكما على حق .!! ثم مددت يدي إليهما بورقة .. كتبت بها عنوان أقرب مأذون .. وذيلتها بخالص تمنياتي لهما بـ " طلاق سعيد " .!!!!

****

المحتويات



هـــــــذا الكتـــــــاب

الشكوى التي تنتحب المرأة المطلقة وهي تحكيها لنا ولطوب الأرض .. أن الرجل يقول عنها - تلميحا في أغلب الأحيان وتصريحا في قليلها - أنها ليست امرأة ، وأنها " باردة " ، وأنها غير سوية ، وأنها لا تجيد حسن التبعل لزوجها ، وأنها لا تفهم حقوق الرجل عليها ، وأنها غبية لا تفهم مطالب الرجل .. وأنها ، وأنها .. والمرأة لا تملك أمام كل هذا إلا الدعاء عليه ، أن " يفضحه ربنا زي ما فضحها " دون ذنب ، سوى أنها لم تطق الحياة معه .!!

والشكوى التي يصر بها الرجل المطلق ، هي أن امرأته تحاول بعد طلاقها - بقولها أو بصمتها - أن تطعن في كفاءته كرجل .. فهو إما بخيل وحريص على القرش ، وأن حياتها معه كانت ضنكا وحرمانا .. وإما شكاك وغيور والحياة معه هي الجحيم بعينه .. وإما بصباص وعينه " زايغة " - أو فارغة لا فرق - والحياة معه عذاب ولوعة .. وإما مريض بمرض عضال ولا يصلح للقيام بأعباء الزواج ، والحياة معه ألم وشقاء .. وإما .. وإما .. وإما .. كل ذلك حتى تبرئ ساحتها وتلقي بأسباب فشل زواجها فوق رأسه .. حتى لا يقول قائل بأنها لم تنجح في زيجتها لعيوب جوهرية فيها .. فيسد بذلك باب الزواج في وجهها ، وهذا ما لا تنتظره ولا تتمناه .!!

BOOKCITY FOR PUBLISHING
٤٠ شارع طلعت حرب - القاهرة هاتف فاكس : ٢٥٧٤٠٥٠٢ - ٢٠٢ bookcity4pub@yahoo.com